ولأول مرة في تاريخ العالم

ج٢

آية الله العظمى

الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي

(قدس سره الشريف)

التنضيد الإلكتروني

المستقبل للثقافة والإعلام

بيروت لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على محمد وآله الطيّبين الطاهرين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين

غزوة الحديبية

وكانت هذه الغزوة في غرّة ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة النبوية المباركة، وقد خرج فيها رسول الله (ص) في ألف وأربعمائة، وقيل: في ألف وخمسمائة من أصحابه، ومعه زوجته (أُم سلمة)، وكان اللواء يومئذ إلى علي (ع) كما كان إليه (ع) في المشاهد قبلها، ولم يخرج بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب.

وكان سببها أنه (ص) رأى في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية ان الله يأمره أن يدخل المسجد الحرام، وأن يطوف ويحلق مع المحلّقين.

وقيل: إنه (ص) رأى انه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا انهم داخلوا مكّة عامهم ذلك.

فأخبر (ص) أصحابه أنه معتمر وأمرهم بالخروج، فتجهّزوا للسفر، وخرجوا معه، فلما نزلوا (ذا الحليفة) أحرموا بالعمرة وساقوا البدن، وساق رسول الله (ص) ست وستّين بدنة، وأشعرها عند إحرامه.

وفي الطريق كان رسول الله (ص) يستنفر الأعراب ومن حوله من البوادي ليخرجوا معه، وهو لايريد الحرب، ولكن استظهاراً على قريش وحذراً من أن يعرضوا له بحرب أو صدود عن البيت.

فلما بلغ قريشاً ذلك بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً ليستقبل رسول الله (ص) فكان يعارضه على الجبال، فلما كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر، فأذّن بلال وصلّى رسول الله (ص) بأصحابه.

فقال خالد بن الوليد: لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبناهم، فإنهم لا يقطعون صلاتهم، ولكن يجيء لهم الآن صلاة أُخرى أحبّ إليهم من ضياء أبصارهم، فإذا دخلوا في الصلاة، أغرنا عليهم.

فنزل جبرئيل على رسول الله (ص) بصلاة الخوف بقوله تعالى: (وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ

وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً وَلا جُناحَ) ([1]).

في طريق الحديبية

وسار النبي (ص) حتى إذا كانوا بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إنّ قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ومانعوك.

فقال (ص): أشيروا عليَّ أيها الناس، فلما لم يرَ منهم إلاّ الموافقة قال (ص): امضوا على اسم الله، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي (ص): إنّ خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين، فما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي (ص) حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته القصواء.

فقال أصحابه: خلأت القصواء، خلأت القصواء.

فقال النبي (ص): ما خلأت القصواء، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت به، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرّضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكوا إلى رسول الله (ص) العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فما زال يجيش بالري حتى صدروا عنه.

مندوبو قريش من خزاعة

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله (ص) من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا اعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت.

فقال رسول الله (ص): إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وانّ قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم إلا خلّوا بيني وبين العرب؟ فإن أك صادقاً فإنما أجرّ الملك إليهم

[1] – النساء: ١٠٢.

مع النبوّة، وإن أك كاذباً كفتهم ذؤبان العرب، لا يسألني اليوم امرؤ من قريش خطة ليس لله فيها سخط إلا أجبتهم إليه.

ثم قال (ص): فإن شاءوا ماددتهم مدّة، ويخلّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر عليهم فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلاّ فقد جموا، وإن هم أبوا فوالّذي نفسي بيده لأُقاتلنّهم على أمري حتى تنفرد سالفتي أو لينفذنّ الله أمره.

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا.

فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء.

وقال ذووا الرأي: هات ما سمعته يقول.

قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي (ص).

مع ابن مسعود الثقفي

فقام عروة بن مسعود الثقفي، وكان عاقلاً لبيباً، فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟

قالوا: بلى.

قال: ألست بالولد؟

قالوا: بلى.

قال: فهل تتّهموني؟

قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟

قالوا: بلى.

قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته.

فأتاه، فجعل يكلّم النبي (ص)، ويقول له: إني يا محمد تركت قومك وقد ضربوا الأبنية وأخرجوا العوذ المطافيل، فلا يدعوك تدخل حرمهم وفيهم عين تطرف، أفتريد أن تبيد أهلك وقومك يا محمد؟

فقال له رسول الله (ص): ما جئت لحرب، وانما جئت لأقضي مناسكي، وأنحر بدني، وأُخلّي بينكم وبين لحومها.

فقال عروة: بالله ما رأيت كاليوم أحداً صُدّ كما صددت.

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي (ص) بعينه ويتعجّب مما هم عليه، فلقد رأى ان رسول الله (ص) إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له.

فتأثّر عروة بذلك فلما رجع إلى أصحابه قال لهم: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله انه إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وانه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

مع كبير رماة العرب

فقام رجل من بني كنانة يقال له: الحليس بن علقمة، وكان كبير الرماة في العرب وقال: دعوني آته.

فقالوا: ائته.

فلما أشرف على النبي (ص) وأصحابه، قال النبي (ص): هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها في وجهه حتى يراها.

فبعثت له، واستقبله الناس يلبّون.

فلما رأى الحليس الهدي يسيل عليه في قلائده من الوادي وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت.

فرجع دون أن يكلّم رسول الله (ص) شيئاً حتى إذا وصل إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى لكم أن تصدّوهم عن البيت، فوالله يا معشر قريش ما على هذا حالفناكم، أيُصدّ عن بيت الله من جاء معظماً له، وقد ساق الهدي معكوفاً إلى محلّه؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلّن بين محمد وما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد؟

فقالوا له: مه! كفّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

مع المندوب الرابع

فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص فقال: دعوني آته.

فلما أشرف عليهم، قال النبي (ص): هذا مكرز قد جاء.

فجعل يكلّم النبي (ص) فبينا هو يكلّمه إذ جاء سُهيل بن عمرو ومعه حفص بن الأحنف، فلما رآهما رسول الله (ص) يقبلان إليه قال لأصحابه: قد سّهل الله عليكم أمركم.

وهكذا كان يتفاءل الرسول (ص) في أُموره ويعلّم أصحابه والأجيال من بعده على ذلك والانطلاق في أُمورهم، وعدم التشاؤم واليأس منها.

مع خامس المندوبين

فلما وافى سهيل بن عمرو مع مرافقه رسول الله (ص) وكانا خامس المندوبين إليه، قالا: يا محمد، ألا ترجع عنا عامك هذا إلى أن ننظر إلى ماذا يصير أمرك وأمر العرب، فإن العرب قد تسامعت بمسيرك، فإن دخلت بلادنا وحرمنا، استذلّتنا العرب واجترأت علينا، ونخلي لك البيت في العام القابل في هذا الشهر ثلاثة أيام حتى تقضي نسكك وتنصرف عنّا؟

فأجابهم رسول الله (ص) إلى ذلك.

فقالا له: وترد إلينا كل ما جاءك من رجالنا، ونردّ إليك كل من جاءنا من رجالك.

فقال رسول الله (ص): من جاءكم من رجالنا فلا حاجة لنا فيه، ولكن على ان المسلمين بمكة لا يؤذَون في إظهار الإسلام، ولا يكرهون، ولا ينكر عليهم شيء يفعلونه من شرائع الإسلام.

فقبلا ذلك ورجعا إلى قومهما يخبرانهم بالخبر.

الاعتراض على معاهدة الصلح

فلما أجابهم رسول الله (ص) إلى الصلح ورجع سهيل وحفص إلى قومهما يخبرانهم بالصلح، أنكر على رسول الله (ص) بعض أصحابه ذلك، حتّى إنّ بعضهم قال: يا رسول الله ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟

فأجابه رسول الله (ص) قائلاً: نعم.

فقال: فنعطي الذلّة في ديننا؟

فقال رسول الله (ص): إن الله قد وعدني ولن يخلفني وعده.

فقال: يا رسول الله ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام ونحلق مع المحلّقين؟

فأجابه رسول الله (ص) وقال: أمن عامنا هذا وعدتك، أو قلت لك: ان الله عزّوجل قد وعدني أن افتح مكة وأطوف وأسعى وأحلق مع المحلّقين؟

ثم قال رسول الله (ص) لأصحابه: ألستم أصحابي يوم بدر إذ أنزل الله فيكم: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ) ([2]).

ألستم أصحابي يوم أحد: (إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ) ([3]).

ألستم أصحابي يوم كذا؟ ألستم أصحابي يوم كذا؟

فقالوا: الله أعلم ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

موافقة قريش

ورجع حفص بن الأحنف وسهيل بن عمرو إلى رسول الله (ص) وقالا: يا محمد، قد أجابت قريش إلى ما اشترطت عليهم من إظهار الإسلام وأن لا يكره أحد على دينه ولم يبق إلا الكتاب.

فدعا رسول الله (ص) بالمكتب، ودعا علي بن أبي طالب (ع) وقال له: اكتب.

فكتب علي (ع): بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: لا نعرف (الرحمان) ولكن اكتب كما كان يكتب آباؤك: باسمك اللهمّ.

فقال رسول الله (ص): اكتب باسمك اللهمّ، فإنه اسم من أسماء الله تعالى.

فكتبها (ع)، ثم كتب: (هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله (ص) والملأ من قريش).

فقال سهيل: لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك، ولكن اكتب: (هذا ما تقاضى عليه

---

[2] – الأنفال: ٩.

[3] – آل عمران: ١٥٣.

محمد بن عبد الله)، أتأنف من نسبك يا محمد؟!

فقال له علي (ع): إنه والله لرسول الله حقاً.

فقال سهيل: اكتب اسمه يمضي الشرط.

فقال له علي (ع): ويلك يا سهيل كفّ عن عنادك.

وهنا التفت رسول الله (ص) إلى سهيل وقال: والله إني لرسول الله وإن كذّبتموني ولم تقرّوا بي. ثم قال: أُمح يا علي واكتب: محمد بن عبد الله.

فقال علي (ع): ما أمحو اسمك من النبوّة أبداً.

فمحاه رسول الله (ص) بيده وقال: يا علي انّك إن أبيت أن تمحو اسمي من النبوّة، فوالذي بعثني بالحقّ نبياً لتجيبنّ أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض مضطهد.

فلما كان يوم صفين ورضوا بالحكمين كتب: (هذا ما اصطلح عليه أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان).

فقال عمرو بن العاص: لو علمنا انك أمير المؤمنين ما حاربناك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

فقال أمير المؤمنين (ع): (صدق الله ورسوله (ص) أخبرني رسول الله (ص) بذلك).

بنود معاهدة الصلح

ثم قال رسول الله (ص) لعلي (ع): اكتب (هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله والملأ من قريش وسهيل بن عمرو):

اصطلحوا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليهم، وأن بيننا وبينهم غيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد من العرب وفي عهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش من العرب وعهدهم دخل فيه (فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثب بنو بكر وقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم) وأن يكون الإسلام ظاهراً بمكّة لا يكره أحد على دينه ولا يؤذى ولا يعيَّر، وانّ محمداً يرجع عنهم عامه هذا وأصحابه، فلا يَدخل عليهم مكة، وأنه إذا كان في العام القابل دخلها بأصحابه فأقرّوا بها ثلاثاً معهم سلاح

الراكب، السيوف في القرب، لا يدخلونها بغيرها.

قبل إبرام المعاهدة

وهنا قال بعض المسلمين: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده وقد خرج فاراً من سجن أبيه سهيل من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ولم يكن له ذنب سوى أنه اختار الإسلام وترك الشرك.

فقال أبوه سهيل: يا محمد هذا أول ما أُقاضيك عليه أن تردّه إليَّ.

فقال النبي (ص): إنا لم نقض بالكتاب بعد.

قال: إذاً والله لا أُصالحك على شيء أبداً.

فقال النبي (ص): فأجره لي.

قال: ما أنا بمجيره لك.

قال (ص): بلى فافعل.

قال: ما أنا بفاعل.

قال مكرز: بلى قد أجرناه لك، لكن سهيل رفض ذلك رفضاً باتاً وجعل الصلح متوقّفاً على تسليمه ابنه إليه.

وهنا قال أبو جندل حين رأى انه سوف يردّ إلى أبيه: يا معشر المسلمين أُردّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله.

فقال بعض المسلمين: لا نردّه.

فقام رسول الله (ص) وأخذ بيده فقال: اللهمّ إنّك تعلم انّ أبا جندل لصادق فاجعل له فرجاً ومخرجاً.

ثم أقبل على الناس وقال: إنه ليس عليه بأس انما يرجع إلى أبيه وأُمّه، وانيّ أُريد أن أتمّ لقريش شرطها.

ثم التفت (ص) إلى أبي جندل وقال: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك عهداً وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.

التوقيع على معاهدة الصلح

ثم شهد على الصلح من المسلمين: المهاجرون والأنصار، ومن المشركين: سهيل بن عمرو ومن معه، وقد كتب علي (ع) الكتاب في نسختين: نسخة عند رسول الله (ص) ونسخة عند سهيل بن عمرو، ورجع سهيل بن عمرو مع حفص بن الأحنف إلى قريش بالكتاب وأخبراهم بالخبر.

من معجزات الرسول (ص)

روي انه أصاب الناس بالحديبية جوع شديد وقلّت أزوادهم، لأنهم أقاموا بها بضعة عشر يوماً، فشكوا إلى رسول الله (ص) ذلك، فأمر بالنطع أن يبسط، وأن يطرحوا فيه ما بقي من أزوادهم، فأتوا بدقيق قليل وتميرات.

فقام (ص) ودعا بالبركة فيها، وأمرهم أن يأتوا بأوعيتهم فملأوها حتى لم يجدوا لها محملاً.

نسك المصدودين

فلما فرغ رسول الله (ص) من معاهدة الصلح قال لأصحابه: قوموا فانحروا بدنكم ثم احلقوا رؤوسكم.

فما قام منهم رجل، حتى قال (ص) ذلك ثلاث مرات، وهم يقولون: كيف ننحر ونحلق ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا والمروة؟

فلما لم يقم أحد اغتمّ رسول الله (ص) من ذلك، ثم قام فدخل على أُمّ سلمة فذكر لها ما لقي من الناس.

فقالت له أُم سلمة: يا نبيّ الله أتحبّ ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج (ص) فلم يكلّم أحداً حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً.

فقال رسول الله (ص) تعظيماً للبدن: رحم الله المحلّقين.

فقال قوم لم يسوقوا البدن: يا رسول الله والمقصّرين؟

فقال رسول الله (ص) ثانياً: رحم الله المحلّقين الذين لم يسوقوا الهدي.

فقالوا: يا رسول الله والمقصّرين؟

فقال (ص): رحم الله المقصّرين.

العودة إلى المدينة

ثم رحل رسول الله (ص) نحو المدينة فرجع إلى التنعيم ونزل تحت الشجرة، فجاء أصحابه الذين أنكروا عليه الصلح فاعتذروا وأظهروا الندامة على ما كان منهم، وسألوا رسول الله (ص) أن يستغفر لهم.

قال جابر: كنّا يوم الشجرة ألفاً وخمسمائة فأصابنا العطش، فأُتي رسول الله (ص) بماء في إناء صغير فوضع يده فيه فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنّه العيون.

قال: فشربنا وسقينا وكفانا ولو كنّا مائة ألف، فكيف بنا ونحن ألف وخمسمائة رجل؟

ورجع رسول الله (ص) إلى المدينة وأنزل الله تعالى عليه في الطريق سورة الفتح: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) إلى قوله سبحانه: (فَوْزاً عَظِيماً) ([٤]).

قال أبو عبد الله الصادق (ع): فما انقضت تلك المدّة حتى كاد الإسلام يستولي على أهل مكة.

من بركات صلح الحديبية

ولما رجع رسول الله (ص) إلى المدينة انفلت أبو بصير بن أُسيد بن حارثة الثقفي من مشركي قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين، فجاءا إلى رسول الله (ص) وقالا: العهد الذي جعلته لنا، فدفعه إلى الرجلين.

فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: أرى سيفك يا فلان جيّداً؟

فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت.

---

[٤] – الفتح: ١ ـ ٥.

قال أبو بصير: أربني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو.

فقال رسول الله (ص) حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً.

فلما انتهى إلى النبي (ص) قال: قتل والله صاحبي، واني لمقتول.

فجاء أبو بصير فقال: يا نبيّ الله، قد والله أوفى الله ذمّتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم.

فقال (ص): ويل امه مسعر حرب لو كان معه أحد.

فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم، فخرج ومعه خمسة نفر كانوا قدموا معه مسلمين حتى كانوا بين العيص وذي المرة من أرض جهينة على طريق عير قريش مما يلي سيف البحر.

وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل في سبعين راكباً أسلموا، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش أحد مسلماً إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمع منهم عصابة بلغوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون، فلا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم.

فأرسلت قريش أبا سفيان إلى رسول الله (ص) يسألونه ويتضرّعون إليه أن يبعث إلى أبي بصير الثقفي، وأبي جندل ومن معهم فيقدموا عليه، وقالوا: من خرج منا إليك فأمسكه غير حرج أنت فيه.

فعلم الذين كانوا أشاروا على رسول الله (ص) أن يمنع أبا جندل من أبيه بعد القصّة، أن إطاعة رسول الله (ص) خير لهم فيما أحبّوا وفيما كرهوا، وعلموا انه ما فتح في الإسلام قبله فتح أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس والتقوا فتفاوضوا في الحديث فلم يكلم أحد بالإسلام ويعقل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنتين مثل مَن كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

النبي (ص) يتفرّغ لإبلاغ رسالته

ولما استقرّ رسول الله (ص) بعد صلح الحديبية في المدينة واطمأنّ فكره من مناوشات المشركين وصدودهم، تفرّغ إلى إبلاغ رسالته ـ التي كتب الله لها أن يظهرها على كل الرسالات وأن يختم بها الرسل والأديان ـ إلى كل المعمورة.

ولذلك أرسل رسله وكتب رسائله إلى شتّى أنحاء العالم، إلى الرؤساء والملوك، وإلى العشائر والقبائل، وإلى الشخصيات الدينية والسياسية داخل الجزيرة وخارجها، يطلب منهم الدخول في السلم والسلام، وإلى قبول الإسلام، ويعدهم عليه الأجر والثواب ومضاعفته لهم لمكانتهم الإجتماعية، كما ويحمّلهم إثم قومهم إن هم أبوا ذلك. وبهذا أسلم ناس كثير، وانتشر الإسلام.

غزوة خيبر

لما قدم رسول الله (ص) المدينة من الحديبية مكث فيها عشرين ليلة، ثم خرج منها غادياً إلى خيبر، وذلك في ذي الحجّة آخر سنة ست، وقيل: في محرّم أول سنة سبع من الهجرة النبوية المباركة، وكانت الراية يومئذ لعلي (ع)، كما ان الفتح كان على يديه (ع) أيضاً.

وكانت خيبر منطقة واسعة ذات حصون وقلاع قوية، وأراضي ومزارع خصبة، وكانت تبعد عن المدينة بإثنين وثلاثين فرسخاً، ونفوسها ما يقرب من عشرين ألفاً، وكانت تموّل المشركين وتحرضهم على قتال المسلمين وإبادتهم، ولذلك وعد الله نبيّه فتحها وهو بالحديبية بقوله تعالى:

(وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ) ([٥]).

يعني: صلح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة: فتح خيبر.

فخرج رسول الله (ص) مستنجزاً ميعاد ربّه واثقاً بكفايته ونصرته، وكان معه ألف وأربعمائة راجل ومائتا فرس، وذلك بعد أن استعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وقيل: أبا ذر، وقيل: نميلة بن عبد الله الليثي.

وفي الطريق أذِنَ لعامر بن الأكوع أن يحدو بالإبل حتى تسرع في مشيها، فإن الإبل تخف إذا سمعت الحديّ وتنشط في السير إذا حدي لها، وكان عامر هذا رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالقوم ويقول:

اللهمّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فاغفر لنا يا رب ما اقتنينا وثبت الأقدام إن لاقينا

[٥] – الفتح: ٢٠.

وألقين سكينة علينا إنا إذا صبح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا ان الذين قد بغوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا ونحن عن فضلك ما استغنينا

فسرّ رسول الله (ص) من قول عامر بن الأكوع وقال له: يرحمك الله، فرزق الشهادة في سبيل الله وبين يدي رسوله (ص) وذلك عندما جدّ الحرب وتصاف القوم في غزوة خيبر، حيث قد خرج من الحصن يهودي وطلب من يبرز إليه، فبرز إليه عامر، فأبلى بلاءاً حسناً ونال الشهادة أخيراً بضربة أراد أن يضرب بها العدوّ فأصابت عين ركبته، فمات منها.

فقال رسول الله (ص) في حقّه: إنه أُوتي من الأجر مرّتين، وذلك في جواب من قال: بطل عمله لأنّ اصابته كانت من ضربته هو.

من نفاق ابن أُبيّ

ولما توجّه رسول الله (ص) إلى خيبر، أرسل ابنُ أُبيّ إلى يهود خيبر من يقول لهم: ان محمداً قصد قصدكم وتوجّه إليكم، فخذوا حذركم ولا تخافوا منه فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قليل.

فلما علم ذلك أهل خيبر أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان يستمدونهم لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين.

هذا والرسول (ص) قد سار باتجاه منطقة الرجيع حتى ظن بعض انه يريد تأديب قبائل غطفان وفزارة لمساعدتهم اليهود في غزوة الأحزاب.

فلما نزل منزل الرجيع، وكان بينهم وبين غطفان مسيرة يوم وليلة، تهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر لإمداد اليهود، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حساً ولغطاً، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا.

ثم انّ رسول الله (ص) عرّج بمن معه من الرجيع متّجهاً إلى خيبر سالكاً الطريق الذي يقطع ارتباط غطفان وغير غطفان مع يهود خيبر، وبذلك قطع المدد عن خيبر، كما أمن من محاصرتهم له وتطويقهم إيّاه.

على مشارف خيبر

ولما كان رسول الله (ص) قريباً من خيبر وأشرف عليها قال لأصحابه: قفوا، فوقفوا، فرفع النبي (ص) يديه نحو السماء وقال:

اللهمّ رب السماوات السبع وما أظللن، وربّ الأرضين السبع وما أقللن، وربّ الشياطين وما أضللن، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله.

فلما دخلوا منطقة خيبر، صلّى بهم رسول الله (ص) فيها صلاة الصبح وركب وركب المسلمون، وأصبح اليهود وفتحوا حصونهم وغدوا إلى أعمالهم معهم المساحي والمكاتل كعادتهم في كل يوم، فإذا بهم يفاجأون بمحاصرة رسول الله (ص) وأصحابه منطقتهم واحتلال كل المواضع الحساسة وسد الطرق عليهم، فرجعوا نحو حصونهم هاربين وهم يقولون: محمد والله وجيشه، ودخلوا حصونهم وأغلقوها بإحكام.

وجعل رسول الله (ص) يقول: (الله أكبر، خربت خيبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين).

اليهود وقرار المواجهة

ولما دخل اليهود حصونهم، وأحكموا إغلاقها، عقدوا مؤتمراً طارئاً يبحثون فيه مستجدات الوضع الراهن، ويدرسون كيفية مواجهتهم للخطرالمحدق بهم . حسب نظرهم . فاتفقوا أخيراً على المواجهة المسلحة، وذلك بأن يجعلوا النساء والذراري في أحد حصونهم السبعة، ويجعلوا ما يحتاجون إليه من الطعام في حصن آخر، ويستقر المقاتلون على الأبراج، ويدافعوا عن كل حصن من حصونهم برمي النبال والأحجار كل من يقترب إليها، ويخرج صناديدهم خارج الحصن لمقاتلة المسلمين.

وهكذا فعلوا، فاستطاعوا بسببه أن يبقوا في حصونهم ويقاوموا حصار المسلمين لهم ما يقارب من شهر واحد، وكلما حاول المسلمون الاقتراب من حصونهم رموهم من على أبراجهم بالنبال والحجارة حتى قتل بعض المسلمين وجرح آخرون.

قبول النصيحة

ثم إنّ رسول الله (ص) نزل بأصحابه على مقربة من قلاع خيبر وحصونهم وعسكر هناك، عند ذلك جاء إليه أحد أصحابه وكان عارفاً بمواضع خيبر وقلاعها، ونقاط قوّتها وضعفها وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله أم هو الرأي في الحرب؟

قال (ص): بل هو الرأي.

فقال: يا رسول الله، إنّ هذا المنزل قريب جدّاً من حصن نطأة، وجميع مقاتلي خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا ونحن لا ندري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا وسهامنا لا تصل إليهم ولا نأمن من بياتهم، وأيضاً هذا بين النخلات ومكان غائر وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكراً؟

فقال رسول الله (ص): الرأي ما أشرت إليه، وقد جرى مثل هذا في غزوة بدر، ثم ضرب (ص) معسكره في منطقة آمنة.

الرجل الذي يحبّه الله ورسوله (ص)

وكان علي بن أبي طالب (ع) يومئذ صاحب راية رسول الله (ص) فلحقه رمد فمنعه من الحرب، وأخذ المسلمون يتناوشون اليهود من بين أيدي حصونهم وجنباتها، فلما كان ذات يوم، فتح اليهود الباب وكانوا قد خندقوا على أنفسهم خندقاً وخرج مرحب برجله يتعرض للحرب.

فدعا رسول الله (ص) أحد الصحابة وقال له: خذ الراية، فأخذها فما لبث أن عاد يجبّن أصحابه ويجبّنونه.

وفي الغد أخذ الراية صحابي آخر وسار بها غير بعيد ثم رجع يجبّن أصحابه ويجبّنونه.

فغضب رسول الله (ص) وقال: (ما بال أقوام يرجعون منهزمين يجبّنون أصحابهم؟ أما لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله كرّاراً غير فرّار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه).

وكان علي (ع) أرمد العين، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله (ص) وكلهم يرجو أن يعطاها.

فقال (ص): أين علي بن أبي طالب؟

فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه.

قال (ص): فأرسلوا إليه، فأتى، فبصق رسول الله في عينيه ودعا له وكان في دعائه له: (اللهم قه الحرّ والبرد).

فبرأ (ع) حتى كأن لم يكن به وجع، ولم يشتك حراً ولا برداً، ثم أعطاه الراية، وكانت راية بيضاء وقال له: (خذ الراية وامض بها فجبرئيل معك، والنصر أمامك والرعب مبثوث في صدور القوم، واعلم يا علي انهم يجدون في كتابهم ان الذي يدمّر عليهم اسمه ايليا، فإذا لقيتهم فقل: أنا علي، فإنهم يخذلون إن شاء الله تعالى).

فقال علي (ع): يا رسول الله أُقاتلهم حتى يكونوا مثلنا.

قال (ص): انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، وفي رواية: خير لك من حمر النعم، فإن أبوا ذلك فالجزية، وإن أبوا ذلك أيضاً فالحرب، فإن اختاروا الحرب فحاربهم.

فخرج علي (ع) بالراية يهرول هرولة حتى ركزها قريباً من الحصن، فاستقبله حماة اليهود، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، ثم دعاهم إلى الذمّة فأبوا إلاّ الحرب، وخرج إليه ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أنّي مرحب شاكي السلاح بطل مجرّب

ان غُلب الدهر فإني أُغلب والقرن عندي بالدما مخضّب

وكان مرحب لعظم هامته لا تصلح لرأسه بيضة ولا مغفر ولذلك جعل على رأسه نقير من جبل، وكان شاكاً في السلاح.

فقال علي (ع) في جوابه:

أنا الذي سمّتني أُمّي حيدرة كليث غابات شديد قسورة

اكيلكم بالسيف كيل السندرة أطعن بالرمح وجوه الكفرة

مرحب ينهزم

فلمّا سمع مرحب اسم حيدرة سقط في يده، وولّى على وجهه هارباً ولم يقف، فتمثّل له ابليس في صورة حبر من أحبار اليهود وقال له: إلى أين يا مرحب؟

فقال: تسمّى هذا القرن بحيدرة فخفته على نفسي، لأنّ ضئري كانت تحذّرني من مبارزة رجل اسمه حيدرة وتقول: إنه قاتلك.

فقال له ابليس: شوهاً لك، لو لم يكن حيدرة إلاّ هذا وحده لما كان مثلك يرجع عن مثله، ارجع فلعلّك تقتله، فإن قتلته سدت قومك، وأنا في ظهرك أستصرخ اليهود لك.

فردّه، فما كان إلا كفواق ناقة حتى ضربه علي (ع) ضربة سقط منها لوجهه، وانهزم اليهود يقولون: قتل مرحب، قتل مرحب، ودخلوا حصونهم وأغلقوا باب الحصن عليهم دونه.

فأقبل علي (ع) إلى الباب، وكان الباب منحوتاً من الحجر يعجز عن فتحه أُناس كثير فاجتذبه علي (ع) اجتذاباً وتترّس به، ثم رمى به فجعله على الخندق جسراً للمسلمين يعبرون عليه حتى ظفروا بالحصن ونالوا الغنائم، وقد قال ابن أبي الحديد في عينيته:

يا قالع الباب الذي عن هزّه عجزت أكفّ أربعون وأربع

البشارة بالفتح

وخرج البشير إلى رسول الله (ص) يقول: بأنّ علياً دخل الحصن، فأقبل رسول الله (ص) نحو الحصن، فخرج علي (ع) يتلقّاه، فلما نظر إليه رسول الله (ص) قال له: (بلغني نبأك المشكور، وصنيعك المذكور، قد رضي الله عنك ورضيت أنا عنك يا علي).

فبكى علي (ع) شوقاً.

فقال له: ما يبكيك يا علي؟

فقال: فرحاً بأنّ الله ورسوله عنّي راضيان.

فاستأذن حسان بن ثابت الأنصاري رسول الله (ص) أن يقول فيه شعراً، فقال:

وكان علي أرمد العين يبتغي دواءاً فلما لم يحس مداويا

شفاه رسول الله منه بتفلة فبورك مرقياً وبورك راقيا

وقال سأعطي الراية اليوم صارماً مكياً محباً للرسول مواليا

يحبّ الهي والإله يحبّه به يفتح الله الحصون الأوابيا

فأصفى بها دون البرية كلها علياً وسماه الوزير المواخيا

الإرفاق بالأسرى

ولما فتح علي (ع) الحصن أخذ فيمن أخذ صفية بنت حييّ بن أخطب، فدعا بلالاً فدفعها إليه، وقال له: يا بلال لا تضعها إلا في يدي رسول الله (ص) حتى يرى فيها رأيه.

فأخرجها بلال ومرّ بها في طريقه إلى رسول الله (ص) على القتلى، فكادت تزهق روحها جزعاً.

فقال له رسول الله (ص) لما علم بذلك: أنزعت منك الرحمة يا بلال؟

ثم عرض عليها رسول الله (ص) الإسلام، فأسلمت فاصطفاها لنفسه، ثم أعتقها وتزوّجها، فكانت امرأة مؤدّبة، وذلك انه لما أرادت أن تركب ثنّى رسول الله (ص) رجله لتركب، فأبت.

ورأى (ص) قريباً من عينها خضرة، فسألها عنه.

فقالت: يا رسول الله رأيت قبل قدومك علينا كأنّ القمر زال من مكانه وسقط في حجري . وما كنت أذكر من شأنك شيئاً . فقصصتها على زوجي فلطم وجهي لطمة اخضرّت عيني منها وقال: ما هذا إلا انك تمنّين ملك الحجاز.

فاتح خيبر

وروي انه لما دنا علي (ع) بالراية وركزها قريباً من حصون خيبر، أطلع يهودي رأسه من الحصن وقال: من أنت؟

قال (ع): أنا علي بن أبي طالب.

فلما سمع ذلك اليهودي اسم علي (ع) التفت إلى اليهود وقال: علوتم وما انزل على موسى، يعني بذلك انهم مغلوبون اشارة لما جاء في كتابهم: من ان الذي يدمّر عليهم اسمه ايليا، وهو علي (ع)، فدخل في قلوبهم من الرعب ما لم يمكنهم معه الاستيطان به.

الاستسلام وقبول الذمّة

لما فتح علي (ع) حصون خيبر المهمة، وقتل صناديد اليهود المدججين بالسلاح من أمثال مرحب وأخيه ياسر، وآخرين، قرابة المائة من شجعان اليهود، ولم يستطع اليهود من قتل المسلمين سوى خمسة عشر قتيل، خافوا فالتجأوا عن طريق الأنفاق السرية التي كانت

تربط بعض القلاع ببعض إلى آخر قلعة بقيت لهم كان فيها جميع أموالهم ومأكولهم، ولم يكن عليها حرب بوجه من الوجوه.

فنزل رسول الله (ص) محاصراً لمن فيها، فصار إليه يهودي منهم فقال: يا محمّد تؤمنني على نفسي وأهلي ومالي وولدي حتى أدلك على فتح القلعة.

فقال (ص): نعم أنت آمن، فما دلالتك؟

قال: تأمر أن يحفر هذا الموضع، فإنه يصل إلى ماء أهل القلعة، فتسدّ الموضع عليهم فيبقون بلا ماء فيستسلمون.

فرفض رسول الله (ص) اقتراحه وقال: أو يحدث الله غير هذا، وقد أمنّاك.

ثم إنه لما اشتدّ الحصار على اليهود وعلموا انهم لا يطيقون المقاومة والمقاتلة أرسل كبيرهم: ابن أبي الحقيق إلى رسول الله (ص) بأن اليهود تريد المفاوضة معك، فهل أنزل إليك لأُكلّمك في ذلك؟

قال (ص): نعم.

فنزل ابن أبي الحقيق وصالح رسول الله (ص) على حقن دماء كل من في الحصن من المقاتلين وعلى أن يخرجوا من خيبر وأرضها بنسائهم وذراريهم، ويتركوا لرسول الله (ص) ما كان لهم من مال وأرض، وكراع وسلاح، وبيضاء وصفراء.

فصالحهم رسول الله (ص) على ذلك وعلى أن لا يكتموه شيئاً ممّا ادخروه أو اكتنزوه من أموالهم.

وأخيراً.. اليهود يسلمون

فلما نزل أهل خيبر على الصلح وتهيّؤوا للجلاء من خيبر، أتوا رسول الله(ص) وعرضوا عليه الطرح التالي قائلين:

يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ولنا النصف من عوائدها، فنحن أعلم بها منكم وأعمر لها.

فصالحهم رسول الله (ص) على النصف على انه إذا شاء أن يخرجهم أخرجهم، وإذا شاء أن يقرهم أقرّهم، فلما أدركت الثمرة وبلغت، بعث إليهم عبدالله بن رواحة يجبي منهم النصف.

فجاء عبد الله وقوّم عليهم قيمة وقال: إما أن تأخذوه وتعطوني نصف الثمن، وإما أن آخذه وأُعطيكم نصف الثمن؟

فقال اليهود: هذا الحق، بهذا قامت السماوات والأرض، ثم إنهم بعد ذلك أسلموا لما رأوا من عدل الإسلام وأخلاق الرسول (ص).

وقيل: إنه لما جرت المقاسم في أموال خيبر شبع المسلمون ووجدوا بها مرفقاً لم يكونوا وجدوه من قبل حتى قال بعضهم: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر، وعن بعضهم: انه لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر.

للعفو لا للانتقام

ولما اطمأن رسول الله (ص) وتفرّغ من فتح خيبر أهدت له اليهودية: زينب بنت الحارث بن سلام بن مشكم وهي ابنة أخي مرحب، شاة مصلية، وقد سألت: أيّ عضو من الشاة أحبّ إلى رسول الله (ص) فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها السم وسممت سائر الشاة.

ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يديه (ص) تناول الذراع فأخذها فلاك منها مضغة وانتهش منها ثم لفظها، ومعه بشر بن البراء بن معرور فتناول عظماً فانتهش منه وأساغه.

فقال رسول الله (ص): ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة تخبرني انها مسمومة.

ثم دعى (ص) اليهودية فاعترفت.

فقال (ص): ما حملكِ على هذا؟

قالت، وهي تطلب لما فعلته عذراً: بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت: إن كان نبياً فسيخبر، وإن كان ملكاً استرحت منه، فتجاوز عنها رسول الله (ص).

ثم إنها لما رأت من أخلاق رسول الله (ص) ما رأته أسلمت وقالت: الآن عرفت انك نبي من عند الله واني أُشهدك ومن حضر اني على دينك، أشهد أن لا إله إلاّ الله وانّك محمّد رسول الله (ص).

ثم مات بشر بن البراء من أكلته تلك، ولكن بقي رسول الله (ص) بعد ذلك ثلاث سنين يعاني منها حتى قال لأُم بشر بن البراء عند ما جاءت تعوده في مرضه: يا أُمّ بشر، ما زالت الأكلة التي أكلت يوم خيبر مع ابنك تعاودني فهذا أوان انقطاع ابهري، فتوفي رسول الله (ص) شهيداً. وهناك روايات أُخرى في سبب وفاته (ص) مذكورة في المفصّلات.

بشارتان

ولما فتح رسول الله (ص) خيبر، أتاه البشير بقدوم ابن عمّه جعفر بن أبي طالب (ع) وأصحابه من أرض المهجر: الحبشة إلى المدينة، فما لبث أن جاء جعفر، فقام رسول الله (ص) يتلقّاه، فالتزمه وقبّل ما بين عينيه، ثم أقبل (ص) على الناس وقال: أيّها الناس ما أدري بأيّهما أنا أسَرّ؟ بافتتاحي خيبر، أم بقدوم ابن عمّي جعفر؟

وقيل: لما جاء جعفر قام إليه رسول الله (ص) واستقبله اثنتي عشرة خطوة، وقبّل ما بين عينيه وبكى وقال: لا أدري بأيهما أنا أشدّ سروراً، بقدومك يا جعفر، أم بفتح الله على أخيك خيبر؟

ثم قال رسول الله (ص) لجعفر: يا جعفر ألا أمنحك؟ ألا أُعطيك؟ ألا أحبوك؟

قال جعفر: بلى يا رسول الله.

فظنّ الناس انه يعطيه ذهباً أو فضّة.

قال (ص): إني أُعطيك شيئاً إن أنت صنعته في كل يوم كان خيراً لك من الدنيا وما فيها، فعلّمه الصلاة المعروفة بـ (صلاة جعفر الطيّار) وهي أربع ركعات بكيفية خاصة مذكورة في محلّها.

هدايا من أرض المهجر

لما قدم جعفر على النبي (ص) بخيبر أتاه بالفرع من الغالية والقطيفة فقال النبي (ص): لأدفعنّ هذه القطيفة إلى رجل يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، فمدّ الأصحاب أعناقهم إليها.

فقال النبي (ص): أين علي؟

فوثب عمّار بن ياسر فدعا علياً (ع)، فلما جاء قال له النبي (ص): يا علي خذ هذه القطيفة إليك.

فأخذها وأمهل حتى قدم المدينة، فانطلق إلى السوق وأمر صائغاً ففصل القطيفة سلكاً سلكاً، فباع الذهب، ثم فرّقه في فقراء المهاجرين والأنصار، ثم رجع إلى منزله ولم يترك لنفسه شيئاً.

فلقيه النبي (ص) من غد في نفر من أصحابه فقال له: يا علي اجعل غدائي اليوم وأصحابي هؤلاء عندك.

فقال علي (ع) مع انه لم يدّخر شيئاً: نعم يا رسول الله، على الرحب والسعة.

فدخل رسول الله (ص) مع أصحابه وكانوا خمسة: حذيفة، وعمّار، وأبوذر، وسلمان، والمقداد.

قال حذيفة: ودخل علي (ع) على فاطمة (ع) يبتغي عندها طعاماً، فوجد وسط البيت جفنة من ثريد تفور وعليها عراق كثير، وكأن رائحتها المسك، فحملها علي (ع) حتى وضعها بين يدي رسول الله (ص) فأكل وأكلنا حتى تملأنا ولم ينقص منه شيء.

فقام النبي (ص) حتى دخل على فاطمة (ع) وقال (ص) ونحن نسمع كلامه: أنّى لك هذا الطعام يا فاطمة؟

قالت (ع): (هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) ([٦]).

فخرج النبي (ص) مستعبراً وهو يقول: الحمد لله الذي لم يمتني حتى رأيت لابنتي ما رأى زكريّا لمريم، وكان إذا دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، فيقول لها: يا مريم أنّى لك هذا؟ فتقول: (هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ).

كرامات ظهرت في خيبر

وقال بعض من شهد خيبر من أصحاب رسول الله (ص): ما عجبنا من فتح الله خيبر على يدي علي (ع)، ولكنا عجبنا من قلعه الباب ورميه خلفه أربعين ذراعاً، ولقد تكلّف حمله أربعون رجلاً فما أطاقوه.

فاخبر النبي(ص) بذلك فقال: والذي نفسي بيده لقد أعانه عليه أربعون ملكاً.

وحينما سأله (ص) أحدهم: يا أبا الحسن لقد اقتلعت منيعاً وأنت ثلاثة أيام خميصاً، فهل قلعتها بقوّة بشرية؟

قال (ع): ما قلعتها بقوّة بشرية ولكن قلعتها بقوّة إلهية. أي بعنايته تعالى.

---

[٦] – آل عمران: ٣٧.

من علامات النبوّة

روي انه لما انصرف رسول الله (ص) من خيبر راجعاً إلى المدينة قال جابر: أشرفنا على وادٍ عظيم قد امتلأ بالماء، ولم يكن لنا طريق سواه، فقاسوا عمقه برمح فلم يبلغ قعره، فوقفنا متحيّرين، فنزل رسول الله (ص) وقال وهو يدعو الله: اللهمّ انّك جعلت لكل مرسل علامة، فأرنا قدرتك، اللهمّ أعطنا اليوم آية من آيات أنبيائك ورسلك.

ثم ضرب الماء بقضيبه واستوى على راحلته ثم قال: سيروا خلفي على اسم الله، فمضت راحلته على وجه الماء واتبعه الناس على رواحلهم ودوابّهم فلم يترطب أخفافها ولا حوافرها.

غزوة وادي القرى

ولما قفل رسول الله (ص) راجعاً من خيبر نحو المدينة عزم في طريقه على التوجّه إلى وادي القرى، وهي المنطقة الأُخرى التي كان يقطنها اليهود، وذلك لعرض الإسلام عليهم، أو نزولهم إلى الذمّة، وإلاّ قاتلهم وطهّر المنطقة من تواطئهم ضد الإسلام والمسلمين الذي طالما عانَوا منه في الأعوام الماضية.

فلما وافاهم رسول الله (ص) حاصر حصونهم بنفسه عدّة أيام حتى فتحها، ثم عقد معهم عقداً على غرار خيبر وتركهم يعملون في الأرض على النصف، ثم قسَّم ما أصابه منهم على أصحابه، ورجع نحو المدينة.

حوائط فدك

وفدك منطقة زراعية خصبة ذات حوائط عامرة سبعة([٧]) وكان يسكنها اليهود، وكبيرهم يوشع بن نون.

فلما فرغ رسول الله (ص) من خيبر عقد لواءً ثم التفت (ص) إلى علي (ع) وقال: يا علي قم إليه فخذه، فقام علي (ع) إلى اللواء فأخذه، فبعثه رسول الله(ص) به إلى فدك.

وكان أهل فدك قد سمعوا بما دمّر الله على أهل خيبر وبمسير علي (ع) فاتح خيبر اليهم، فامتلأت قلوبهم من ذلك خوفاً ورعباً، فأرسلوا إلى رسول الله (ص) قبل وصول علي (ع)

[٧] – وهي تقرب من خيبر بنحو (٥٠) كيلومتراً، وتبعد عن المدينة بما يقرب من (١٤٠) كيلومتراً.

إليهم يصالحونه على فدك ويسألونه أن يسترهم بأثواب، ويحقن دماءهم، ويتركوا له أرضهم وأموالهم، وكان الذي مشى بينهم وبين رسول الله (ص) في ذلك محيصة بن مسعود أحد بني حارثة.

فصالحهم رسول الله (ص) على أن يحقن دماءهم.

فكانت حوائط فدك ملكاً لرسول الله (ص) خاصة خالصة، لأنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، فنزل جبرئيل عليه وقال: يا رسول الله انّ الله عزّوجل يأمرك أن تؤدّي ذا القربى حقه([٨]).

قال (ص): يا جبرئيل ومن قرباي؟ وما حقه؟

قال جبرئيل: فاطمة (ع) فاعطها حوائط فدك.

فدعى رسول الله (ص) فاطمة (ع) وأعطى بأمر من الله تعالى فدكاً إليها (ع) نحلة لها وبلغة لابنيها، وملكاً خاصاً لها، وبقيت في ملكها وبيدها (ع) في حياة الرسول (ص).

هذا وقسّم رسول الله (ص) غنائم خيبر ووادي القرى بعد إخراج الصفايا والخمس بين أصحابه، فوجد بها المسلمون مرفقاً لم يكونوا وجدوه من قبل، لأنها فتحت عنوة وأوجف عليها بخيل وركاب، فكان للمقاتلين الحق فيها دون فدك.

سرية أُسامة بن زيد

وأقام رسول الله (ص) بالمدينة بعد مقدمه من خيبر إلى شوال سنة سبع من الهجرة النبوية المباركة، وكان يبعث خلال تلك المدة السرايا لتوطيد الأمن أطراف المدينة، ولتأديب ما تبقّى ممن يفكر في مهاجمة المسلمين، وكذا لتبليغ الإسلام إليهم، وعرض أحكامه وتعاليمه السمحة عليهم.

ومن تلك السرايا: سرية أُسامة بن زيد، فقد بعثه رسول الله (ص) في خيل إلى بعض قرى اليهود ـ يقال: انها كانت تدعى: الحرقة ـ ليدعوهم إلى الإسلام.

وكان رجل من اليهود يقال له: مرداس بن نهيك في بعض تلك القرى، فلما أحسّ بخيل رسول الله (ص) جمع أهله وماله وصار في ناحية الجبل، وأقبل عليهم يقول: أشهد أن لا إله

---

[٨] – (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) الإسراء: ٢٦. (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) الروم: ٣٨.

إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله (ص)، فمرّ به أُسامة بن زيد فطعنه وقتله.

فلما رجع إلى رسول الله (ص) وأخبره بذلك.

قال له: قتلت رجلاً شهد أن لا إله إلاّ الله، وانّي رسول الله (ص)؟!

قال أُسامة: يا رسول الله انما قالها تعوّذاً من القتل.

فقال رسول الله (ص): فلا شققت الغطاء عن قلبه، لا ما قال بلسانه قبلت، ولا ما كان في نفسه علمت؟

وأنزل الله تعالى في ذلك: (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً) ([9]) الآية. ثم بعث رسول الله (ص) بديته إليهم.

سرية ابن رواحة

وبلغ رسول الله (ص) بعد رجوعه من خيبر: ان بشير بن رزام اليهودي يجمع غطفان ليغزو المدينة بهم، فبعث إليه عبدالله بن رواحة في ثلاثين راكباً فيهم عبدالله بن أنيس، فلما أتوه فكّروا في أن يأخذوه إلى النبي (ص) ليرى فيه رأيه، ولذلك قالوا له: ألا تحب أن يستعملك رسول الله (ص) على خيبر؟

قال: نعم.

فلم يزالوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً معه، كل رجل منهم ردف رجلاً من المسلمين، فلما صاروا على ستة أميال ندم بشير اليهودي وفكر في الغدر، فأهوى بيده إلى سيف عبدالله بن أنيس.

ففطن له عبدالله فزجر بعيره، ثم اقتحم يسوق القوم حتى إذا استمكن من بشير اليهودي ضرب رجله فقطعها، فاقتحم بشير وفي يده عصا معوّجة الرأس فضرب بها وجه عبدالله فشجّه شجّة بلغت أُمّ رأسه، ومال كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله ولم يصب من المسلمين أحد، وقدموا على رسول الله (ص) فمسح على شجّة عبدالله فالتأمت ولم تؤذه ما كان حيّاً.

---

[9] – النساء: ٩٤.

رد الشمس

وفي هذه السنة يعني سنة سبع من الهجرة النبوية المباركة طلعت الشمس بعد ما غربت لعلي (ع)، فعن أسماء بنت عميس: ان النبي (ص) كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي (ع)، فلم يصلّ العصر حتى غربت الشمس.

فقال له رسول الله (ص): أصلّيت يا علي؟

قال: لا.

فقال رسول الله (ص) . وقد رفع يديه نحو السماء .: (اللهمّ انه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس).

قالت أسماء: فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت، ووقعت على الجبل والأرض وذلك بالصهباء في خيبر.

سرية بشير

ومنها: سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة، معه ثلاثون رجلاً، فقتلوا، وقاتل بشير بن سعد حتى ارتثَّ وقيل قد مات، وقدم ابن زيد الحارثي بخبرهم، ثم قدم بعده بشير بن سعد.

سرية إلى يُمن وجبار

ومنها: سرية بشير إلى يُمن وجبار وهي أرض لغطفان، وقيل لفزارة وعذر، وبعث معه ثلاثمائة رجلاً، لجمع تجمّعوا للإغارة على المدينة، فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسير بشير هربوا، وأصاب لهم نعماً كثيرة وأسر رجلين، فقدم بهما إلى المدينة إلى رسول الله (ص) فأسلما.

سرية إلى نجد

وبعث رسول الله (ص) سرية قبل نجد.

قال الراوي: فبلغت أسهامنا اثني عشر بعيراً.

وسميت بذلك لأنها كانت بدلاً عن العمرة التي مُنعوا عنها عام الحديبية.

وذلك أنه لما أهلّ هلال ذي القعدة يعني في سنة سبع من الهجرة النبوية المباركة، أمر (ص) أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدّهم عنها المشركون بالحديبية، وأن لا يتخلّف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف عنهم أحد منهم إلا رجالاً استشهدوا بخيبر ورجالاً ماتوا.

فخرج (ص) بعد أن استعمل على المدينة أبا ذر الغفاري وخرج مع رسول الله(ص) قوم من المسلمين للعمرة، فكان مجموع من خرج في عمرة القضاء ألفين من المسلمين، وساق (ص) ستّين بدنة، وقد قلّدها، وأحرم من مسجد المدينة، وأحرم معه المسلمون، ولبّى ولبّى معه المسلمون واتّجهوا بتلبيتهم نحو مكّة، وذلك بعد أن جعل على هديه ناجية بن جندب الأسلمي.

وحيث إن رسول الله (ص) لم يكن يأمن مباغتة قريش وغدرهم به وبأصحابه في أرض مكة أمر مائتي رجل من المسلمين بأن يحملوا معه السلاح والدروع والرماح وحملهم على مائة فرس، وأمّر عليهم محمد بن مسلمة وأمرهم أن يتقدّموه إلى منطقة (مرّ الظهران) قريباً من الحرم وينتظروا قدومه هناك.

فلمّا علمت قريش بذلك أرسلوا من يقول لرسول الله (ص) بأن من شروطهم عليه: أن لا يدخل مكة إلا بسلاح المسافر.

فأجابه (ص): (نعم لا ندخلها إلا كذلك، ولكن يكون هؤلاء قريبين منّا) وبذلك سدّ (ص) طريق الغدر على قريش.

ثم دخل رسول الله (ص) ومن معه بسلاح المسافر وهم يلبّون، وذلك بعد أن خرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال وأخلوا لهم مكة، وقيل: انه كان ذلك لئلاّ يروه، عداوة لله ولرسوله، فلم يزل رسول الله (ص) يلبّي حتى استلم الركن بمحجنه، وكان دخوله مكة من الثنيّة التي تطلعه على الحجون، وعبدالله بن رواحة آخذ بزمام راحلته وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
قد أنزل الرحمن في تنزيله بأنّ خير القتل في سبيله

يا رب إني مؤمن بقيله إني رأيت الحق في قبوله

النبي (ص) يقضي نسكه

ثم طاف رسول الله (ص) بالبيت الحرام على راحلته، وطاف المسلمون معه، وأمر عبدالله بن رواحة أن يردّد هذا الدعاء والمسلمون يردِّدونه معه ويقولون: (لا إله إلاّ الله وحده وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده).

فلما قضى رسول الله (ص) نسكه دخل البيت الحرام حتى إذا حان الظهر أمر بلالاً فأذّن على ظهر الكعبة وأقام الصلاة بأصحابه.

ثم ان رسول الله (ص) لما أراد السعي بين الصفا والمروة ورأى قريشاً قد اصطفوا له لينظروا إليه وإلى أصحابه قال لأصحابه: رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة، ثم أخذ يهرول في سعيه في المكان المعلوم الآن في المسعى، وأخذ المسلمون يهرولون معه فيه ليرى المشركون جلدهم وقوّتهم.

فسعى رسول الله (ص) ومن معه سبعاً حتى إذا فرغ من السعي أتمّ نسكه ثم خرج من إحرامه، وكذلك فعل المسلمون.

وبعد ذلك أمر رسول الله (ص) مائتين من أصحابه الذين قضوا مناسكهم أن يذهبوا إلى أصحابهم بمرّ الظهران فيقيموا على السلاح حتى يأتي الآخرون فيقضون نسكهم، ففعلوا.

وأقام رسول الله (ص) بمكة ثلاثاً، فلما كان عند الظهر من اليوم الرابع أتاه سهل بن عمرو ونفر آخرون معه وقالوا: قد انقضى أجلك فاخرج عنّا، فأمر أبا رافع ينادي بالرحيل، وأن لا يمسينّ بها أحد من المسلمين.

وركب رسول الله (ص) ومن معه حتّى نزل بسرف وهي على بُعد عشرة أميال من مكّة.

عند العودة إلى المدينة

لما عزم رسول الله (ص) على ترك مكّة والعودة إلى المدينة أقبل إليه عمّه العبّاس في رسالة من شقيقة زوجته ميمونة بنت الحارث أُخت أُم الفضل زوجة العباس حيث قد أعجبها ما شاهدته من رسول الله (ص) فأرسلت إليه عبر العباس تعرض عليه رغبتها في الزواج منه، فوافق رسول الله (ص) على ذلك ليقوّي عبر زواجه هذا أواصره بقريش ويستميل قلوبهم إليه.

ولذلك خلّف أبا رافع ليحمل إليه ميمونة حين يمسي، وأقام بسرف حتى قدمت ميمونة ومن معها وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم، حيث لاموا ميمونة على رغبتها في الزواج من رسول الله (ص) وأرادوا منها أن تنصرف عن ذلك، لكنها أبت عن إجابتهم وأصرت على إرادتها، وكانت على ما قيل: هي آخر من تزوّجه رسول الله (ص) وآخر من مات من أزواجه.

ورجع رسول الله (ص) إلى المدينة وقد تحقّقت رؤياه التي أراه الله تعالى في منامه قبل عام تقريباً، فنزلت الآية الكريمة تقول:

(لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً) ([10]) وفي الآية بشارة بفتح مكة الذي تحقّق في السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة.

من ذكريات السنة الثامنة

كان رسول الله (ص) من دأبه بعد كل صلاة أن يخطب على المسلمين، فكان (ص) يخطب فيهم وهو متكىء على جذع نخلة كانت هناك في المسجد، وفي مطلع السنة الثامنة من الهجرة النبويّة المباركة، استأذنته امرأة من الأنصار كان لها غلام نجّار في أن يصنع له منبراً يخطب عليه.

فأذن لها، فأمرت ابنها، فاتّخذ له (ص) منبراً ذا ثلاث درجات.

فلما كان يوم الجمعة خطب رسول الله (ص) على ذلك المنبر، فحنّ الجذع لفراق رسول الله (ص) حتى تصدّع وانشق، فنزل رسول الله (ص) ومسحه بيده الكريمة حتى سكن، ثم رجع إلى المنبر.

سرية كعب إلى ذات أطلاح

وذات أطلاح منطقة في ناحية الشام خلف وادي القرى، وأهلها من قضاعة، ورأسهم رجل يقال له: سَدوس.

---

[10] – الفتح: ٢٧.

بعث إليهم رسول الله (ص) في شهر ربيع الأول من السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً من المبلّغين ليبلّغوهم الإسلام.

فلما أتوا ذات أطلاح وجدوا فيها جمعاً كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام، فأبوا أن يجيبوا وانقلبوا عليهم يقتلونهم، فقتلوا أصحاب كعب جميعاً، وأفلت كعب جريحاً وتحامل حتى قدم المدينة على رسول الله (ص) وأخبره الخبر، فتأثّر رسول الله (ص) والمسلمون من ذلك كثيراً.

سريّة مؤتة

ثم ان رسول الله (ص) كان قد أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى ملك بصرى حاكم الشامات المطلق، يدعوه فيه إلى الإسلام، فلما نزل مؤتة ـ بضم الميم ـ وهي من عمل البلقاء بالشام دون دمشق، عرض له عامل الملك شرحبيل بن عمرو الغساني فقبض عليه، ولما عرف انه رسول النبي (ص) إلى الملك خالف الأعراف السائدة في ذلك اليوم وقتله، ولم يُقتَل لرسول الله (ص) رسول غيره، رغم كثرة الرسل الذين أُرسلوا من المدينة إلى الملوك والرؤساء بعد صلح الحديبية.

ولذلك لما بلغ رسول الله (ص) خبر قتله اشتدّ عليه، وندب الناس، وأخبرهم بقتل الحارث، كما أخبرهم بقتل جماعة المبلّغين، فأسرعوا وخرجوا فعسكروا بالجرف، فصلّى بهم رسول الله (ص) الظهر، ثم خطبهم وأوصاهم، فقال:

(اوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا بسم الله وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجراً، ولا تهدموا بناءاً).

ثم أمَّر جعفرَ على ثلاثة آلاف وقال: إن قُتِل جعفر، فزيد بن حارثة على الناس، فإن قتل زيد، فعبدالله بن رواحة.

صاحب الراية البيضاء

ثم عقد رسول الله (ص) لهم لواءاً أبيض ودفعه إلى جعفر وقال: إذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث، فأيّتهنّ أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم:

(ادعهم إلى الإسلام، فإن فعلوا فاقبل واكفف، ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار

المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أنَّ لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء، إلاّ أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة، فأرادوا أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة، فأرادوا أن تجعل لهم ذمّة الله ورسوله، فلا تجعل لهم ذمّة الله وذمّة رسوله، ولكن اجعل لهم ذمّتك وذمّة أبيك وذمّة أصحابك، فإنّكم إن تخفروا ذممكم وذمم آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمّة الله وذمّة رسوله).

مع ابن رواحة

ثم خرج رسول الله (ص) مشيّعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودّعهم، فبكى ابن رواحة عند توديعه رسول الله (ص) وقال: يا رسول الله مرني بشيء أحفظه عنك.

قال (ص): إنك قادم غداً بلداً السجود به قليل، فأكثر السجود لله تعالى.

فقال عبد الله: زدني يا رسول الله.

قال: اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب.

فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع وقال: يا رسول الله انّ الله وتر ويحبّ الوتر.

فقال (ص): يا ابن رواحة ما عجزت فلا تعجز ـ إن أسأت عشراً ـ أن تحسن واحدة.

فقال ابن رواحة: لا أسألك إذن عن شيء بعدها، ثم ودّعه وانصرف، ومضى المسلمون، وذلك في جمادي الآخرة من السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة.

على مشارف مؤتة

فلما نزل المسلمون معان من أرض الشام بلغهم انّ هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضمّ إليهم من لخم وجذام وبلى وقضاعة مائة ألف أيضاً، فلما بلغهم ذلك أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله (ص) نخبره بعدد عدوّنا، فإمّا أن يمدّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له.

فشجّعهم عبدالله بن رواحة، وقال: والله يا قوم ان الذي تكرهونه للذي خرجتم له تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الّذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنّما هي إحدى الحسنيين: إما ظفر، وإما شهادة.

فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيهم الجموع بقرية يقال لها (مشارف)، فدنا العدوّ، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فالتقى الناس، فتعبّأ المسلمون بعد أن دعوهم إلى الإسلام فأبوا ثم اقتتلوا والراية في يد جعفر بن أبي طالب، فقاتل بها وهو يرتجز ويقول:

يا حبّذا الجنّة واقترابها طيّبة وبارداً شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

عليَّ إذ لاقيتها ضرابها

مصرع الأُمراء

فقاتل جعفر والراية بيده قتالاً شديداً، حتى إذا أرهقه القتال، اقتحم عن فرس له شقراء فعرقبها ـ حتى لا يستفاد منها أعداء الله ـ ثم قاتل، وكان أول من عرقب فرسه في الإسلام عند القتال.

فقطعت يمينه، فأخذ الراية بيساره، فقطعت يساره، فاحتضن الراية حتى قتل وله ثلاث وثلاثون سنة، وقيل: واحد وأربعون عاماً، وقد أصابته خمسون جراحة، خمس وعشرون منها في وجهه.

ثم أخذ الراية زيد، ثم عبدالله بن رواحة، فتقدّما بها حتى قتلا.

ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان فقال:

يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم.

فقالوا: أنت.

قال: ما أنا بفاعل.

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، الذي كان جديد عهد بالإسلام.

فلما أخذ الراية ناوش القوم وراوغهم حتى انحاز بالمسلمين، وفرّ بهم من الروم، وأنفذ رجلاً من المسلمين يقال له: عبد الرحمن بن سمرة إلى النبي (ص) ليخبره بالخبر.

النبي (ص) يبكي جعفراً

وفي رواية عن أبي عبدالله (ع) قال: بينا رسول الله (ص) في المسجد، إذ خفض له كل رفيع، ورفع له كل خفيض، حتى نظر إلى جعفر يقاتل الكفّار، حتى قتل.

فقال رسول الله (ص): قتل جعفر، وكانت كنيته: أبو المساكين، وكان ثالث الإخوة من ولد أبي طالب، ورابعهم علي (ع)، وأُمّهم جميعاً فاطمة بنت أسد، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي، وفضلها كثير.

وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله (ص) انه قال: خير الناس حمزة وجعفر وعلي (عليهم السلام).

فلما قتل جعفر بن أبي طالب (ع) دخل رسول الله (ص) على أسماء بنت عميس امرأة جعفر، فقال: أين بنيّ؟

فدعت بهم وهم ثلاثة: عبد الله وعون ومحمد، فمسح رسول الله (ص) رؤوسهم.

فقالت أسماء: إنك تمسح رؤوسهم كأنهم أيتام؟

فتعجّب رسول الله (ص) من عقلها، وقال، وقد دمعت عيناه: يا أسماء ألم تعلمي انّ جعفراً (رضوان الله عليه) قد استشهد في هذا اليوم، وقد قطعت يداه قبل استشهاده؟

فبكت.

فقال لها رسول الله (ص): لا تبكي فإنّ جبرئيل أخبرني ان الله قد أبدله من يديه جناحين فهو الآن يطير بهما في الجنّة مع الملائكة كيف يشاء.

فقالت أسماء: يا رسول الله لو جمعت الناس وأخبرتهم بفضل جعفر لا ينسى فضله.

فعجب رسول الله (ص) من عقلها. فقام ورقى المنبر وخطب في المسلمين وقال: إن المرء كثير بأخيه وابن عمه، ألا أنّ جعفرَ قد استشهد، وجعل له جناحان يطير بهما في الجنّة.

ثم إن رسول الله (ص) أمر فاطمة (ع) أن تتّخذ طعاماً لأسماء بنت عميس، وتأتيها وتسلّيها ثلاثة أيام. فجرت بذلك السنّة أن يصنع لأهل المصيبة ثلاثة أيام طعاماً.

كما انه (ص) قال لفاطمة (ع): يا فاطمة اذهبي فابكِ على ابن عمّك، فإن لم تدعي بثكل فما قلت فقد صدقت.

فاجتمعت النسوة يساعدن أسماء بالبكاء على جعفر، وفاطمة (ع) تقول: وا عمّاه.

فقال (ص): على مثل جعفر فلتبك الباكية.

وكان (ص) بعد ذلك إذا دخل بيته كثر بكاؤه على جعفر جداً حتى تقطر لحيته وهو يقول: اللهمّ إنّ جعفراً قد قدم إليك إلى أحسن الثواب فاخلفه في ذرّيته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذرّيته.

وفي حديث: إن الله رفع جسد جعفر إلى السماء، والمكان الذي فيه مزاره الآن انما هو مكان سقوطه ومحل استشهاده.

في رثاء الشهداء

ثم انه لما قدم عبد الرحمان بن سمرة على رسول الله (ص) بخبر أهل موتة، قال له رسول الله (ص): إن شئت فأخبرني، وإن شئت أخبرتك.

قال: فأخبرني يا رسول الله.

فأخبره رسول الله (ص) بكل ما جرى والمسلمون حوله يبكون.

فقال لهم رسول الله (ص) وما يبكيكم؟

قالوا: وما لنا لا نبكي وقد ذهب خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منّا.

فلمّا سمع عبد الرحمان ذلك، قال: والذي بعثك بالحقّ ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً لم تذكره.

فقال رسول الله (ص): إنّ الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم.

ثم استأذن حسّان بن ثابت أن يرثي جعفراً وسائر الشهداء، فأنشأ يقول:

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

وزيد وعبد الله حين تتابعوا جميعاً وأسباب المنيّة تخطر

وقال كعب بن مالك في قصيدة له يرثي جعفراً والمستشهدين معه:

هدت العيون ودمع عينك يمهل سحاً كما وكَفَ الضباب المخضل

إلى قوله:

إذ يهتدون بجعفر ولوائه قدّام أولهم فنعم الأوّل

مع أصحاب مؤتة

ولما دنى أصحاب مؤتة من المدينة تلقّاهم رسول الله (ص) والمسلمون، ولقيهم الصبيان

يشتدون ورسول الله (ص) مقبل يستقبل القوم على دابة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر، فأخذه فحمله بين يديه.

وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرار، فررتم في سبيل الله، فيقول رسول الله (ص): ليسوا بالفُرار، ولكنهم الكُرار إن شاء الله.

وهكذا كان، فإن هذه الوقعة أصبحت مقدمة لفتح بلاد الروم ودخول الإسلام إليها.

وقيل: ما لقي جيش بعثوا مبعثاً ما لقي أصحاب مؤتة من أهل المدينة، لقوهم بالشرّ، حتى إن الرجل لينصرف إلى بيته وأهله فيدقّ عليهم، فلم يفتحوا له، يقولون: ألا تقدمت مع أصحابك فقتلت؟

سرية ذات السلاسل

وسمّيت بذات السلاسل لشدّ أسرى المشركين في هذه الوقعة بالحبال مكتّفين، كأنّهم في السلاسل. وقيل: لأنه كان في محل الوقعة ـ التي كانت تبعد عن المدينة بخمس مراحل ـ ماء يقال له السلسل.

وسببها: إنّ جبرئيل نزل على رسول الله (ص) وأخبره بأنّ قوماً قد اجتمعوا في وادي اليابس وهم اثنا عشر ألف فارس، يريدون أن يُبيّتونه ومن معه بالمدينة. وقيل: إن أعرابياً أخبر رسول الله (ص) بذلك.

فعقد (ص) الراية لبعضهم حتى إذا صاروا بقرب المشركين اتصل خبرهم بهم فتحرزوا ولم يصل المسلمون إليهم فعادوا كل يجبن أصحابه وهم يجبنونه.

فدعا رسول الله (ص) عليّاً (ع) فعقد له لواء أبيض، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن مرّ به من بلى وعذرة وبلقين. وقال (ص): أرسلته كرّاراً غير فرّار، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: (اللهمّ إن كنت تعلم انيّ رسولك فاحفظني فيه).

فخرج علي (ع) وخرج رسول الله (ص) يشيّعه إلى مسجد الأحزاب ويدعو له.

وسار علي (ع) بالسرية على غير الجادّة بين الأودية والجبال، يكمن النهار ويسير الليل حتى يخفي أمره عن عيون المشركين، الذين كانوا على الجبال لمراقبة سرايا المسلمين.

فلما قرب من الوادي أمر أصحابه أن يعكموا الخيل حتى لا يسمع صوت صهيلها، ثم

أمرهم بالوقوف على فم الوادي ينتظر بهم الفجر.

فلم يزالوا كذلك حتى أحسّ علي (ع) بالفجر، فصلّى بهم، ثم كبس القوم وهم غافلون، وذلك بعد أن أمر أصحابه بأن ينزعوا عكمة دوابّهم، فشمت الخيل ريح الأُناث فصهلت، فسمع القوم صهيل خيلهم، فسقط في أيديهم، وأمكنه الله تعالى منهم، فلما وقف عليهم قال لهم: يا هؤلاء أنا رسول رسول الله(ص) إليكم أن تقولوا: لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، وإلاّ ضربتكم بالسيف... أنا علي بن أبي طالب.

فاضطرب القوم لما عرفوه، لكنهم اجترؤا على محاربته، فحاربهم فقتل منهم جماعة، وانهزم آخرون، وأسر الباقين وحاز الغنائم، وتوجّه بهم إلى المدينة.

القرآن وذات السلاسل

ولما أغار علي (ع) على القوم بعد صلاة الصبح وانتصر عليهم أنزل الله تعالى في ذلك سورة العاديات، فصلّى رسول الله (ص) صلاة الصبح بالناس وقرأ في الركعة الأُولى: (والعاديات).

فلمّا فرغ من صلاته قال أصحابه: يا رسول الله هذه السورة لم نعرفها.

قال (ص): هذه السورة أنزلها الله عليَّ في هذا الوقت يخبرني فيها بإغارة علي (ع) على أعداء الله وظفره بهم، وقد بشرني بذلك جبرئيل في هذه الليلة.

ثم استقبل (ص) علياً (ع) والمسلمين على ثلاثة أميال من المدينة ومعه أصحابه، فلما قدم علي (ع) أقبل عليه رسول الله (ص) فالتزمه وقبّل مابين عينيه وبكى شوقاً إليه وأخذ يمسح الغبار عن وجهه بردائه وقال: الحمد لله يا علي الذي شدّ بك ازري وقوى بك ظهري، يا علي انني سألتُ الله فيك كما سأل أخي موسى بن عمران (ع) أن يشرك هارون في أمره، يا علي من أحبّك فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، يا علي من أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله([11]).

ثم قال له رسول الله (ص): (يا علي لولا انني أشفق أن تقول فيك طوائف من أُمَّتي ما قالت النصارى في المسيح عيسى بن مريم (ع) لقلت فيك اليوم مقالاً، لا تمرّ بملأ من الناس

[11] – راجع بحار الأنوار ج٢١ ص٩٠ ب٢٥ ح٩.

إلا أخذوا التراب من تحت قدميك) ([12]).

سرية الغابة

ثم ان رسول الله (ص) بعث أبا حدرد ومعه رجلان إلى الغابة يتحسسون أمر القوم، وذلك لما بلغه (ص) أنّ رفاعة بن قيس الجشمي أقبل في عدد كثير حتى نزلوا الغابة يريد أن يجمع قيساً على محاربة رسول الله (ص) وكان ذا شرف.

فخرجوا حتى إذا جاءوا قريباً منهم، فكمنوا في ناحية العسكر، وخرج رفاعة وقد غشيهم الليل يطلب راعياً لهم قد أبطأ عليهم، حتى مرّ بأبي حدرد، فنفحه بسهم فوضعه في فؤاده فقتله، ثم شدّوا في ناحية العسكر وكبّروا، فهرب القوم بكل ما قدروا عليه وما خف من أموالهم ونسائهم وأبنائهم، واستاق أبو حدرد وصاحباه إبلاً عظيمة وغنماً كثيراً فجاءوا بها رسول الله (ص).

غزوة الفتح

خرج رسول الله (ص) يوم الجمعة حين صلّى العصر بالناس، بكتائب الإسلام وجنود الرحمن، وهم عشرة آلاف من المسلمين، ونحو من أربعمائة فارس، وذلك لنقض قريش العهد الذي وقع بينهم وبين رسول الله (ص) بالحديبيّة.

وكان خروجه في شهر رمضان من السنة الثامنة من الهجرة النبويّة المباركة، بعد أن استخلف على المدينة أبا لبابة، وقيل: أبا ذر الغفاري.

وكان سببها: ان بني بكر بن عبد مناة من كنانة، كانت بينهم وبين خزاعة حروب قبل الإسلام وقتل، فلما جاء الإسلام تشاغل الناس به، فلما كانت الهدنة عام الحديبية دخلت بنو بكر من كنانة في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله (ص) وعقده.

فلما مضت سنتان من القضية، وقد استتبّ الأمن في البلاد وساد الهدوء في المنطقة، وصلت قريش أنباء حرب مؤتة وانهزام المسلمين بعد أن قتل فيها أُمراؤها الثلاثة، مما أطمعهم في التجرؤ على إثارة البلبلة في البلاد، والإخلال بأمن المنطقة، ونقض العهد الذي وقعوه مع

[12] – بحار الأنوار: ج٢١ ص٧٩ ب٢٥، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٥ ص٤ ب٥٨ وج٩ ص١٦٨ ب١٥٤.

رسول الله (ص) بالحديبية.

فعمدوا إلى توزيع الأسلحة في حلفائهم بني بكر من كنانة، وحرّضوهم على أن يبيّتوا خزاعة حلفاء المسلمين، ويغيروا عليهم ليلاً ويصيبوا الثأر منهم، كما وعدوهم بأن يمدّوهم بالرجال أيضاً، ثم بدأوا بإشعال فتيل نار الفتنة، وذلك عبر المخطّط التالي: فقد أوعزوا إلى رجل من كنانة أن يقعد في صراط خزاعة، ويروي هجاء رسول الله (ص).

فلما فعل ذلك مرّ عليه رجل من خزاعة وقال له: يا هذا كفّ عن قولك.

فأجابه قائلاً: وما أنت وذاك؟

فردّ عليه مهدداً: لئن عدت لأكسرنّ فاك.

فأعادها الكناني، فرفع الخزاعي يده وضرب بها فاه الكناني، فاستنصر الكناني قومه، والخزاعي قومه، وبدأت المناوشات بين الجانبين.

قريش تنقض عهدها

ولما بدأت المناوشات بين الجانبين خرج نوفل بن معاوية في نفر من بني بكر فبيت خزاعة على ماء بأسفل مكة يقال له الوتير، وأصاب منهم رجالاً وأموالاً، ثم اقتتلوا قتالاً شديداً، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً، وكان من بينهم عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم.

فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل انا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك.

فقال نوفل: لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرفون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

فقاتلوهم حتى لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم، وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً، حتى قدموا على رسول الله (ص) يخبرونه بما قد وقع، ويستنصرونه.

وكان رسول الله (ص) إذ ذاك بين أصحابه في المسجد، فوقف عليه عمرو بن سالم الخزاعي وقال:

يا رب انّي ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكّدا

هم بيّتونا بالوتير هُجّداً وقتلونا ركّعاً وسجّداً

فقال رسول الله (ص): حسبك يا عمرو، ثم قام (ص) فدخل دار زوجته ميمونة وقال: اسكبوا لي ماءاً، فجعل يغتسل ويقول: (لا نصرت إن لم أنصر بني كعب) وهم رهط عمرو بن سالم الخزاعي.

وقيل: إنّ ميمونة سمعت رسول الله (ص) يقول في متوضّئه ليلاً: لبيك لبيك (ثلاثاً)، نصرت نصرت (ثلاثاً).

فلما خرج قالت: يا رسول الله، سمعتك تقول في متوضئك: لبيك لبيك ثلاثاً، نصرتَ نصرت ثلاثاً، كأنك تكلّم إنساناً، فهل كان معك أحد؟

فقال (ص): هذا راجز بني كعب يستصرخني ويزعم أنّ قريشاً أعانت عليهم بني بكر.

ثم خرج بديل بن الورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله (ص) فأخبروه بما أُصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكّة.

ندامة قريش

ثم ندمت قريش على ما صنعت، وعلموا أنّ ذلك نقض لما كان بينهم وبين رسول الله (ص) وخافوا ردّه الحاسم عليهم، فبعثوا إليه أبا سفيان ليشدّد العقد.

وقد كان رسول الله (ص) قال للناس: كأنّكم بأبي سفيان قد جاء ليشدّد العقد ويزيد في المدّة.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة، فدخل على ابنته أُمّ حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله (ص) طوته عنه.

فقال: يا بنية أرغبتِ بي عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عنّي؟

قالت: بل هو فراش رسول الله (ص)، ما كنت لتجلس عليه وأنت رجس مشرك بالله تعالى.

فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شرّ.

ثم خرج حتى أتى رسول الله (ص) فقال: يا محمد احقن دم قومك، وأجر بين قريش، وزدنا في المدة.

فقال (ص): أغدرتم يا أبا سفيان؟

قال: لا.

قال (ص): فنحن على ما كنا عليه.

ثم لقي أبو سفيان أحد الصحابة فكلّمه أن يكلّم رسول الله (ص). فقال: ما أنا بفاعل.

ثم لقي صحابياً آخر، فقال له مثل ذلك.

ثم أتى إلى منزل علي بن أبي طالب (ع) وفاطمة (ع) بنت رسول الله (ص) وعندهما الحسن والحسين (عليهما السلام) يدبان بين يديهما.

فقال: يا بنت سيّد العرب تجيرين بين قريش، وتزيدين في المدة، فتكونين أكرم سيّدة في الناس؟

فقالت (ع): جواري جوار رسول الله (ص).

فقال: أتأمرين ابنَيْكِ أن يجيرا بين الناس فيكونا سيدي العرب إلى آخر الدهر؟

قالت (ع): والله ما بلغ ابناي أن يجيرا بين الناس، وما يجير على رسول الله (ص) أحد.

فقال عندها، وقد التفت إلى علي (ع): يا أبا الحسن أنت أمسّ القوم بي رحماً، واني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى رسول الله (ص).

فقال (ع): ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله (ص) على أمر لا نستطيع أن نكلّمه فيه.

فقال: يا أبا الحسن، اني أرى الأُمور قد اشتدّت عليّ، فانصحني واجعل لي منها وجهاً.

فقال له علي (ع): أنت شيخ قريش فاذهب وقم على باب المسجد فاجر بين قريش، ثم الحق بأرضك.

فقال: أو ترى ذلك مغنياً عنّي شيئاً؟

قال (ع): لا والله ما أظن ذلك، ولكن ما أجد لك غيره.

ولعله قال له علي (ع) ذلك حتى يفتح باب الأمل عليه، فيلزمه عبرها بالصلح ويسد عليه طريق التفكير في تجييش الجيوش لمحاربة المسلمين من جديد.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين قريش، ثم ركب بعيره فانطلق.

فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟

قال: أتيت محمداً فكلّمته، فوالله ما ردّ عليَّ شيئاً، ثم جئت أحد الصحابة فلم أجد

عنده خيراً، ثم أتيت صحابياً آخر فكان كذلك، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني شيئاً أم لا؟

قالوا: وبمَ أمرك؟

قال: أمرني أن أُجير بين الناس، ففعلت.

قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟

قال: لا.

قالوا: ويلك ما زاد الرجل على أن لعب بك، أو أنت تجير بين قريش؟ مايغني عنا ما قلت.

قال: لا والله ما وجدت غير دلك.

النبي (ص) يتجهّز للفتح

ثم أمر رسول الله (ص) الناس بالجهاز، وأعلمهم انه سائر إلى مكة، وقال: اللهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، فتجهَّز الناس.

فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم بمسير رسول الله(ص) إليهم، وسلّم الكتاب إلى امرأة سوداء اسمها سارة مع عشرة دنانير لتوصله إلى أهل مكة.

وسارة هذه هي مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام، وكانت قد أتت رسول الله (ص) من مكة إلى المدينة.

فقال لها رسول الله (ص): أمسلمة جئت؟

قالت: لا.

قال (ص): أمهاجرة جئت؟

قالت: لا.

قال (ص): فما جاء بك؟

قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي، وقد ذهبت موالي واحتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني.

قال (ص): فأين أنت من شباب المشركين؟ وكانت مغنيّة نائحة.

قالت: ما طلب منّي بعد وقعة بدر.

فحثّ عليها رسول الله (ص) بني عبدالمطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة.

فلما كان رسول الله (ص) يتجهّز لفتح مكة، أتاها حاطب وسلّمها الكتاب وأمرها أن تأخذ على غير الطريق. فلما خرجت سارة بالكتاب نزل جبرئيل على رسول الله (ص) وأخبره بذلك.

فاستدعى (ص) علياً (ع) وقال له: إنّ بعض أصحابي قد كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، وقد كنت سألت الله أن يعمي أخبارنا عليهم، والكتاب مع امرأة سوداء قد أخذت على غير الطريق، فخذ سيفك وألحقها وانتزع الكتاب منها وخلّها، وصر به إليَّ.

ثم استدعى (ص) الزبير وقال له: امض مع علي بن أبي طالب في هذا الوجه.

فمضيا، فلما أدركاها، قال لها الزبير: أين الكتاب الذي معك؟

فأنكرت وحلفت وبكت.

فقال الزبير وقد التفت إلى عليّ (ع): ما أرى معها يا أبا الحسن كتاباً، فارجع بنا إلى رسول الله (ص) نخبره ببراءتها.

فقال علي (ع): يخبرني رسول الله (ص) انّ معها كتاباً ويأمرني بأخذه منها، وتقول أنت: انه لا كتاب معها؟!

ثم اخترط (ع) السيف وتقدّم إليها وقال: أما والله لئن لم تخرجي الكتاب ثم لأضربنّ عنقك.

فقالت لما رأت الجدّ: إذا كان لا بدّ من ذلك فأعرض يابن أبي طالب بوجهك عنّي، فأعرض بوجهه، فكشفت قناعها وأخرجت الكتاب من عقيصتها، فأخذه علي (ع) وصار به إلى رسول الله (ص).

مع حاطب بن أبي بلتعة

ولما كان أمر حاطب هذا، يتطلّب تهييج الرأي العام ضده، حتى يرتدع كل من يفكّر في ارتكاب أمثالها، ولعله لذلك نرى انّ رسول الله (ص) أمر بالصلاة جامعة، ثم صعد المنبر وأخذ الكتاب بيده وقال: أيها الناس اني قد كنتُ سألتُ الله عزّوجلّ أن يخفي أخبارنا عن قريش، وانّ رجلاً منكم كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب، وإلاّ فضحه الوحي.

فلم يقم أحد، فأعادها ثانية، فقام حاطب بن أبي بلتعة وقال: أنا يا رسول الله صاحب الكتاب، وما أحدثت نفاقا بعد اسلامي ولا شكاً بعد يقيني.

فقال له رسول الله (ص): فما الذي حملك على أن كتبت هذا الكتاب؟

قال وهو يلتمس لنفسه عذراً: يا رسول الله انّ لي أهلاً بمكة، وليس لي بها عشيرة يدفعون عن أهلي، فأردتُ أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، إذ ليس أحد من المهاجرين إلاّ وله هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله.

فأعذره رسول الله (ص) وعفا عنه وقال لأصحابه يوصيهم به: لا تقولوا له إلاّ خيراً.

فقام أحد الصحابة وقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين.

فقال له رسول الله (ص): اتركه، ونهاه عن التعرّض له.

فأنزل الله تعالى في حاطب: (يا أيّها الَّذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة) إلى قوله سبحانه: (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) ([١٣]).

الزحف نحو مكة

وبعث رسول الله (ص) إلى من حوله من العرب فجلبهم: أسلم وغفّار ومزينة وجهينة وأشجع وسُليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لاقاه بالطريق.

وخرج (ص) في عشرة آلاف من المسلمين، ونحو من أربعمائة فارس، ولم يتخلّف من المهاجرين والأنصار عنه أحد، وحيث انه كان في شهر رمضان صام وصام الناس، حتى إذا بلغ كراع الغميم، نزل (ص) فأمر بالإفطار لنزول الوحي عليه بذلك، فأفطر وأفطر الناس، وصام قوم فسمّوا (العصاة) لأنهم صاموا، ظنّاً منهم بأن الصوم حتى في مثل هذه الحال أفضل، فاجتهدوا مقابل نصّ رسول الله(ص) وأمره لهم بالإفطار، فأنذرهم القرآن وحذّرهم مغبّة التقدّم على رسول الله (ص)، وأمرهم بالتقوى والتحرز عن الإجتهاد مقابل نصوصه الصريحة بقوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ

[١٣] – الممتحنة: ١ ـ ٣.

عَلِيمٌ) ([14]).

من ذكريات الفتح

وقد كان العباس عم رسول الله (ص) خرج بأهله وعياله مهاجراً مسلماً فلقي رسول الله (ص) بالجحفة، فانضمّ إليه.

وكان ممن لقي رسول الله (ص) بالطريق أيضاً: أبوسفيان بن الحارث بن المطلب ابن عمه، وعبدالله بن أبي أُمية ابن عمته، أخو أُم سلمة أُم المؤمنين، لقيا رسول الله (ص) بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فلم يأذن لهما.

فكلّمته أُم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك وصهرك.

قال (ص): لا حاجة لي بهما، أما ابن عمّي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال، وكان من قوله له: (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً) ([15]).

فلما خرج الخبر إليهما بذلك قال أبو سفيان بن الحارث ومعه ابن له: والله ليأذننّ لي أو لآخذنّ بيد ابني هذا ثم لنذهبنّ في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما بلغ رسول الله (ص) ذلك رقّ لهما وأذن لهما.

وقيل: انّ علياً (ع) قال لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله (ص) من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: (تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ) ([16]) ففعل ذلك أبو سفيان بن الحارث.

فقال رسول الله (ص) مجيباً له وهو ل لا يرضى إلا بأن يتفوّق في حسن القول عليه: (قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ([17]).

فأنشده أبو سفيان بن الحارث أبياتاً، وقد أسلم وحسن إسلامه، وكذلك فعل عبدالله بن

---

[14] – الحجرات: ١.

[15] – الإسراء: ٩٠.

[16] – يوسف: ٩١.

[17] – يوسف: ٩٢.

أبي أُمية.

في مرّ الظهران

ثم مضى رسول الله (ص) حتى نزل مرّ الظهران عشاءً، أي: نزل على مشارف مكة . وقد عميت أخباره عن قريش . فأمر (ص) أصحابه فأوقدوا أكثر من عشرة آلاف نار، ولم يبلغ قريشاً مسيره وهم مغتمّون لما يخافون من غزوه إياهم.

فقال العباس: يا سوء صباح قريش، والله لئن دخل رسول الله (ص) مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال: فركبتُ بغلة رسول الله (ص) فخرجت حتى أتيت الأراك، فقلت لعلّي أجد بعض الحطّابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله (ص)، فيأتوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة.

قال: فوالله إني لأسير عليها إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، وأبوسفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط، ولا عسكراً.

قال: ويقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب.

فيقول أبوسفيان: خزاعة أقل وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة.

فعرف صوتي فقال: يا أباالفضل؟

قلت: نعم.

قال: ما وراك وما هذه النيران؟

قلت: هذا رسول الله (ص) وراك، قد جاء بما لاقبل لكم به، بعشرة آلاف من المسلمين.

قال أبو سفيان: فما الحيلة؟

قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله (ص) فأستأمنه لك، فردفني، ورجع صاحباه.

انّ التقاء الشخصيات المرتبطة بالسماء كرسول الله (ص) له الأثر البالغ في احتواء الطرف واستهوائه، فإن كان عدوّاً ضعفت روحيته واستسلم للحق، ولو عن عدم قناعة، وإن كان صديقاً أو محايداً قويت معنويته، واستلهم الحق عن قناعة، ولذلك تأبى قوى الشرّ وبكل إصرار أن يلتقي الناس ويتعرَّفوا على المرتبطين بالسماء، بينما العباس ذوالمكانة المعروفة، كان يريد الخير لأهل مكة، فقام بهذا الدور، ونال تأييد رسول الله (ص)، ولذلك أردف أباسفيان خلفه.

قال: فجئت به، فكلما مررنا بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله (ص) وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله (ص) على بغلة رسول الله (ص).

حتى مررت بنار أحد الصحابة فقال: من هذا؟ فلما رأى أباسفيان على عجز الدابة قال: هذا أبوسفيان عدوّ الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله (ص)، فركضت البغلة فسبقته بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء، واقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله (ص) ثم جلست وأخذت برأسه وقلت: والله لايناجيه الليلة أحد دوني.

فبينا أنا كذلك إذ دخل الصحابي وقال: يا رسول الله هذا أبوسفيان عدوّ الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه.

فقلت: يا رسول الله اني قد أجرته.

فلما أكثر الصحابي في شأنه قلت له: مهلاً، فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني فلان ما قلت هذا.

قال الصحابي: مهلاً يا عباس، فوالله إسلامك كان أحبّ إليّ من إسلام أبي لو أسلم، وما ذلك إلا اني قد عرفت انّ إسلامك كان أحبّ إلى رسول الله(ص).

عندها التفت رسول الله (ص) الى عمّه العباس وقال ـ يقطع حوارهما ـ: اذهب به ياعباس إلى رحلك فقد آمنّاه، فإذا أصبحت فأتني به.

قال: فذهبت به إلى رحلي.

قال العباس: فلما أصبحت غدوت بأبي سفيان على رسول الله (ص)، فلما رآه رسول الله (ص) قال: ويحك يا أباسفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلاّ الله؟

قال: بأبي أنت وأُمّي ما أحلمك وأكرمك، وأرحمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لأغنى عنّي شيئاً يوم بدر ويوم أُحد.

قال (ص): ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟

قال: بأبي أنت وأُمي ما أحلمك وأكرمك وأرحمك وأوصلك، أمّا هذه ففي النفس منها شيء.

فقال له العبّاس: ويحك أسلم واشهد بشهادة الحق، إشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك.

فتشهد وقد تلجلج بها لسانه شهادة اضطرار، فأسلم اضطراراً.

فقال العباس: يا رسول الله، انّ أباسفيان رجل يحبّ الفخر، فاجعل له شيئاً.

قال (ص): نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

قال أبو سفيان: داري؟!

قال (ص): دارك، ثم قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

ومع ذلك كله لم يأمن رسول الله (ص) أبا سفيان من الغدر إن تركه يذهب إلى مكة، ولذلك التفت إلى عمّه العباس وقال (ص): خذه يا عم إلى خيمتك، وكانت قريبة.

فلما جلس أبو سفيان في الخيمة ندم على مجيئه مع العباس وقال في نفسه: من فعل بنفسه مثل ما فعلت أنا؟ جئت فأعطيت بيدي، ولو كنت انصرفت إلى مكة فجمعت الأحابيش وغيرهم فلعلّي كنت أهزمه!

فناداه رسول الله (ص) من خيمته قائلاً: يا أبا سفيان إذن: كان الله يخزيك.

فسقط أبو سفيان في يده ولم يقل شيئاً.

فلما أصبح وقت الصلاة سمع بلالاً يؤذّن فقال: ما هذا المنادي يا أبا الفضل؟

قال: هذا مؤذّن رسول الله (ص) للصلاة.

ثم خرج به إلى رسول الله (ص) فرآه يتوضّأ وأيدي المسلمين تحت شعره، فليس قطرة تصيب رجلاً منهم إلا مسح بها وجهه، فقال أبو سفيان: بالله ما رأيت كاليوم قط كسرى

ولا قيصر.

احتياطات

ثم أمر رسول الله (ص) العباس أن يحبسه بمضيق من الوادي عند خطم الجبل تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها.

قال العباس: وكان كلما مرت قبيلة قال لي أبو سفيان: يا عباس من هذه؟

فأقول: سُليم.

فيقول: ما لي ولسُليم.

ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟

فأقول: مزينة.

فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفدت القبائل، ما تمر قبيلة إلا سألني عنها، فأخبرته بهم، وكلما أخبرته عنها قال: ما لي ولبني فلان، حتى مرّ به رسول الله(ص) في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد.

فقال: يا عباس، من هؤلاء؟!

فقلت: هذا رسول الله (ص) في المهاجرين والأنصار.

قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أباالفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان انها النبوّة.

قال: فنعم إذن.

قلت: النجاء إلى قومك.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مرّ بأبي سفيان قال له:

(اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة)

يا معشر الأوس والخزرج ثاركم يوم الجبل.

فسمعها أبو سفيان، فأضمرها في نفسه حتى إذا مرّ رسول الله (ص) به قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ انه قال كذا وكذا.

فقال (ص): ليس مما قال سعد شيء، ثم أرسل رسول الله (ص) إلى سعد فنزع الراية منه

ودفعها إلى علي (ع) وقال: أُدخلها ادخالاً رفيقاً.

فأخذ علي (ع) الراية بيده، ثم جعل ينادي ويقول:

اليوم يوم المرحمة *** اليوم تحفظ حرمه

أبو سفيان: الداعية الجديد

ثم انّ رسول الله (ص) التفت إلى أبي سفيان وقال له: يا أباسفيان تقدّم إلى مكة، فأعلمهم بالأمان.

فمضى أبوسفيان حتى جاء قريشاً فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

قالوا: قاتلك الله وما تغني عنّا دارك؟

قال: ومن أغلق بابه فهو آمن.

فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وسار رسول الله (ص) فدخل مكة من أعلاها.

أُسلوب الإسلام عند الفتح

فلما ظهر رسول الله (ص) بكتيبته على ثنية أذاخر دخل من ناحيتها، وضربت له خيمة من أدم بالحجون عند قبر عمّه أبي طالب (ع) وأبى أن يدخل بيته أو بيوتهم بمكة الذي صادره المشركون.

وكان ذلك بعد أن أمر كتائب أصحابه وأُمراء عسكره أن يحيطوا بمكة كاملة، ثم يدخلوها من جميع المداخل والطرق النافذة إليها من أعلاها وأسفلها، ومن كل جوانبها حتى يسدّوا على أهلها طريق المجابهة، وأمرهم أن يكفّوا أيديهم عن القتال، ولا يقاتلوا إلا مَن قاتلهم.

كما وعقد لواءاً لأبي رويحة الخثعمي وأمره أن ينادي بين أهل مكة: ألا ومن دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن، إضافة إلى المآمن الثلاثة المذكورة، ولذلك اطمئنّ الناس وألقوا أسلحتهم ودخلوا بيوتهم آمنين لم تُسب لهم ذرّية ولم يُسفك منهم دم.

وقيل: انه بعث رسول الله (ص) الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كدل على مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه.

وقيل: انه بعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسُليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يفرز رايته عند أدنى البيوت.

وبعث ابن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله (ص) وأمرهم أن يكفّوا أيديهم عن القتال، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

على مشارف مكة

ولما انتهى رسول الله (ص) في كتيبته الخضراء فاتحاً منتصراً إلى ذي طوى وهو موضع مرتفع يرى منه بيوت مكة ومنازلها، ولمح بطرفه منازل مكة وبيوتها، ونظر إلى مسقط رأسه وموطنه الذي خرج منه عنوة، واليوم قد دخلها وفتحها، وتلمّس الفتح الذي منّ الله تعالى به عليه، والعودة التي بشّره جبرئيل (ع) بها، اغرورقت عيناه بدموع الشوق والرحمة، وسجد لله تعالى تواضعاً وشكراً، وحمده على نعمه وأياديه.

ثم نزل في خيمته التي ضربت له بالحجون عند قبر عمّه أبي طالب (ع) ليستريح فيها قليلاً، ويتهيّأ منها لزيارة المسجد الحرام والطواف حول بيت الله العتيق.

تطهير البيت من الأصنام

ثم انّ رسول الله (ص) بعد أن استراح قليلاً في خيمته اغتسل وركب راحلته القصواء واتّجه نحو المسجد الحرام، ولم يكن محرماً لحجّ ولا عمرة، وعليه السلاح، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، وعليهم السلاح، وهم يردّدون مع رسول الله (ص) قوله تعالى:

(جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً) ([18]).

وقد ارتجَّت مكة من قولهم، حتى دخل الرسول (ص) المسجد الحرام، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت وهو على راحلته، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستّون صنماً، فجعل يطعنها (ص) بالقوس ويقول: (جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً) ([19]) (قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ) ([20]) والأصنام تتساقط

---

[18] – الإسراء: ٨١.

[19] – الإسراء: ٨١.

[20] – سبأ: ٤٩.

على وجوهها.

ثم رفع (ص) علياً (ع) على منكبيه حتى أسقط ما تبقّى من الأصنام التي كانت على الكعبة، وكان رسول الله (ص) قد خصّ علياً (ع) بهذه المنقبة دون غيره، وإليه أشار ابن العرندس حيث يقول في قصيدته:

وصعود غارب أحمد فضل له دون القرابة والصحابة أفضلا

وأمر رسول الله (ص) ابن أسد الخزاعي فحدد أنصاب الحرم، وبث رسول الله (ص) سراياه إلى الأوثان التي كانت فكسرت كلها. ومما كسرها رسول الله (ص) اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأُخرى، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلاّ كسره.

من ذكريات الكعبة

فلما فرغ من طوافه أتى الصفا، فعلا عليه، وقيل: جلس في ناحية من المسجد حتى نظر إلى البيت، فجعل يحمد الله ويدعو ما شاء أن يدعو، ثم دعا بسادن الكعبة وهو يومئذ عثمان بن طلحة، وكان قد أغلق باب البيت لما بلغه انّ النبي (ص) قد دخل مكة، وامتنع من تسليم المفتاح. فقام إليه علي (ع) وأخذه منه وسلّمه إلى رسول الله (ص).

فأمر (ص) بباب الكعبة ففتحت، فدخلها، فرأى فيها صورتين، فدعا بثوب فبلّه في ماء ثم محاهما، فانطمستا، ثم صلّى بين العمودين على الرخامة الحمراء ركعتين، ثم أقبل على أركان البيت وكبّر إلى كل ركن منه.

ثم قصد (ص) الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينظرون ماذا يفعل بهم، وهم يظنون ـ حسب أعراف الجاهلية الخشناء ـ ان السيف لا يرفع عنهم، وانهم سوف يبادون عن آخرهم، لكن الواقع لم يكن كذلك، فإن الإسلام هو دين المكارم والمحاسن، والنبي (ص) هو رسول الرحمة والإنسانية، ولذلك رأوه (ص) أقبل حتى أخذ بعضادتي الباب وخطب فيهم الخطبة التالية:

لائحة حقوق الإنسان

ابتدأ رسول الله (ص) خطابه بحمد الله تعالى والثناء عليه وقال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثم قال: ألا كل مأثرة، أو مال، أو دم يدّعى، أو مظلمة، أو احنة كانت في الجاهلية، فهو تحت قدميّ هاتين، إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج، فإنهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إن مكة محرمة بتحريم الله، لم تحلّ لأحد كان قبلي، ولم تحلّ لي إلا ساعة من نهار، وهي محرّمة إلى أن تقوم الساعة، لا يختلى خلاها، ولا يقطع شجرها، ولا ينفر صيدها، ولاتحلّ لقطتها إلا لمنشد.

ثم قال: أيّها الناس ليبلّغ الشاهد الغائب إن الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية والتفاخر بآبائها وعشائرها، ألا انكم من آدم، وآدم من طين، وعلى رواية: وآدم من تراب.

ثم تلا قوله تعالى: (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ) ([21]) الآية.

ثم قال: ألا إنّ خير عباد الله عبد اتّقى الله، ان العربيّة ليست بأب والد، ولكنها لسان ناطق، فمن قصر به عمله لم يبلغ به حسبه.

ثم التفت إلى القوم وقال وهو يخاطبهم: ألا لبئس جيران النبي كنتم، لقد كذبتم، وطردتم، وأخرجتم، وآذيتم، ثم ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلوني، والآن يا معشر قريش ماذا تقولون؟ وماذا تظنون اني فاعل بكم؟

قالوا: نظن خيراً، ونقول خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت.

قال (ص): فإنّي أقول لكم كما قال يوسف (ع) لإخوته: (لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ([22]) اذهبوا فأنتم الطلقاء.

فخرج القوم كأنما انشروا من القبور، ودخلوا في الإسلام، وقد كان الله سبحانه أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً، فلذلك سمّي أهل مكة: (الطلقاء).

مع سدانة الكعبة

ثم جلس رسول الله (ص) في المسجد، فقام إليه علي (ع) ومفتاح الكعبة في يده،

---

[21] – الحجرات: ١٣.

[22] – يوسف: ٩٢.

ليُسلّمها إليه، فقام العباس وسأل رسول الله (ص) أن يعطيه المفتاح، فنزل: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إِلى أَهْلِها) ([٢٣]).

فأمر رسول الله (ص) علياً (ع) أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة.

فلمّا ردّه إليه قال عثمان بن طلحة، وكان لا يتوقّع أن يُردّ المفتاح إليه: يا علي أخذته مني بكره، وجئت به إليّ برفق؟

قال (ع): نعم، لقد أنزل الله عزّوجل فيك قرآناً يقول: (إنَّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها).

فلمّا سمع عثمان بن طلحة ذلك، أسلم، فأقرّه النبي (ص) في يده.

وروي: عن عثمان بن طلحة انه قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الإثنين والخميس، فأقبل النبي (ص) يوماً وهو يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، وذلك قبل الهجرة، فأغلقت له ونلت منه.

فحلم (ص) عنّي ثم قال: يا عثمان لعلّك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت.

فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت.

فقال (ص): بل عمرت وعزّت يومئذ، ودخل الكعبة، فوقعت كلمته منّي موقعاً ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال.

فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان ائتني بالمفتاح، فأبيت أن آتيه به، فأخذه منّي علي، ثم دفعه إليه، فلما أتم صلاته وزيارته داخل البيت ردّه عليَّ وقال: يا عثمان بن طلحة إنّ الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

قال: فلما وليت ناداني فقال: ألم يكن الذي قلتُ لك؟

قال: فذكرت قوله (ص) لي بمكة قبل الهجرة، فقلت: بلى أشهد أنّك رسول الله.

أول أذان على سطح الكعبة

فلما دخل وقت صلاة الظهر، أمر رسول الله (ص) بلالاً أن يصعد فيؤذّن على الكعبة،

---

[٢٣] – النساء: ٥٨.

وأبوسفيان بن حرب وخالد وعتاب ابنا أُسيد والحارث بن هشام وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة.

فقال خالد: لقد أكرم الله أُسيداً ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه.

وقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتّبعته.

وقال أبو سفيان: والله لا أقول شيئاً، ولو تكلمت بشيء لأخبرت عني هذه الحصباء والجدد، هذا وعتاب يسمع كلامهم.

فبعث إليهم النبي (ص) فقال لهم: قد علمت الذي قلتم، ثم ذكر لهم ذلك.

فقال أبو سفيان: أنت تعلم اني لم أقل شيئاً.

فقال (ص): اللهمّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

عندها قال الحارث وخالد: نشهد أنّك رسول الله، والله ما اطّلع على هذا أحد معنا فنقول أخبرك.

وقال عتاب لما جاء إليه: نستغفر الله ونتوب إليه، قد والله يا رسول الله قلنا ذلك، فأسلم وحسن إسلامه، فولاّه رسول الله (ص) مكة.

وكان فتح مكة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

في دار أُم هاني

ثم ان رسول الله (ص) كان قد عهد إلى المسلمين أن لا يقتلوا بمكة إلا من قاتلهم، سوى نفر كانوا يؤذون النبي (ص) ومن أسلم معه، ويحرّضون على حربهم ومقاتلتهم، ويصدّون الناس عن سبيل الله والحقّ، مثل هبار بن الأسود الذي تعرّض لزينب بنت رسول الله (ص) حين هجرتها فأرعبها مما سبّب إسقاط جنينها ومرضها حتّى ماتت منه.

ومثل: عكرمة بن أبي جهل الذي كان أحد مثيري الحروب ومؤجّجي نيران الفتن ضد المسلمين.

ومثل: قينتين كانتا تغنّيان بهجاء رسول الله (ص) وتحضّضان المشركين يوم أحد عليه.

فاستتر هؤلاء عن أعين المسلمين، فبلغ علياً (ع) أن نفرين منهم وكانا حموين لأُم هاني أُخت علي (ع) قد استجارا بأُم هاني فأجارتهما في بيتها، فقصد علي (ع) نحو دارها مقنعاً بالحديد، ونادى: أخرجوا من آويتم، فرعبا، وخافت أُم هاني عليهما، فخرجت إليه (ع)

وهي لا تعرفه، فقالت: يا عبد الله أنا أُم هاني بنت عم رسول الله (ص) وأُخت علي بن أبي طالب (ع) فانصرف عن داري.

فقال (ع): اخرجوهم.

فقالت: والله لأشكونّك إلى رسول الله (ص).

فنزع علي (ع) المغفر عن رأسه فعرفته، فجاءت إليه تشتدّ حتى التزمته وقالت: فديتك، حلفت لأشكونّك إلى رسول الله (ص).

فقال لها: اذهبي فبرّي قسمك، فإنه بأعلى الوادي.

فجاءت إليه تشتد، فلما سمع رسول الله (ص) كلامها قال لها: مرحباً بكِ يا أُم هاني، قد أجرنا من أجرتِ يا أُمّ هاني.

وأمّا هبار: ففرّ، ثم أسلم، وعفى (ص) عنه.

واستؤمن رسول الله (ص) لسارة وإحدى القينتين فأمنهما فأسلمتا.

وأما ابن أبي سرح فإنه أسلم فجاء به عثمان، فاستأمن له رسول الله (ص)، فأمنه، وكان قد أسلم قبل ذلك ثم هاجر ثم ارتدّ ورجع إلى مكة.

مع فضالة بن الملوح

وقيل: إن فضالة بن عمير بن الملوح همّ أن يقتل رسول الله (ص) وهو يطوف بالبيت، فلمّا دنا منه قال رسول الله (ص): أفضالة؟

قال: نعم.

قال (ص): ماذا تحدّث به نفسك؟

قال: لا شيء كنت أذكر الله.

فضحك النبي (ص) ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده إلى صدره فسكن قلبه.

وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحبّ إليّ منه.

قال فضالة: فرجعتُ إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت شعراً، فأجبتها شعراً:

قالت هلمّ إلى الحديث فقلت: لا يأبى الإله عليك والإسلام

لو قد رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيننا والشرك يغشي وجهه الاظلام

من مكارم رسول الله (ص)

ثم ان أكثر هؤلاء النفر الذين أهدر رسول الله (ص) دمهم استأمن لهم بعض معارفهم، فخرجوا من استتارهم، وجاءوا إلى رسول الله (ص) فأسلموا على يديه، فقبل إسلامهم وعفا عنهم.

وكان أحد هؤلاء: صفوان بن أُمية، وقد فرَّ يومئذ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله (ص)، فأمنه، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة.

فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فردّه وقال: يا صفوان، اذكر الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان رسول الله (ص) قد جئتك به.

فقال صفوان، وهو يستبعد ذلك حسب رأيه: أُغرب عني فلا تكلّمني.

فقال له عمير، وهو يريد أن يُطمئنه: أي صفوان أُعلمك انّ أفضل الناس وأبرّ الناس وخير الناس ابن عمك، عزّه عزّك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك.

فقال صفوان، وهو يبدي ما في قرارة نفسه وما انطوى عليه الجاهليون من الغدر: إني أخافه على نفسي.

فقال له عمير: انه ليس كما تتصوّر، هو أحلم من ذلك وأكرم.

فاطمأنّ صفوان لما أراه عمير عمامة رسول الله (ص) بعثها إليه علامة لأمانه، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله (ص)، فقال: هذا يزعم أنك أمنتني؟

فقال (ص): صدق.

قال: فاجعلني بالخيار شهرين.

قال (ص): أنت بالخيار أربعة أشهر.

وكان ممّن استأمن لهم فآمنهم رسول الله (ص) عكرمة بن أبي جهل، حيث استأمنت له زوجته أُم حكيم بنت الحارث بن هشام وأخبرت زوجها بذلك وهي تقول له: جئتك من عند أوصل الناس، وأبرّ الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك وقد استأمنت لك، فآمنك.

فجاء معها إلى رسول الله (ص) وأسلم على يديه، ثم قال: يا رسول الله مرني بخير ما تعلم فاعلمه.

قال (ص): قل أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وجاهد في سبيل الله.

ولهذه الأخلاق الكريمة، والسيرة الطيّبة أسلم الناس زرافات زرافات، ورسول الله (ص) يقرأ ـ على رواية ـ:

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً) ([٢٤]).

البيعة رجالاً ونساءاً

ثم اجتمع الناس للبيعة، فجلس رسول الله (ص) على الصفا يبايع الناس، فبايعه الرجال على الإسلام والجهاد والطاعة لله ولرسوله.

ولما فرغ من بيعة الرجال، أقبلت النساء يبايعنه وهو على الصفا، فأنزل الله عزّوجلّ:

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ([٢٥]).

فقالت هند، وكانت بين النساء وهي متنكّرة حتى لا يعرفها رسول الله (ص) لما صنعت بحمزة (ع): إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال!

ثم قالت: أما المال فقد أصبتُ من مال أبي سفيان هنات لأنه رجل ممسك لا يوسّع على عياله.

فقال لها رسول الله (ص): وانكِ لهند؟

قالت: نعم، فاعف عمّا سلف، عفى الله عنك.

ثم قالت: وأما الزنا فلا تزني الحرّة، وأمّا الولد فقد ربّيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر.

فتأثّر رسول الله (ص) من ذلك ولم يقل لها شيئاً، ثم قالت: وأما البهتان فإنه قبيح، وما

---

[٢٤] – النصر: ١.٣.

[٢٥] – الممتحنة: ١٢.

تأمرنا إلاّ بالرشد ومكارم الأخلاق، وأما انه لا نعصيك في معروف، فإنّا ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء.

وقيل: انها لما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك في غرور.

ثم ان أُم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبي جهل كانت بين النساء أيضاً فقالت: يا رسول الله ما ذلك المعروف الذي أمرنا الله أن لا نعصيك فيه؟

فقال (ص): لا تلطمنّ خدّاً، ولا تخمشن وجهاً، ولا تنتفن شعراً، ولا تدعين بويل وثبور.

وكان ذلك دأب النساء على موتى الجاهلية فقد كنّ ينتفن شعر رأسهنّ حتى لا يبقى في رأسهنّ طاقة شعر، ويدعين بالويل والثبور.

فقالت: يا رسول الله كيف نبايعك؟

قال (ص): إنني لا أُصافح النساء، ثم دعا بقدح من ماء، فأدخل يده فيه ثم أخرجها وقال: ادخلن أيديكنّ في هذا الماء فهي البيعة، ففعلن.

معيار التفاضل في الإسلام

ثم قام رسول الله (ص) على الصفا يخطب في عشيرته، بني هاشم وبني عبدالمطلب، ويوصيهم بوصاياه، لأنهم هم الذين سيخلّفونه إذا ارتحل عن مكة، ويجسّدونه في أعمالهم وتصرّفاتهم، وأهل مكة الذين هم حديثوا عهد بالإسلام ينظرون إليهم نظر اقتداء وتأسّي، لأنهم يرونهم رهط رسول الله (ص) وعشيرته، وممثّلوه فيهم.

ولذلك خطب (ص) عليهم يحفّزهم على الخير والتقوى، وعلى العمل للآخرة، ويحذّرهم الإتّكال على الأماني والإقتناع بحسبهم ونسبهم والإشتغال بالدنيا، فقال (ص):

(يا بني هاشم، ويا بني عبد المطلب، انّي رسول الله إليكم، واني شفيق عليكم، لا تقولوا انّ محمداً منّا، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلاّ المتّقون، ألا فلا أعرفكم تأتوني يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم، ويأتي الناس يحملون الآخرة، ألا وإني قد أعذرت فيما بيني وبينكم، وفيما بين الله عزّوجل وبينكم، وانّ لي عملي ولكم أعمالكم).

مع بديل بن ورقاء

ثم ان العباس الذي كان يقوم بدور الوسيط بين النبي (ص) وشخصيات قريش وكبار

الجاهليين ويسعى لجذبهم وتقريب قلوبهم إلى الإسلام، جاء يوم الفتح بالخزاعي: بديل بن ورقاء حتى أوقفه بين يدي رسول الله (ص) وقال: يا رسول الله هذا يوم قد شرفت فيه قوماً، فما بال خالك (بديل بن ورقاء) وهو قعيد حيه؟ أي لم يشرف كبقية الشخصيات بوسام، ولم يعهد إليه أمر من قبل رسول الله (ص).

وكان بديل شيخاً طاعناً في السنّ، وقد جاء متلثّماً، فالتفت إليه رسول الله (ص) وقال: (إحسر عن حاجبيك يا بديل)، فحسر عنهما وحدر لثامه.

فرأى رسول الله (ص) سواداً بعارض بديل.

فقال (ص) له: كم سنّوك يا بديل؟

فقال: سبع وتسعون يا رسول الله.

فتبسّم رسول الله (ص) وقال: (زادك الله جمالاً وسواداً، وأمتعك وولدك)، لكن رسول الله قد نيف على الستّين وقد أسرع الشيب فيه.

ثم قال (ص) له: يا بديل اركب جملك هذا الأورق وناد في الناس: انها أيام أكل وشرب.

وكان بديل جهير الصوت، فأتمر بأمر رسول الله (ص) وأخذ ينتقل بين خيامهم ويقول: أنا رسول رسول الله (ص) إليكم يقول لكم: إنها أيام أكل وشرب، وهي لغة خزاعة يعني: الإجتماع والأُلفة.

وهكذا كان يكرم رسول الله (ص) كبار القوم، ويبقيهم في مكانتهم، أو يمنحهم مكانة وجاهاً، حتى يستهوي قلوبهم ويشدّهم إلى الإسلام والايمان، ويجذب الآخرين الذين لم تطلهم يد رسول الله (ص) ولم يسلموا بعد إلى الإسلام.

سرية غالب الي بني مدلج

ثم ان رسول الله (ص) بعث ـ بعد ان فتح مكة ـ السرايا فيما حول مكة، يدعون الناس الى الله عز وجل، ولم يأمرهم بقتال.

فبعث (ص) غالب بن عبد الله الي بني مدلج.

فقالوا: لسنا عليك ولسنا معك.

فقال الناس: اغزهم يا رسول الله.

فقال: ان لهم سيداً اديباً أريباً، وربَّ غازٍ من بني مدلج شهيد في سبيل الله([٢٦]).

سرية عمرو إلى بني الديل

وبعث رسول الله (ص) ايضاً عمرو بن أُمية الضمري الي بني الديل، فدعاهم إلى الله ورسوله، فأبوا أشد الإباء.

فقال الناس: اغزهم يا رسول الله.

فقال (ص): ان سيدهم قد أسلم، فيقول لقومه: اسلموا، فيقولون: نعم ويسلمون، وهكذا كان.

سرية عبد الله بن سهيل

كما وبعث رسول الله (ص) ايضاً عبد الله بن سهيل بن عمرو إلى بني محارب بن فهر، فقبلوا منه وأسلموا، وجاء معه نفر منهم ليلتقوا برسول الله (ص) من قريب ويتعلموا منه الاسلام وأحكامه.

سرية خالد الي بني جذيمة

وكان ممن بعث رسول الله (ص) بعد فتح مكة ليدعو الناس إلى الله خالد بن الوليد، بعثه إلى بني جذيمة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، وانما بعث اليهم خالداً للترة التي كانت بينه وبينهم، فقد أصابوا في الجاهلية الفاكه بن المغيرة عم خالد، وعوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن، وكانا قد أقبلا في تجارة من اليمن، فأخذت بنو جذيمة ما معهما وقتلتهما، ولذلك أنفذ رسول الله (ص) عبد الرحمن بن عوف مع خالد للترة أيضاً التي كانت بين ابن عوف وبينهم.

هذا و رسول الله (ص) كان قد خطب يوم الفتح وقال: (ألا كل مال، أو مأثرة، أو دم، أو مظلمة، أو احنة كانت في الجاهلية فهو تحت قدمي).

فلما نزل خالد بمن معه علي الغميصاء وهو ماء من مياه بني جذيمة، اخذ بنو جذيمة السلاح وقالوا: يا خالد إنا لم نأخذ السلاح على الله وعلى رسوله، ونحن مسلمون، فانظر

---

[٢٦] – وهذا التعبير: (ان لهم سيداً أديباً أريباً) والذي يأتي بعده: (أن سيدهم قد أسلم) يدل على دور القيادة الصالحة في إسعاد الأمة والعكس بالعكس.

فان كان بعثك رسول الله (ص) ساعياً فهذه ابلنا وغنمنا فاغد عليها.

فقال خالد: ضعوا السلاح.

قالوا: انا نخاف منك أن تأخذنا باحنة الجاهلية وقد اماتها الله ورسوله.

فانصرف عنهم بمن معه ونزلوا قريباً، ثم شنّ عليهم الخيل فقتل وأسر منهم رجالاً، ثم أمر بهم خالد فكتفوا، ثم عرضهم على السيف وقتلهم.

أنباء الغدر وتداركها

فلما غدر خالد ببني جذيمة جاء رسولهم إلى رسول الله (ص) وأخبره بما فعل خالد بهم، فرفع (ص) يديه إلى السماء بعد أن صعد المنبر وأعلم الناس بفعل خالد وقال:

(اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد) يعيد ذلك ثلاث مرات وبكى.

ثم دعا (ص) علياً (ع) وقد قدم عليه تبر ومتاع، فأعطى علياً (ع) التبر وقال: يا علي أئت بني جذيمة فانظر في أمرهم وارضهم مما صنع خالد، ثم رفع (ص) قدميه وقال: يا علي اجعل قضاء اهل الجاهلية تحت قدميك.

فلما أتاهم علي (ع) حكم فيهم بحكم الله تعالى، فلما رجع الي النبي (ص) قال: يا علي اخبرني بما صنعت.

قال (ع) له: يا رسول الله عمدت فأعطيت لكل دم دية، ولكل جنين غرّة، ولكل مال مالاً، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم لميلغة كلابهم، وحيلة رعاتهم، وروعة نسائهم، وفزع صبيانهم، ولما يعلمون ولما لا يعلمون، ثم فضلت معي فضلة، فأعطيتهم ليرضوا عنك يا رسول الله.

فقال عندها رسول الله (ص) وقد ظهر الرضا علي وجهه المبارك مؤكداً: يا علي أعطيتهم ليرضوا عني؟ رضي الله عنك، والله ما يسرني يا علي أن لي بما صنعت حمر النعم.

ثم قال (ص): يا علي إنما أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، يا علي أنت هادي أُمتي، ألا إن السعيد كل السعيد من أحبك وأخذ بطريقتك ألا إن الشقي كل الشقي من خالفك ورغب عن طريقك إلى يوم القيامة([٢٧]).

---

[٢٧] – بحار الأنوار: ج٢١ ص١٤٣ ب٢٧ ح٦.

غزوة حنين

ولما فتح رسول الله (ص) مكة، مكث فيها خمسة عشر يوماً يدبّر أمرها ويبعث السرايا منها، فلما أراد مغادرتها جعل عليها (عتاب بن اسيد) لإدارة أُمورها وإقامة الصلاة بالناس، وكان ـ على قول ـ ابن إحدى وعشرين سنة، فأقام بها أميراً على مكة حتى قبض رسول الله (ص).

كما وعين (معاذ بن جبل) لتعليم الناس القرآن وأحكام الإسلام.

ثم خرج (ص) منها اوائل شوال في اثني عشر الف رجل: عشرة آلاف ممن كانوا معه، وألف رجل من بني سليم، والف رجل من مزينة، واتجه بهم الى منطقة حنين، وحنين واد جنب ذي المجاز على مقربة من الطائف، وبينها وبين مكة ثلاث ليال.

وذلك بعد أن عقد اللواء الأكبر ودفعه الى علي (ع) إضافة الى الرايات التي كانت معهم حين دخول مكة وفتحها.

وسبب هذه الغزوة: ان الله لما فتح على رسوله (ص) مكة إنصاعت له قبائل العرب كلها وأسلموا، إلاّ (هوازن) و(ثقيف) فإنهم عتوا عن أمر رسول الله (ص) وفكّروا في اجتياح المسلمين والإغارة عليهم، فاجتمعوا وجمعوا الجموع والسلاح وقالوا: إن محمداً قاتله قوم لم يحسنوا القتال ولم يكن لهم علم بالحرب فغلب عليهم، ونحن أُولوا بصيرة في الحرب وتجربة في القتال، فسوف نغلبه.

ثم عزموا على قصده قبل أن يقصدهم، وقالوا: قبل أن يظهر ذلك منه سيروا إليه.

فقصدوا جانب المسلمين بعد أن اجتمعت هوازن وثقيف كلها، وكان على هوازن رئيسهم مالك بن عوف النصرى، وعلى ثقيف رئيسهم قارب بن الأسود، واتفق معهما نضر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال.

هوازن وشيخ بني جشم

ثم خرجوا جميعاً بأموالهم وأولادهم ونسائهم لئلا يفروا وليكون ذلك أدعى لهم للحرب وللإستماتة من أجلها، وكان فيهم دريد بن الصمة الجشمي رئيس بني جشم وكان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر، وكان صاحب رأي وتدبير وله معرفة بالحروب، فساروا حتى

انتهوا إلى أوطاس، فلما نزلوا بأوطاس اجتمع الناس، وفيهم دريد بن الصمة، فلما نزل قال: في أي وادٍ أنتم؟

قالوا: بأوطاس.

قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس.

ثم قال: مالي أسمع رُغاء البعير وخوار البقر ونهاق الحمير وثغاء الشاء وبكاء الصغير؟

قيل له: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ليقاتل كل أمريء عن نفسه وماله وأهله فيكون أشد لحربه.

فقال دريد: راعي ضأن ورب الكعبة ماله وللحرب؟

ثم قال: أين مالك؟ فدعي له.

فقال: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك وانك تقاتل رجلاً كريماً وان هذا اليوم له ما بعده من الأيام، ثم مالي أسمع رُغاء البعير وخوار البقر ونهاق الحمير وغثاء الشاء وبكاء الصغير؟

قال: قد سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، أردت ان اجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم.

قال: راعي ضأن والله، وهل يردّ المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك الاّ رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟

قالوا: لم يشهدها منهم أحد.

قال: غاب الجد والجد، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟

قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر.

قال: ذلك الجذعان لا ينفعان ولا يضران.

ثم التفت إلى مالك وقال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن في نحور الخيل شيئاً، ارفعهم الى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم الق الصبأة على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وان كانت عليك ألفاك ذلك وقد احرزت أهلك ومالك.

قال: لا والله لا أفعل، انك قد كبرت ووهن عقلك، والله لتطيعني يا معشر هوازن أو لأتكأنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأي.

قالوا: أطعناك.

قال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه، ثم قال:

(يا ليتني فيها جذع أخبّ فيها وأضع)

(أقود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع)

عيون هوازن والمسلمين

وبعث مالك بن عوف عيوناً من رجاله فأتوه مرعوبين مذعورين فقال: ويلكم ما شأنكم؟

قالوا: رأينا رجالاً بيضاً علي خيل بلق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

ولما سمع بهم النبي (ص) بعث إليهم عبد الله بن أبي حدود الأسلمي وأمره أن يدخل في الناس، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله (ص) فأتاه وأخبره الخبر، وقال: سمعت مالك بن عوف رئيسهم يخطب على هوازن ويقول: يا معشر هوازن انكم احدّ العرب واعدّه، وان هذا الرجل لم يلق قوماً يصدقونه القتال، فإذا لقيتموه فاكسروا جفون سيوفكم واحملوا عليه حملة رجل واحد.

الاستعداد لمواجهة هوازن

فلما أجمع رسول الله (ص) المسير الى هوازن، ذكر له ان عند صفوان بن أُمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل (ص) اليه . وهو يومئذ مشرك . فقال (ص): يا أبا أُمية أعرنا سلاحك هذا نلقي فيه عدونا.

فقال: أغصباً يا محمد؟

فقال (ص): بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك.

قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، وقيل: أربعمائة، فلبس رسول الله (ص) درعين منها ولبس المغفر والبيضة أيضاً.

ثم خرج رسول الله (ص) عامداً إلى حنين راكباً بغلته البيضاء دلدل وهو يسير خلف

جيشه ليتدارك ضعيفهم والمنقطع منهم وكانوا اثني عشر ألفاً، وكان جيش العدو أربعة آلاف رجل.

ولذلك قال بعضهم لما رأى كثرة عددهم وقلّة عدوهم: لو لقينا بني شيبان ما بالينا، لن نغلب اليوم من قلة، فشقّ ذلك على رسول الله (ص) غير انه لم يبدها لهم ولم يقل لهم شيئاً، فانتصر الله له فأنزل فيهم:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) ([٢٨]).

وكان قد خرج مع رسول الله (ص) ناس من المشركين منهم صفوان بن أُمية، فلما كان عشية ذلك اليوم جاء فارس فقال: يا رسول الله إني طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم.

فتبسم رسول الله (ص) وقال: تلك غنيمة للمسلمين غداً إن شاء الله.

ثم قال: من يحرسنا الليلة؟

قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله.

قال (ص): اركب. فركب فرسا له، فقال (ص): استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه. ففعل. فلما أصبح جاء وقال: طلعت الشعبين كلاهما فلم أر أحداً.

فقال له رسول الله (ص): هل نزلت الليلة؟

قال: لا إلاّ مصلياً أو قاضي حاجة.

فقال رسول الله (ص): فلا عليك أن تعمل عملاً بعد هذا.

في وادي حنين

فلما انتهى النبي (ص) الى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال وكان قد سار إليها يوم السبت لست خلون منه، كان قد سبقهم مالك بن عوف فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي وفرقهم في الطرق والمداخل وحرضهم على قتال المسلمين وأمرهم أن يكمنوا لهم ويرشقوهم أول ما طلعوا ويحملوا عليهم حملة واحدة وقال: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون

---

[٢٨] – التوبة: ٢٥.

سيوفكم، ثم شدوا شدّة واحدة.

فلما كان وقت السحر واندلع الفجر عبأ رسول الله (ص) جيشه بعد أن صلى بهم صلاة الفجر وعقد ألويته والرايات وفرقها على الناس ودفع اللواء الأكبر الى علي (ع) ثم انحدروا نحو الوادي وكانت بنو سليم على مقدمتهم.

قال جابر بن عبد الله: لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً، وذلك في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأخبائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيأوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب بايديها السيوف والعمد والقنى، قد شدوا علينا شدة رجل واحد، فانكشف الناس راجعين لا يلوي أحداً على أحد.

وانحاز رسول الله (ص) ذات اليمين ثم قال: إليّ أيها الناس هلم اليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، والناس يفرّون لا يلوون على شيء.

فلم يبقَ مع رسول الله (ص) الاّ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، منهم وفي طليعتهم علي بن ابي طالب (ع) وأخوه عقيل والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث وأُسامة بن زيد وأيمن بن عبيد وقتل يومئذ ورسول الله (ص) مصلت سيفه في المجتلد وهو على بغلته البيضاء دلدل، وعلي (ع) بين يديه يضرب وجوه الناس ويردّهم عنه.

صاحب المواطن المشهورة

قال الفضل بن عباس: التفت العباس حين انقشع الناس عن بكرة أبيهم يوم حنين فلم يرَ علياً (ع) فقال لي: أفي مثل هذه الحال يرغب ابن ابي طالب بنفسه عن رسول الله (ص) وهو صاحب المواطن المشهورة؟

فقلت: يا أبة نقّص قولك لابن أخيك.

قال: ما ذاك يا فضل؟

قلت: أما تراه يقاتل في الرعيل الأول، أما تراه يناجز في الرهج؟

قال: أشعره لي يا بني.

قلت: هو ذو كذا وكذا ذو البردة.

فأمعن النظر اليه وقال: فما تلك البرقة؟

قلت: سيفه يزيل به بين الأقران.

فقال: برّ بن برّ، فداه عم وخال.

قال: فضرب علي (ع) يومئذ أربعين مبارزاً كلهم يقدّه حتى انفه فيموت من فوره.

شيبة يعلن إسلامه

وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: لما رأيت رسول الله (ص) يوم حنين وقد انكشف عنه أصحابه ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما، فقلت: أدرك ثاري اليوم من محمد، فذهبت لأجيئه عن يمينه فاذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة، يكشف عنها العجاج، فقلت في نفسي: عمه ولن يخذله.

ثم جئته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت في نفسي: ابن عمه ولن يخذله.

ثم جئته من خلفه فلم يبق لي إلاّ أن اسوره سورة بالسيف إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق، فخفت ان يمحشني، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقهرى.

فالتفت اليّ رسول الله (ص) وقال: يا شيب يا شيب، أُدنُ مني، ثم قال (ص): اللهمّ أذهب عنه الشيطان.

قال: فرفعت إليه بصري ولهو أحبّ إليَّ من سمعي وبصري.

وقال (ص): يا شيب قاتل الكفار. ثم اخبرني بما اضمرته في نفسي. فاستحييت واعتذرت منه وأسلمت على يديه.

كرٌّ بعد فرّ

ولما رأى رسول الله (ص) هزيمة القوم عنه، قال لعمه العباس وكان رجلاً جهورياً صيّتاً: يا عم نادِ بالقوم، وذكّرهم العهد.

فنادى العباس بأعلى صوته: يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، إلي أين تفرون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله (ص).

والقوم على وجوههم قد ولّوا مدبرين. عندها رفع رسول الله (ص) يديه نحو السماء

وقال: (اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان).

فنزل جبرئيل فقال: يا رسول الله دعوت بما دعا به موسى حيث فلق له البحر، ونجّاه من فرعون.

ثم التفت رسول الله (ص) الى أبي سفيان بن الحارث وقال: ناولني كفاً من حصى، فناوله فرماه في وجوه المشركين وقال: شاهت الوجوه، ثم رفع رأسه نحو السماء وقال: اللهم ان تهلك هذه العصابة لم تعبد، وان شئت أن لا تعبد، لا تعبد.

فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا وكسروا جفون سيوفهم وهم يقولون: لبيك، وكانت ليلة ظلماء ورسول الله (ص) في الوادي والمشركون قد خرجوا عليه من شعاب الوادي وجنباته ومضايقه مصلتين سيوفهم وعمدهم وقسيّهم.

قال الراوي: فنظر رسول الله (ص) ببعض وجهه في الظلماء فأضاء كأنه القمر ليلة البدر ثم نادى المسلمين: أين ما عاهدتم الله عليه؟

فأسمع أولهم وآخرهم، فلم يسمعها رجل إلا رمى بنفسه إلى الأرض وانحدروا إلى حيث كانوا من الوادي، حتى لحقوا بالعدوّ فقاتلوه، وكان علي(ع) قد قتل حامل رايتهم: أباجرول وخذل القوم بقتله وولّوا منهزمين.

قال جابر بن عبدالله: ما رجعت راجعة الناس حتى وجدوا الأُسارى مكتفين بين يدي رسول الله (ص) وهو يقول: اللهمّ إنك أذقت أول قريش نكالاً، فأذق آخرها نوالاً.

هوازن تنهزم

ولما قتل أبو جرول وخذل القوم بقتله، وضع المسلمون سيوفهم فيهم حتى قتل من القوم كثير والنبي (ص) ينظر إلى قتالهم ويقول: الآن حمي الوطيس. كناية عن شدة الأمر واضطرام الحرب وهي من أحسن الإستعارات، وكان النبي (ص) أول من قالها ..

ثم كانت الهزيمة والأسر حينئذ وجيء بالأسرى إلى رسول الله (ص) مكتفين، وكان أبوسفيان صخر بن حرب بن أُمية في هذه الغزوة، فانهزم في جملة من المسلمين، فالتقى به ابنه معاوية وتلاوما على ما ارتكباه من الهزيمة، ثم وقف فاجتمع معه الناس من أهل مكة، ثم رجعوا وأعادوا الكرة عليهم، وفي ذلك يقول مالك بن عبادة الغافقي:

لم يواس النبي غير بني هاشم عند السيوف يوم حنين

هرب الناس غير تسعة رهط فهمُ يهتفون بالناس أين؟

ثم قاموا مع النبي على الموت فأتوا زينا لنا غير شين

وقال العباس بن عبد المطلب عم النبي (ص) في ذلك أيضاً:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا

وقولي إذا ما الفضل شدّ بسيفه على القوم اخرى يا بنيّ ليرجعوا

وعن البراء بن عازب أنه قال رجل: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله (ص) يوم حنين؟

فقال: لكن رسول الله (ص) لم يفر، ان هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله (ص) على بغلته البيضاء فنزل واستنصر وقال: اللهمّ أنزل نصرك، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته.

قال البراء: وكنا والله إذا احمر البأس نتّقي برسول الله (ص).

مغانم حنين

ولما نصر الله تعالى نبيّه (ص) يوم حنين على المشركين، وانهزم المشركون، وقع منهم في أيدي المسلمين غنائم كثيرة وسبي كثير، قيل: إن السبي كان أربعة آلاف رأس، وقيل: ستة آلاف رأس، ومن الإبل اثني عشر ألفاً، وقيل: أربعة وعشرين ألفاً، سوى ما لا يعلم من الغنائم.

وقد استجاب الله لنبيّه (ص) حيث كان يدعوه ويقول: (اللهمّ انّك أذقت أول قريش نكالاً، فأذق آخرها نوالاً).

فإن تفريق رسول الله (ص) بين قريش الغنائم أغنى قريشاً وأثراهم، وقد خلّف رسول الله (ص) الأنفال والأموال والسبايا كلها بالجعرانة حتى يفرغ المسلمون من عدوّهم، وولى عليها بديل بن ورقاء الخزاعي. فلما فرغ رسول الله (ص) من حنين والطائف قسم الغنائم بينهم وذلك على ما سيأتي.

سرية أبي عامر إلى أوطاس

فلما فضّ الله تعالى جمع المشركين بحنين تفرّقوا فرقتين، فأخذت الأعراب ومن تبعهم إلى

أوطاس، وأخذت ثقيف ومن تبعها إلى الطائف، فبعث رسول الله (ص) أبا عامر الأشعري على جيش فيهم أبو موسى الأشعري إلى أوطاس، وذلك لملاحقة الأعراب ومن تبعهم بها، فلما بلغها هو ومن معه تقدم بالراية وقاتل حتى قتل دونها.

فقال المسلمون لأبي موسى: أنت ابن عمّ الأمير وقد قتل، فخذ الراية مكانه حتى نقاتل دونها، فأخذها أبو موسى فقاتل المسلمون دونها حتى فتح الله عليهم، ورجعوا إلى رسول الله (ص) بالسبي والغنائم فاتحين.

فأمر رسول الله (ص) بضمها إلى غنائم حنين وسبيها، وذلك في الجعرانة.

وقيل: انه قال أبو موسى: كنت مع أبي عامر فرمى أبو عامر في ركبته فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟

فأشار إلى الذي رماه وقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدته فلحقته، فلما رآني ولّى، فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك.

فقال: يابن أخي اقرء النبي (ص) منّي السلام وقل له يستغفر لي.

ثم قال أبو موسى: واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبي (ص) في بيته فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وأنه قال قل له يستغفر لي، فدعا (ص) بماء فتوضّأ ثم رفع يديه ودعا له بالمغفرة.

وقيل: انه استشهد من المسلمين يوم حنين أربعة نفر منهم أيمن بن أُم أيمن، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحارث رجل من الأنصار وأبو عامر الأشعري الذي قتل في أوطاس، وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلاً.

سرية أبي سفيان إلى الطائف

كما وبعث رسول الله (ص) أبا سفيان صخر بن حرب إلى الطائف لملاحقة ثقيف ومن تبعهم الذين لجأوا إليها، فلما بلغها هو ومن معه لقيته ثقيف فضربوه على وجهه فانهزم ورجع إلى النبي (ص) يقول: بعثتني يا رسول الله (ص) مع قوم لا يرفع بهم الدلاء من هذيل والأعراب، فسكت عنه رسول الله (ص) ولم يقل له شيئاً، وعزم على أن يسير إلى الطائف بنفسه.

غزوة الطائف

والطائف منطقة سياحية ومصيف من مصايف الحجاز قديماً وحديثاً، وهي تبعد عن مكة اثنى عشر فرسخاً إلى نحو الجنوب الشرقي منها، وثقيف التي هي من القبائل القوية والكثيرة العدد كانت تسكنها.

سار إليها رسول الله (ص) بأصحابه في أواخر شوّال من السنة الثامنة من الهجرة النبويّة المباركة.

وسببها: اشتراك ثقيف في حرب رسول الله (ص) مع هوازن، ولجوئهم بعد هزيمتهم النكراء مع رئيس هوازن مالك بن عوف إليها.

وسلك رسول الله (ص) في طريقه إلى الطائف نخلة اليمانية، ثم على قرن، ثم على نجرة الرعاء من لية فابتنى فيها مسجداً فصلّى فيه.

ثم سلك (ص) في طريق، فسأل عن اسمها فقيل: الضيقة فقال: بل اجعلوا اسمها اليسرى، ثم خرج (ص) منها حتى نزل تحت سدرة قريباً من مال رجل من ثقيف، ثم مضى حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه فضرب به عسكره.

فرموا المسلمين رمياً شديداً حتى أُصيب ناس من المسلمين بجراحة، وفقئت عين أحدهم فأخذها بيده، فرآه رسول الله (ص) فقال له: أيهما أحب إليك، عين في الجنّة أو ادعو الله أن يردّها عليك؟

فقال: عين في الجنّة، فبارك عليه النبي (ص) وعلى إيمانه.

وقتل منهم يومئذ اثناعشر رجلاً سبعة من قريش، ورجل من بني ليث، وأربعة من الأنصار، فارتفع (ص) إلى موضع مسجد الطائف اليوم ووضع عسكره هناك، وكان معه من نسائه أُم سلمة وزينب، فضرب لهما قبّتين، وبقي رسول الله(ص) محاصراً لحصنهم بضع عشرة ليلة.

الطائف في محاصرة المسلمين

ثم شاور رسول الله (ص) أصحابه في حصن الطائف، فقال سلمان: أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم وتشدخه به حتى يحدث في الحصن ثغرة ننفذ منها إليهم، فأمر به

فعمل منجنيق.

ويقال: قدم بالمنجنيق ودبابتين إليه، والدبّابة آلة لها سقف تحفظ الذين يستخدمون المنجنيق من سهام العدوّ وقذائفهم، فأرسل عليهم ثقيف قذائفهم: سكك الحديد المحماة بالنار، فأحرقت الدبّابتين.

فأمر (ص) بقطع أعناب ثقيف وتحريقها، فسألوه أن يدعها لله وللرحم، فقال (ص): إني أدعها لله وللرحم، فتركها.

ثم نادى منادي رسول الله (ص): أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا من الحصن فهو حرّ، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، منهم أبو بكرة وكان عبداً للحارث بن كلدة، اسمه نقيع بن الحارث، فتسوّر حصن الطائف وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقي عليها فكنّاه رسول الله (ص) (أبا بكرة).

ومنهم: المنبعث وكان اسمه المضطجع فسمّاه رسول الله (ص) المنبعث، وغيرهما، فأعتق رسول الله (ص) من نزل منهم، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمله، وأمرهم أن يُقرئوهم القرآن ويعلّموهم السنن.

فشق ذلك على أهل الطائف مشقّة شديدة، حتى انه لما أسلم أهل الطائف بعد ذلك تكلّم نفر منهم في أُولئك العبيد وقالوا: يا رسول الله ردّ علينا رقيقنا الذين أتوك.

فقال رسول الله (ص): لا، أُولئك عتقاء الله.

في أيام المحاصرة

وخرج من الحصن في أيام محاصرة النبي (ص) حصن الطائف نافع بن غيلان بن معتب في خيل من ثقيف، فلقيه علي (ع) في خيله، فالتقوا ببطن وجّ . وهو بلد بالطائف . ودار بينهم قتال شديد فقتله علي (ع) وانهزم من كان مع نافع من المشركين ودخلوا حصنهم خائبين مرعوبين، فلحق القوم على أثر ذلك رعب كبير، فنزل منهم جماعة إلى النبي (ص) وأسلموا على يديه.

مهمة كسر الأصنام

ثم انّ رسول الله (ص) أنفذ علياً (ع) في خيل . عند محاصرته أهل الطائف . إلى النواحي

والأطراف وأمره أن يكسر كل صنم وجده.

فخرج (ع) فلقيه جمع كثير من خثعم، فبرز له رجل من القوم وقال: هل من مبارز؟

فلم يقم له أحد، فقام إليه علي (ع). ثمّ ضربه فقتله ومضى حتى كسر الأصنام وانصرف إلى رسول الله (ص) وهو بعد محاصر لأهل الطائف.

فك الحصار عن الطائف

قال جابر: فلما قدم علي (ع) فكأنّما كان رسول الله (ص) على وجل، فارتحل.

وكان قد أشار عليه بعض أصحابه ممن هو خبير بأوضاع المنطقة، وبأحوال ثقيف، وبجزئيات الحصن ومعدّاته وذخائره بترك المحاصرة والإرتحال عنهم.

كما كان قد سأله القوم أن يبرح عنهم ويترك محاصرتهم، ليقدم عليه وفدهم فيفاوضونه في أمرهم فيشترط له ويشترطون لأنفسهم.

وقيل: انه لما حاصر رسول الله (ص) الطائف فلم ينل منهم شيئاً قال: إنا قافلون غداً إن شاء الله، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟

فقال: اغدوا على القتال، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: إنا قافلون غداً إن شاء الله، فأعجبهم، فضحك النبي (ص).

وقد استشار النبي (ص) أصحابه في البقاء أو الرجوع، فأشاروا عليه بالرجوع.

فسار رسول الله (ص) حتى نزل مكة، فقدم عليه نفر منهم بإسلام قومهم، ولم ينجع القوم له بالصلاة ولا الزكاة أي: كانوا قد شرطوا لأنفسهم الإسلام على أن لا يصلّوا ولا يزكوا.

فرفض ذلك رسول الله (ص) رفضاً باتاً وقال: انه لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود، أما والذي نفسي بيده ليقيمنّ الصلاة وليؤتنّ الزكاة، أو لأبعثنّ إليهم رجلاً امتحن الله قلبه للإيمان هو منّي كنفسي، فليضرب أعناق مقاتليهم وليسبينّ ذراريهم، هو هذا، وأخذ بيد علي (ع) فأشالها.

فلما صار القوم إلى قومهم بالطائف أخبروهم بما سمعوا من رسول الله(ص) فأقرّوا له بالصلاة والزكاة وبما شرطه عليهم.

ثم رجع رسول الله (ص) إلى الجعرانة بمن معه من الناس، وذلك عند دخول شهر ذي القعدة لأجل تقسيم غنائم حنين وأوطاس التي أودعت هناك، فبدأ يقسم بينهم الأموال، فقسمها كلها بأمر الله تعالى، وقيل: الخمس منها فقط في المؤلّفة قلوبهم من قريش ومن سائر العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير.

وقيل: انه جعل للأنصار شيئاً يسيراً، وأعطى الجمهور للمتألّفين من وجوه القبائل.

فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة من الإبل، وروي أنّ أبا سفيان بن حرب جاء إلى النبي (ص) والأموال من نقود وغيره مجموعة عنده فقال له: يا رسول الله أنت اليوم أغنى قريش، فتبسّم رسول الله (ص) ضاحكاً من قوله.

فقال أبو سفيان وقد اغتنم الفرصة: يا رسول الله حظنا من هذه الأموال؟

فأمر رسول الله (ص) بلالاً فأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضّة.

فقال: حظ ابني يزيد.

فأعطاه أيضاً مائة من الإبل وأربعين أوقية.

فقال أبو سفيان: فأين حظ ابني معاوية، فأمر له بمائة من الإبل وأربعين أوقية حتى أخذ أبو سفيان يومئذ ثلاثمائة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضّة.

فقال أبو سفيان عند ذلك: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، لأنت كريم في الحرب والسلم، هذا غاية الكرم جزاك الله خيراً.

وأعطى (ص) صفوان بن أُمية من الإبل مائة، وقيل: ثم مائة ثم مائة.

وأعطى (ص) حكيم بن حزام مائة من الإبل. وقيل: فسأله مائة أُخرى، فأعطاه ايّاها.

وأعطى (ص) الحارث بن الحارث إبن كلدة مائة من الإبل.

وأعطى كلاً من الحارث بن هشام أخا أبي جهل، وعبد الرحمن بن يربوع المخزوميين، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزّى، والعلاء بن حارثة الثقفي (وعدّه بعضهم في أهل الخمسين) والأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، ومالك بن عوف النصري مائة من الإبل.

وأعطى دون المائة رجالاً من قريش وغيرهم، منهم: مخرمة بن نوفل، وعمير بن وهب، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي.

وأعطى (ص) كلاً من سعيد بن يربوع المخزومي، وعدي بن قيس السهمي، وعثمان بن نوفل خمسين من الإبل.

وأعطى عباس بن مرداس أربعاً فسخطها وأنشأ يقول:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

وقد كنت في الحرب ذا تدرأ فلم أُعط شيئاً ولم أُمنع

فطلبه رسول الله (ص) فلما جاءه قال له: أنت القائل: أتجعل نهبي نهب العبيد؟ ثم التفت إلى علي (ع) وقال له: يا علي قم إليه فاقطع لسانه.

فظن ابن مرداس ان الكلام على ظاهره، فقال لعلي (ع): يا علي انك لقاطع لساني؟

قال (ع): إنّي ممض فيك ما أُمرت، ثم أدخله الحظائر وقال له: اعقل ما بين أربعة إلى مائة.

فقال لما رأى ذلك: بأبي أنتم وأُمي ما أكرمكم وأحلمكم، وأجملكم وأعلمكم؟

فقال له علي (ع): انّ رسول الله (ص) أعطاك أربعاً وجعلك من المهاجرين، فإن شئت فخذها، وإن شئت فخذ المائة وكن مع أهل المائة.

فقال: أشِر أنت عليَّ.

فقال له علي (ع): إني أرى أن تأخذ ما أعطاك وترضى، ففعل.

وقال لرسول الله (ص) قائل من أصحابه: اعطيت كلاً من عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وتركت جعيل بن سراقة الضمري؟

فقال رسول الله (ص): اني تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه.

مع ذي الخويصرة

عن جابر بن عبد الله قال: أتى رجل بالجعرانة في منصرفه (ص) من حنين، وفي رواية عن أبي سعيد الخدري: أتاه ذو الخويصرة، وفي ثوب بلال فضّة ورسول الله (ص) يقبض منها يعطي الناس.

فقال: يا محمد اعدل.

فقال (ص): ويلك من يعدل إن أنا لم أعدل؟ لقد خبت أو خسرت إن أنا لم أعدل؟

ألا ترى قسّمتُ الشاة حتى لم يبق معي شاة، أو لم أُقسّم البقر حتى لم يبق معي بقرة واحدة؟ أو لم أُقسم الإبل حتى لم يبق معي بعير واحد؟!

فقال أحد الصحابة: يا رسول الله ائذن لي في قتل هذا المنافق؟

فقال (ص): معاذ الله أن يتحدّث الناس أنّي أقتل أصحابي، إن هذا يخرج في قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، يخرجون على خير فرقة من الناس.

قال أبو سعيد الخدري: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله (ص) وأشهد أنّ علي بن أبي طالب (ع) قاتلهم وأنا معه، وأمر بذلك الرجل فالتمس، فوجد، فأُتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله (ص) الذي نعت.

حكمة تأليف القلوب

ولما قسّم رسول الله (ص) بأمر من الله تعالى غنائم حنين في قريش خاصة، وأجزل القسمة للمؤلّفة قلوبهم، غضبت الأنصار واجتمعت إلى سعد بن عبادة، فانطلق بهم إلى رسول الله (ص) بالجعرانة فقال: يا رسول الله أتأذن لي في الكلام؟

فقال (ص): نعم.

قال: إن كان هذا الأمر من هذه الأموال التي قسّمت بين قومك شيئاً أنزله الله، رضينا، وإن كان غير ذلك لم نرض.

فقال رسول الله (ص) للأنصار وقد التفت إليهم: يا معشر الأنصار، أكلّكم على قول سيّدكم سعد؟

قالوا: سيّدنا الله ورسوله.

فأعادها عليهم ثانية فأعادوها، ثم قالوا في الثالثة: نحن على مثل قوله ورأيه.

وهنا قال زرارة: قال أبو جعفر (ع): فحطّ الله نورهم، وفرض للمؤلّفة قلوبهم سهماً في القرآن، ثم قال: فلما كان من قابل جاء الذين تألّفهم رسول الله(ص) بضعف ما أخذوا، وأسلم ناس كثيرون.

فقام رسول الله (ص) خطيباً وقال: هذا خير أم الذي قلتم؟ قد جاءوا من الإبل بضعف

ما أعطيتهم، وقد أسلم لله عالم وناس كثير، والذي نفس محمد بيده لوددت انّ عندي ما أعطي كل إنسان ديته ـ وهي مائة من الإبل مثلاً ـ على أن يسلم لله ربّ العالمين.

اعتراض واسترضاء

وروي: انّ رسول الله (ص) بلغه ـ لما قسّم غنائم حنين في قريش خاصة يتألفهم به ـ أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس من القسمة، فكأنهم غضبوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، حتى أنّ بعضهم قال: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

وقال بعضهم: لقي الرجل أهله وبني عمّه، ونحن أصحاب كل كريهة!

فأمر رسول الله (ص) أن يجتمعوا ولا يكن غير أنصاري معهم.

فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله (ص) يتبعه علي (ع) حتى جلس وسطهم.

فقال (ص): ما حديث بلغني عنكم؟

فقال له ذوو الأسنان من الأنصار: أما ذوو رأينا فلم يقولوا شيئاً، وأما أُناس حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

فقال (ص): إني أُعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألّفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال والشاء، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟! فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به.

قالوا: يا رسول الله قد رضينا.

فقال لهم النبي (ص): ستجدون بعدي أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فإني على الحوض.

قالوا: سنصبر.

وقد قصد رسول الله (ص) بذلك ما يلاقونه بعده من مثل واقعة الحرّة وأشباهها.

النبي (ص) يستغفر للأنصار

وفي رواية: انه (ص) لما اجتمعوا جاء إليهم شبه المغضب ويتبعه علي (ع) حتى جلس في وسطهم وقال لهم: إني سائلكم عن أمر فأجيبوني عنه.

فقالوا: قل يا رسول الله.

فقال (ص): يا معشر الأنصار ألستم كنتم ضالّين فهداكم الله بي؟

قالوا: بلى والله، فلله المنّة ولرسوله.

قال (ص): ألم تكونوا على شفا حفرة من النار فأنقذكم الله بي؟

قالوا: بلى والله، فلله المنّة، ولرسوله المنّ والطول والفضل علينا.

قال (ص): ألم تكونوا أعداءاً فألّف الله بين قلوبكم بي؟

قالوا: بلى، ولله المنّة ولرسوله.

قال (ص): ألم تكونوا قليلاً فكثّركم الله بي؟

قالوا: بلى، ولله المنّة ولرسوله.

وقال (ص) ماشاء أن يقول، ثم سكت هنيئة.

ثم قال (ص): ألا تجيبوني بما عندكم يا معشر الأنصار؟

قالوا: بم نجيبك فداؤك آباؤنا وأُمهاتنا يا رسول الله، فلقد أجبناك: بأنّ لك الفضل والمنّ والطول علينا.

قال (ص): أما لو شئتم لقلتم: وأنت قد كنت جئتنا طريداً فآويناك، وجئتنا خائفاً فآمنّاك، وجئتنا مكذّباً فصدّقناك.

فارتفعت أصواتهم بالبكاء، وقام شيوخهم وساداتهم إليه وقبّلوا يديه ورجليه وركبتيه ثم قالوا: رضينا بالله وعنه، وبرسوله وعنه، وهذه أموالنا أيضاً بين يديك، فإن شئت فاقسمها على قومك، وإنما قال مَن قال منّا على غير وغر صدر، وغلّ في قلب، ولكنهم ظنوا سخطاً عليهم وتقصيراً بهم، وقد استغفروا الله من ذنوبهم، فاستغفر لهم يا رسول الله.

فقال رسول الله (ص): اللهمّ اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار.

ثم قال (ص): يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاء والنعم، وترجعون أنتم وفي سهمكم رسول الله؟

قالوا: بلى رضينا.

فقال (ص) حينئذ: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهمّ اغفر للأنصار.

وقد كان في السبي أُخت رسول الله (ص) الرضاعية: شيماء بنت حليمة السعدية، من بني سعد، حيث إن بني سعد قد شاركوا هوازن الحرب ضد رسول الله (ص)، فلما قامت على رأسه قالت: يا محمّد أُختك شيماء بنت حليمة سبي.

قال: فنزع رسول الله (ص) برده فبسطه لها، فأجلسها عليه، ثم أكبّ عليها يسائلها، وهي التي كانت تحتضنه إذ كانت أُمها ترضعه، وكانت شفيقة عليه.

وكان قد أدرك وفد هوازن رسول الله (ص) بالجعرانة، وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله لنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا، منّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر خالاتك وبنات خالاتك، وحواضنك وبنات حواضنك اللاتي أرضعنك، ولسنا نسألك مالاً وانما نسألكهنّ، وقد كان رسول الله (ص) قسّم منهنّ ما شاء الله.

فلما كلّمته أُخته قال (ص): أما نصيبي ونصيب بني عبدالمطلب فهو لك، وأما ما كان للمسلمين فاستشفعي بي عليهم.

فلما صلّوا الظهر قامت فتكلّمت وتكلّموا، فوهب لها الناس أجمعون وردّوا إليهم نساءهم وأبناءهم.

كما وكلمته أُخته في مالك بن عوف رئيس هوازن ومشعل نار الحرب في حنين.

فقال لها رسول الله (ص): إن جاءني مسلماً فهو آمن، فأتاه مسلماً، فردّ عليه ماله، وأعطاه مائة من الإبل اضافة إلى ماله، فأنشأ مالك حينئذ يقول:

ما ان سمعت ولا رأيت بمثله في الناس كلهم كمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدي وإذا تشأ يخبرك عما في غد

فاستعمله رسول الله (ص) على من أسلم من قومه.

وقيل: ان شيماء قالت: يا رسول الله إني أُختك من الرضاعة، فبسط (ص) لها رداءه فأجلسها عليه، ودمعت عيناه، وخيَّرها وقال: إن أحببت فأقيمي عندي محببة مكرمة، وإن أحببت أمتعتك وترجعي إلى قومك فعلت.

قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي.

فأسلمت فمنحها رسول الله (ص) هداياه وردّها إلى قومها.

وجاءته (ص) أُمه من الرضاعة حليمة السعدية بنت أبي ذئيب من هوازن، وهي التي أرضعته حتى أكملت رضاعه، فالتفت (ص) إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه.

قال جمع: وقد أسلمت وأسلم زوجها.

معدن الحلم والكرم

قالوا: لما فرغ رسول الله (ص) من تقسيم الغنائم ركب واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله أقسم علينا فيئنا، حتى الجأوه إلى شجرة، فانتزع عنه رداؤه.

فقال: أيها الناس ردّوا عليّ ردائي، فوالّذي نفسي بيده لو كان عندي عدد شجرتها نعماً لقسّمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً.

ثم جاءه رجل يخبره بمقالة أحدهم فيه، وطعنه في القسمة، فأجابه رسول الله (ص) وهو يريد أن يخفّف عليه شدّة ما تحامل عليه البعض فيما يخص القسمة قائلاً: (قد اوذي أخي موسى بأكثر من هذا فصبر).

وقيل: إنه (ص) لما أراد أن يقسم الغنائم أمر زيد بن ثابت حتى أحضر الناس، ثم عدّ الإبل والغنم وقسّمها على الناس، فوقع في سهم كل رجل أربع من الإبل مع أربعين شاة من الغنم، وإن كان فارساً وقع في سهمه اثناعشر بعيراً مع مائة وعشرين شاة من الغنم.

من معجزات الرسول (ص)

روي انه لما حاصر رسول الله (ص) أهل الطائف قال عيينة بن حصن الفزاري وكان من المؤلّفة قلوبهم: إئذن لي حتى آتي الحصن فأُكلّمهم، فأذن له، فجاءهم وقال: أدنو منكم وأنا آمن؟

قالوا: نعم، وعرفه أبو محجن فقال: أُدن.

فدخل عليهم وقال لهم: فداكم أبي وأُمّي لقد سرّني ما رأيت منكم، وما في العرب أحد غيركم، والله ما في محمد مثلكم، ولقد قلّ المقام وطعامكم كثير، وماؤكم وافر لا تخافون قطعه، وشجّعهم على المقاومة والمجابهة.

فلما خرج قالت ثقيف لأبي محجن: إنّا قد كرهنا دخوله وخشينا أن يخبر محمداً بخلل يراه فينا أو في حصننا.

فقال أبو محجن: أنا كنت أعرف به، ليس أحد منا أشدّ على محمد منه، وإن كان معه.

فلما رجع عيينة إلى رسول الله (ص) قال: قلت لهم: إدخلوا في الإسلام، فو الله لا يبرح محمد من عقر داركم حتى تنزلوا وتأخذوا لأنفسكم أماناً.

فقال له رسول الله (ص): لقد قلت بخلاف ما تقول، قلت لهم كذا وكذا، وأخبره بكل ما قاله لهم، فعاتبه جماعة وأنّبوه على فعله.

فقال: استغفر الله وأتوب إليه ولا أعود أبداً.

فعفا رسول الله (ص) عنه.

مغادرة مكة

ثم خرج رسول الله (ص) بعد تقسيم الغنائم من الجعرانة إلى مكة معتمراً، فلما فرغ رسول الله (ص) من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة، وكانت عمرته في منتصف ذي القعدة، فقدم رسول الله (ص) المدينة في بقية ذي القعدة أو في أول ذي الحجة.

وذلك بعد أن استخلف عتاب بن أُسيد على مكة، وخلّف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس في الدين ويعلّمهم الأحكام.

ثم حجّ عتاب بن أُسيد بالناس تلك السنة، وهي السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة، وعتاب بن اسيد هذا، هو الذي استعمله رسول الله (ص) على مكة وكان ابن عشرين سنة أو أكثر بقليل، وكان في غاية الورع والزهد، وهو أول أمير أقام الحج في الإسلام.

كما واستعمل (ص) على هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف عثمان بن أبي العاص، وكانا شابين أيضاً.

وكانت مدة غيبة رسول الله (ص) منذ خرج من المدينة إلى فتح مكة وأوقع بهوازن وحارب الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يوماً.

معيار الأفضلية في الإسلام

وكان استخلاف رسول الله (ص) عتّاباً على مكة وهو ابن عشرين سنة وأقرانه على هوازن وثقيف مثاراً للجدل والنقاش بين بعض أهل مكة، الذين كانوا يرون المناصب للشيوخ وذوي الأسنان منهم، ولذلك قالوا: إنّ محمداً لا يزال يستخفّ بنا حتى ولّى علينا غلاماً

حدث السن ابن ثمانية عشر سنة، ونحن مشايخ ذوو الأسنان، وجيران حرم الله الآمن، وخير بقعة على وجه الأرض.

فكتب رسول الله (ص) إلى عتّاب كتاباً أجابهم فيه على ذلك قائلاً: لا يحتجّ محتجّ منكم في مخالفته بصغر سنّه، فليس الأكبر هو الأفضل، بل الأفضل هو الأكبر، وهو الأكبر في موالاتنا وموالاة أوليائنا، ومعاداة أعدائنا، فلذلك جعلناه الأمير عليكم، والرئيس عليكم، فمن أطاعه فمرحباً به، ومن خالفه فلا يُبعد الله غيره.

وبقوله (ص): (ليس الأكبر هو الأفضل بل الأفضل هو الأكبر) أبطل مقاييس الجاهلية في تفويض المناصب إلى الشيوخ وذوي الأسنان وإن لم يكونوا أكفاءاً، وأثبت مقياس الإسلام والقرآن بتفويض المناصب إلى ذوي الكفاءات وإن لم يكونوا شيوخاً وذوي اسنان، وهذا هو منطق العقل أيضاً.

وكأنّ رسول الله (ص) باستخلاف عتّاب وأمثاله كان يريد تمهيد الأمر لاستخلافه علياً (ع) من بعده بأمر الله تعالى.

عروة بن مسعود

وقيل: إنّ رسول الله (ص) لما انصرف عنهم من الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام.

فقال له رسول الله (ص): إنهم قاتلوك، وعرف رسول الله (ص) أنّ فيهم نخوة الإمتناع الذي كان منهم.

فقال له عروة: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبصارهم، وكان فيهم كذلك محبباً مجاباً مطاعاً.

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام ورجا أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف عليهم على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله.

فقيل له: ما ترى في دمك؟

فقال: كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إليَّ، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله (ص) قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم.

فقال رسول الله (ص): مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه.

إسلام ثقيف

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لاطاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع؟

فائتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله (ص) رجلاً كما أرسلوا عروة، فكلموا عبديا ليل بن عمرو بن عمير- وكان في سن عروة بن مسعود - وعرضوا ذلك عليه، فأبى أن يفعل، وخشي أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً، فأجمعوا أن يرسلوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك فيكونون ستة، فبعثوا كما أراد.

ولما قدموا ضرب رسول الله (ص) قبة عليهم في ناحية مسجده.

وقيل: كان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله(ص) حتى كتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي يكتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله (ص) حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم.

وقد كانوا فيما سألوا رسول الله (ص) أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله (ص) ذلك، فما برحوا يسألونه سنة سنة وهو يأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، وإنما يريدون في ذلك - على ما قيل - أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله (ص)، وقد كانوا سألوه أيضاً أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم.

فقال رسول الله (ص): أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا، فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه.

فقالوا: يا محمد فسنؤتكها.

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله (ص) كتابهم أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنّاً، وذلك: لأنه كان أحرصهم على التفقّه في الدين وفي الإسلام.

فلما فرغوا من أمرهم وتوجّهوا إلى بلادهم راجعين بعث معهم رسول الله(ص) من يهدم لهم صنمهم، فهدمه دون حدوث شيء مما كانوا يزعمونه، فوقفوا عند ذلك على سخافة ما كانوا يعتقدونه وخرافته.

مع لامية كعب بن زهير

ولما رجع رسول الله (ص) إلى المدينة كتب بجير بن زهير، إلى أخيه كعب بن زهير، وزهير هذا هو زهير بن أبي سلمى أحد شعراء الجاهلية، وصاحب إحدى المعلّقات السبع التي كانت من مفاخرهم، وقد نصبوها في الكعبة حتى قُبيل نزول القرآن الحكيم، وقد مات زهير وخلّف من بعده ابنين:

أحدهما: بجير وكان قد أسلم وشهد مع رسول الله (ص) فتح مكة وغزوة حنين والطائف.

والآخر: كعب وكان شاعراً يهجو في شعره رسول الله (ص) ولم يكن أسلم بعد.

فلما عاد بجير مع رسول الله (ص) والمسلمين إلى المدينة، كتب إلى أخيه شفقةً منه عليه ونصيحةً له: يا كعب إن كانت لك في نفسك حاجة، فطِر إلى رسول الله (ص) فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً.

فلما وصل الكتاب إلى كعب خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبين ذلك الرجل معرفة وصداقة، فغدا به إلى مسجد رسول الله(ص) وهو يتهيّأ لصلاة الصبح.

فصلّى كعب مع رسول الله (ص) صلاة الصبح لأوّل مرّة، وبعد السلام أشار له الرجل إلى رسول الله (ص) وقال: هذا رسول الله (ص) فقم إليه واستأمنه.

فقام كعب إلى رسول الله (ص) حتى جلس إليه فوضع يده في يده وقال: يا رسول الله إنّ كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟

قال رسول الله (ص): نعم.

قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير، ثم قام وأنشد قصيدته اللامية المشهورة التي كان قد أنشأها من قبل، والتي قال في مطلعها:

باتت سعاد فقلبي اليوم متبولُ متيّم إثرها لم يغد مكبولُ

إلى أن قال:

كل ابن أُنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

نبئت أنّ رسول الله (ص) أوعدني والعفو عند رسول الله (ص) مأمول

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لاتأخذنيّ بأقوال الوشاة ولم أُذنب ولو كثرت فيَّ الأقاويل

إلى أن قال:

ان الرسول لنور يستضاء به مهنّد من سيوف الله مسلول

إلى آخر الأشعار.

فلما فرغ كعب من إنشاد قصيدته على مسامع رسول الله (ص) والمسلمين، كساه رسول الله (ص) بردة كانت عليه.

ويقال: انه لما كان زمن معاوية، ومعاوية كان يحاول إضفاء الشرعية على حكومته بعث إلى كعب من يقول له: بعنا بُردة رسول الله (ص) بعشرة آلاف.

فقال: ما كنت لأُوثر بثوب رسول الله (ص) أحداً.

فلمّا مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً وأخذها منهم، وتوارثها من بعده الأمويّون واحداً بعد واحد، ثم انتقلت منهم إلى العباسيين.

جباية الزكوات

ولما دخلت سنة تسع بعث رسول الله (ص) المصدّقين يأخذون الصدقات من الأعراب.

وقيل: انه لما رأى رسول الله (ص) هلال المحرم سنة تسع بعث المصّدقين يصدقون الأعراب:

فبعث (ص) عيينة بن حصن إلى بني تميم، كما وبعث يزيد ابن الحصين إلى أسلم وغفار، وبعث رافع بن مكيث إلى جهينة، وبعث عمرو بن العاص إلى فزارة، وبعث الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب، وبعث بشير بن سفيان إلى بني كعب.

وبعث ابن اللتبية الأزدي إلى بني ذبيان.

هذا وقد أمرهم رسول الله (ص) أن يأخذوا العفو منهم ويتوّقوا كرائم أموالهم. وبعث المهاجر بن أُمية إلى صنعاء.

وكذا بعث (ص) زياد بن لبيد إلى حضرموت، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة.

وفرّق صدقات بني سعد على رجلين: فبعث الزبرقان ابن بدر على ناحية، وقيس بن عاصم على ناحية.

وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين. وبعث علياً (ع) إلى نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم.

سرية الفزاري إلى بني تميم

ثم ان بعض القبائل رغم تحقق النصر الكبير للمسلمين ودخول الناس في دين الله أفواجاً بقوا على شركهم وأصرّوا على عنادهم ومحاربتهم للمسلمين، ولجّوا في صدهم عن سبيل الله وقطع الطريق على الآمنين، ولأجل دفع شرّهم وفسادهم بعث رسول الله (ص) بعوثاً وسرايا:

منها: سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم، وذلك في المحرم من هذه السنة في خمسين فارساً ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم في صحراء، وقد سرحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولّوا فأخذ منهم أحد عشر رجلاً وعشرين امرأة وثلاثين صبياً، فساقهم إلى المدينة، فنزلوا في دار رملة بنت الحارث.

فقدم فيهم عدة من رؤسائهم: عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورياح بن الحارث، فلما رأوا نساءهم وذراريهم بكوا إليهم.

فعجلوا فجاءوا إلى باب النبي (ص) فنادوه: يا محمد إخرج إلينا لنفاخرك ونشاعرك، فنزل فيهم: (إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) ([٢٩]). الآية.

فخرج إليهم رسول الله (ص) فأقام بلال الصلاة وتعلّقوا برسول الله (ص) يكلّمونه فوقف معهم، ثم مضى فصلّى الظهر، ثم جلس في صحن المسجد، فقدّموا عطارد بن حاجب فتكلّم وخطب.

عندها أمر (ص) ثابت بن قيس بن شماس فأجابهم فغلبهم.

---

[٢٩] – الحجرات: ٤.

فقام بعد ذلك الزبرقان شاعر بني تميم فأنشد مفاخراً فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم عند النهاب وفضل العز يُتّبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم من كل أرض هوياً ثم نصطنع
فننحر الكوم عبطاً في أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم إلا استقادوا وكاد الرأس يقتطع
فمن يفاخرنا في ذاك يعرفنا فيرجع القول والأخبار تستمع
إنا أبينا ولم يأب لنا أحد إنّا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان حسان غائباً فبعث إليه رسول الله (ص).

قال حسان: جاءني رسول رسول الله (ص) فأخبرني أنه إنما دعاني لأُجيب شاعر بني تميم، فخرجت إلى رسول الله (ص) مسرعاً.

مع شاعر الرسول (ص):

قال شاعر الرسول (ص) حسان بن ثابت: فلما انتهيت إلى رسول الله (ص) وقام شاعر القوم فقال ما قال، قال لي رسول الله (ص): قم يا حسّان فأجب الرجل، فقمت وقلت:

ان الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنّة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
لا يبخلون على جار بفضلهم ولا يمسهم من مطمع طبع
إذا نصبنا لحي لم ندبّ لهم كما يدبّ إلى الوحشية الذرع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها اذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أُصيبوا فلا خور ولا هلع

كأنهم في الوغى والموت مكتنع أُسدٌ بحَلية في أرساغها فدع
خذ منهمُ ما أتوا عفوا إذا غضبوا ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم فاترك عداوتهم شراً يخاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تقرّقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتي قلب يوازره فيما أحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ان جد بالناس جد القول أو شمعوا

فلمّا فرغ حسان قال الأقرب بن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله (ص) فأحسن جوائزهم وردّ عليهم نساءهم وأبناءهم.

سرية ابن عامر إلى تبالة

وبعث رسول الله (ص) قطبة بن عامر في عشرين رجلاً إلى حي من خثعم بناحية تبالة كانوا يستعدّون للإغارة على المدينة، وأمره أن يشن الغارة عليهم.

فخرجوا على عشرة أبعرة فاعتقبوها فشنوا الغارة عليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين، وقتل قطبة بن عامر من قتل وانهزم الباقون، فساقوا النعم والشاء إلى المدينة.

ثم ان القوم اجتمعوا وركبوا في آثارهم، فلما اقتربوا منهم أرسل الله سيلاً عظيماً حال بينهم وبين المسلمين فساقوا النعم والشاء وهم ينظرون لا يستطيعون أن يعبروا إليهم.

سرية الضحاك إلى بني كلاب

وفي ربيع الأول سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة، بعث رسول الله (ص) جيشاً إلى بني كلاب كانوا يريدون الزحف على المسلمين، وجعل عليهم الضحاك بن سفيان بن عوف ومعهم الأصيد بن سلمة، فلقوهم بالرخوخ، فدعوهم إلى الإسلام، فأبوا، فقاتلوهم فهزموهم، فلحق الأصيد أباه سلمة وسلمة على فرس له في غدير بالرخ، فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان، فسبّه وسبَّ دينه.

فلما رأى الأصيد انّ أباه يسبّ دينه ويتعرّض لعقيدته ضرب عرقوب فرس أبيه، ولما وقع

الفرس على عرقوبه ارتكز سلمة على الرمح في الماء ثم استمسك حتى جاءه أحد المسلمين فقتله.

وبهذا وأمثاله من التضحيات أثبت المسلمون الأوائل تصلبهم في عقيدتهم ومحافظتهم على دينهم.

سرية علقمة بن محرز المدلجي

وفي ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة بلغ رسول الله (ص) أنّ أُناساً من الحبشة يتعرّضون للمسلمين، ويريدون الفساد في الأرض والصدّ عن سبيل الله، فبعث إليهم علقمة بن محرز في ثلاثمائة فانتهى إلى جزيرة، وقد خاض إليهم البحر فهربوا منه، فرجع ومن معه من غير قتال.

سرية علي (ع) إلى طيّ

وفي هذه السنة وهي السنة التاسعة من الهجرة النبوية المباركة، بعث رسول الله (ص) علي بن أبي طالب (ع) في مائة وخمسين رجلاً من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى الفلس وهو صنم طيء ليهدمه.

فشنوا الغارة على موضع ذلك الصنم مع الفجر والناس نيام، حتى لا يقع تصادم أو قتال، وإذا وقع كان قليلاً، وكان كذلك، فقد استطاعوا هدم الصنم بلا مقاومة تذكر، سوى قليل ممّن تعرض لهم، فوقعوا في أسرهم، فاستاقوا معهم إلى المدينة ما وقع في أيديهم: من السبي والنعم والشاء، وفي السبي سفانة أُخت عدي بن حاتم، وكان عدي قد هرب إلى الشام، ووجدوا في خزانته ثلاثة أسياف وثلاثة أدراع.

وفي المنتقى: فكان فيما أخذ من خزانته . بعد تحطيم فلس . سيفان: أحدهما يسمّى مخذماً، والآخر رسوباً، وكان الحارث بن أبي شمر الغسّاني ملك غسّان قد أهداهما إلى فلس، فوهبهما رسول الله (ص) لعلي (ع).

واستعمل على السبي أبا قتادة، وعلى الماشية والرقة عبد الله بن عتيك، وقسّم الغنائم في الطريق، وعزل الصفي لرسول الله (ص)، ولم يقسّم السبي من آل حاتم حتى قدم بهم المدينة.

عدي يشرح قصته

قال عدي بن حاتم: ما كان رجل من العرب أشد كراهيّة لرسول الله (ص) منّي حين سمعت به، وكنت امرءاً شريفاً، وكنت نصرانيّاً أدين بدين النصارى من غير أن أُبدي ذلك لأحد، وكنت أسير في قومي بالمرباع بأن آخذ الربع من أرباحهم، وكنت في نفسي على دين، وكنت ملكاً في قومي.

فلما سمعت برسول الله (ص) كرهته، فقلت لغلام عربي لي . وكان راعياً لإبلي .: لا أباً لك، أعدَّ لي من إبلي أجمالاً ذللاً سماناً فاحبسها قريباً مني، فإذا سمعت بخيل محمد قد وطئت هذه البلاد فآذنّي، ففعل.

ثم انه أتاني ذات غداة فقال: يا عدي ما كنتَ صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات، فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد.

قال: فقلت: قرّب لي أجمالي، فقرّبها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت في نفسي: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الجوشية وهو جبل قرب أرض نجد، وقد تركت أُختي سفانة بنت حاتم الطائي في قومي.

فلما قدمت الشام أقمت بها، وخالفتني خيل رسول الله (ص) فأصابت ابنة حاتم فيمن أصابت، فقدم بها على رسول الله (ص) في سبايا من طيء، وقد بلغ رسول الله (ص) هربي إلى الشام.

سفانة تشرح قصتها

تقول سفانة: أقبلوا بنا إلى المدينة وأودعونا قريباً من المسجد، حتى إذا كان وقت الصلاة جاء رسول الله (ص) إلى الصلاة فمرّ بي فتعرضت له وقلت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمنَّ عليَّ، منَّ الله عليك.

فقال (ص): من وافدك؟

قلت: عدي بن حاتم.

قال (ص): الذي فرَّ من رسول الله؟

ثم مضى رسول الله (ص) وتركني، فلما كان من الغد مرّ بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس وتركني.

حتى إذا كان بعد الغد مرّ بي وقد يئست من إجابته، فأشار إليَّ علي (ع) وكان يمشي خلفه أنْ قومي فكلّميه.

فقمت إليه فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك.

فقال رسول الله (ص): قد فعلت، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني.

فأقمت حتى قدم ركب من بلّى أو قضاعة يريدون الشام، وفكّرتُ أن آتي أخي بالشام، فجئت رسول الله (ص) فأخبرته بقدوم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ.

فكساني (ص) وحملني وأعطاني نفقة، وساق معي من النعم والشاء ما شاء الله وقال (ص): لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه.

عند ذلك سألته أن يمنّ على من معي من السبي ففعل.

قال عدي: فوالله اني لقاعد في أهلي إذ أتتني أُختي بالشام.

فقلت: ابنة حاتم؟

قالت: نعم، ثم أخذت في ملامتي، فقالت: لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها، احتملت أهلك وولدك، وتركت بقيّة والدك عورتك.

فقلت لها: اي أُخيّة لا تقولي إلاّ خيراً، فوالله ما لي من عذر، لقد صنعت ما ذكرت.

ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها، وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟

قالت: أرى أن تلحق به سريعاً، فائته راغباً أو راهباً، فقد أتاه فلان فأصاب منه، وفلان فأصاب منه.

بين يدي رسول الله (ص)

قال عدي: فأتيت رسول الله (ص) في المدينة وهو جالس في المسجد.

فقال لما رآني: من الرجل؟

قلت: عدي بن حاتم، وقد جئت بغير أمان ولا كتاب.

فلما عرّفته نفسي قام (ص) فأخذ بيدي وانطلق بي إلى بيته، وفي الطريق لقيته امرأة عجوز كبيرة السن، ضعيفة الحال، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلّمه في حاجتها.

فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك.

ثم أخذ بيدي حتى أتى داره فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقدمها إليّ، فقال (ص): اجلس على هذه.

فقلت: بل أنت فاجلس عليها.

قال (ص): بل أنت.

فجلست عليها وجلس رسول الله (ص) على الأرض، فلما رأيت ذلك قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال (ص): ايه يا عدي بن حاتم، ألم تكن ركوسياً؟ (وهو دين بين الصابئة والنصرانية).

قلت: بلى.

قال (ص): أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟

قلت: بلى.

قال (ص): فإن ذلك لم يحل لك في دينك.

قلت: أجل والله. وعرفت ـ في نفسي ـ أنّه نبيّ مرسل يعرف ما يُجهل.

ثم قال (ص): يا عدي، لعلك إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه.

ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوّهم وقلّة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف.

ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل أن تفتح عليهم.

قال: فأسلمتُ.

فكان عدي يقول بعد ذلك: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، ووالله لتكوننّ. قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحجّ هذا البيت، ووالله لتكوننّ الثالثة، وليفيضنّ المال حتى لا يوجد من يأخذه.

عدي وقومه يُسلمون

وفي رواية: ان عدي قال: انتهيتُ إلى رسول الله (ص) وهو يقرأ من سورة البراءة هذه

الآية: (اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ...)([٣٠]).

فلما فرغ منها قلت له: إنا لسنا نعبدهم.

فقال (ص): أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه؟

فقلت: بلى.

قال (ص): فتلك عبادتهم، ثم قال: ما يضرّك أن يقال: لا إله إلاّ الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله؟

قلت: لا.

ثم تكلّم ساعة. ثم قال: إنما تقرّ أن يقال: الله أكبر، وهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟

قلت: لا.

قال (ص): فإنّ اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالّون.

قلت: فإنّي حنيف مسلم، فرأيت وجهه منبسطاً فرحاً.

قال: ثم أمر بي فأنزلت عند رجل من الأنصار، وجعلت أغشاه وآتيه طرفي النهار.

قال: فبينا أنا عنده إذ جاء قوم في ثياب من الصوف من هذه الثمار، فصلّى (ص) وقام فحث عليهم ثم قال:

أيها الناس ارضخوا من الفضل، ولو صاعاً، ولو بنصف صاع، ولو بقبضة، ولو ببعض قبضة، يقي أحدكم نفسه من جهنّم أو النار، ولو بتمرة، فإن أحدكم لاق الله وقائل له ما أقول لكم: ألم أجعل لك مالاً وولداً؟ فيقول: بلى. فيقول: أين ما قدمت لنفسك؟ فينظر قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ثم لا يجد شيئاً يقي به وجهه جهنّم، ليقِ أحدكم وجهه النار، ولو بشقّ تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيّبة، فإنّي لا أخاف عليكم الفاقة، فإن الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة أكثر ما تخاف على مطيتها السرق.

قال: فجعلت أقول في نفسي: فأين لصوص طي؟

وقد حسن إسلام عدي ودعى قومه الذين لم يسلموا إلى الإسلام، فأسلموا.

---

[٣٠] – التوبة: ٣١.

و(تبوك) موضع معروف من بلاد البلقاء، ذو قلعة حصينة رفيعة الجدران، عند عين ماء على منتصف طريق المدينة إلى دمشق.

وتسمّى هذه الغزوة: (الفاضحة) أيضاً، لافتضاح المنافقين فيها.

وكذا تسمّى: (غزوة العسرة) أيضاً، لأنهم كانوا قد خرجوا في قلة من الظهر، وشدّة من الحر، وجفاف من الماء، وجدب من البلاد، حتى كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان يلوك أحدهم التمر حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه فيمصّها، وهكذا، فسمّيت لذلك (غزوة العسرة).

وقيل: انهم كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء.

وكانت في شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة النبوية المباركة، وهي آخر غزوات رسول الله (ص).

وسببها: انّ نصارى العرب الذين كانوا يقطنون المناطق الحدودية للشام كانوا قد كتبوا إلى هرقل ملك الروم يطلبون منه أن يبعث إليهم من يجهّزهم لمحاربة هذا الرجل الذي خرج يدّعي النبوّة، ومن معه من المسلمين.

فبعث إليهم رجلاً من عظمائهم وجهّز معه أربعين ألفاً.

فبلغ ذلك النبي (ص) بسبب الصيافة التي يمترون في الصيف، حيث كانوا يقدمون إلى المدينة من الشام لبيع أمتعتهم، فأشاعوا في المدينة: ان الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول الله (ص) في عسكر عظيم، وانّ هرقل قد سار في جمعه وجنوده، وجلب معه غسان وجذام وفهراً وعاملة، وقد قدم عساكره البلقاء، ونزل هو حمص.

فأمر الله تعالى رسوله (ص) بحرب الروم وغزوهم، وأمر رسول الله (ص) أصحابه بالتهيّؤ إلى تبوك، كما وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة . وكانوا كلهم مسلمين في هذا الوقت . يستنفرهم.

وحضّ رسول الله (ص) من عنده من المسلمين على الجهاد، وأمر بعسكره فضرب في ثنية الوداع، وأمر أهل الجدة أن يعينوا من لا قوّة به، ومن كان عنده شيء أخرجه، وحملوا وقوّوا وحثوا على ذلك، وخطب رسول الله (ص) عليهم خطبة غرّاء، جاء فيها بعد الحمد لله والثناء عليه تعالى ما يلي:

من كلمات الرسول (ص)

(أيها الناس انّ أصدق الحديث كتاب الله، وأولى القول كلمة التقوى، وخير الملل ملّة إبراهيم، وخير السنن سنّة محمّد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأُمور عزائمها، وشرّ الأُمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف القتل قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتّبع، وشرّ العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت، وشرّ الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزراً، ومنهم من لا يذكر الله إلاّ هجراً، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما أُلقي في القلب اليقين، والارتياب من الكفر، والتباعد عمل الجاهلية، والغلول من جمر جهنّم، والسكر جمر النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الآثام، والنساء حبائل إبليس، والشباب شعبة من الجنون، وشرّ المكاسب كسب الربا، وشرّ المآكل أكل مال اليتيم ظلماً، والسعيد من وعظ بغيره، والشقيّ من شقي في بطن أُمّه، وانما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتيمه، وأربى الربا الكذب، وكل ما هو آتٍ قريب، وشنآن المؤمن فسق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن توكّل على الله كفاه، ومن صبر ظفر، ومن يعفُ يعفُ الله عنه، ومن كظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزيّة يعوّضه الله، ومن يتبع السمعة يسمّع الله به، ومن يصم يضاعف الله له، ومن يعصِ الله يعذّبه، اللهمّ اغفر لي ولأُمّتي، اللهمّ اغفر لي ولأُمّتي، أستغفر الله لي ولكم...).

قال الراوي: فرغب الناس في الجهاد لما سمعوا هذه الخطبة، وقدمت القبائل من العرب ممن استنفرهم، وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم.

وكان رسول الله (ص) قلّ ما يخرج في غزوة إلاّ كنّى عنها، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيّنها للناس لبعد الشقة وشدّة الزمان وكثرة العدوّ الذي يعمد له، ليتأهّب الناس لذلك أهبته. فأمر الناس بالجهاز وأخبر أنه يريد الروم.

مع الجدّ بن قيس

ثم ان رسول الله (ص) قال ذات يوم ـ وهو في جهازه ذلك ـ لرجل من بني سلمة يقال له (الجدّ بن قيس): يا أبا وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزوة؟

فقال: يا رسول الله أو تأذن لي أن أُقيم ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى ان رأيت بنات الأصفر أني لا أصبر.

فأعرض عنه رسول الله (ص) وأذن له، فأنزل الله تعالى على رسوله في ذلك:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ) ([31]).

ثم قال الجد بن قيس: أيطمع محمد انّ حرب الروم مثل حرب غيرهم؟! لا يرجع من هؤلاء أحد أبداً.

كما وقال لقومه: لا تنفروا في الحر زهادة في الجهاد، وشكاً في الحق، وإرجافاً بالرسول، فأنزل الله سبحانه: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا).

إلى قوله تعالى: (وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ) ([32]) ففضح الله الجدّ بن قيس وأصحابه.

وقيل: ان رهطاً من المنافقين كان يقول بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الاصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله لكأني بكم غداً مقرنين بالحبال، يقولون ذلك إرجافاً بالمؤمنين، فأرسل رسول الله (ص) إليهم عمار بن ياسر ينبّأهم بما قالوا، فانطلق إليهم عمار فنبأهم بقولهم، فأتوا رسول الله (ص) يعتذرون إليه وانتهوا عن مقالتهم.

هذا وقد نوى ابن أُبي أن يشترك في غزوة تبوك فضرب خيمته في معسكر المسلمين، لكنه عدل عن رأيه ساعة ارتحال المسلمين ورجع هو وأصحابه إلى المدينة وقد أضمر سوءاً، فغضّ عنه رسول الله (ص) ولم يعترضه بشيء.

---

[31] – التوبة: ٤٩.

[32] – التوبة: ٨١ ـ ٨٤.

الضعفاء

ثم إنّ رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله (ص)، وكانوا سبعة نفر.

فكان من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وكان قد شهد بدراً.

ومن بني حارثة: علبة بن زيد.

ومن بني مازن بن النجار: أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب.

ومن بني سلمة: عمرو بن غنمة.

ومن بني زريق: سلمة بن صخر.

ومن بني الغرّ: ناضر بن سارية السلمي.

ومن بني واقف: هرمي بن عمير.

هؤلاء السبعة جاءوا وهم يبكون، فاستحملوا رسول الله (ص) وكانوا أهل الحاجة، فقال (ص): لا أجد ما أحملكم عليه.

وقيل: انهم جاءوا وقالوا: يا رسول الله ليس بنا قوّة أن نخرج معك، فأنزل الله تعالى فيهم: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الّذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) إلى قوله سبحانه: (تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ) ([٣٣]).

وقد كان نفر من المسلمين أهل نيات وبصائر تخلفوا عن رسول الله (ص) من غير شك ولا ارتياب، ولكنهم قالوا: نلحق برسول الله (ص)، منهم: كعب بن مالك أخو بني سلمة، ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف، وهلال بن أُمية أخو بني واقف، وأبو خيثمة أخو بني سالم، وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم.

الإستخلاف وحديث المنزلة

فلما اجتمع لرسول الله (ص) الخيول ارتحل من ثنية الوداع، وذلك بعد أن استخلف علياً (ع) على المدينة، فإنّ جبرئيل كان قد أتاه وقال له: إنّ العليّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول لك: إمّا أن تخرج أنت ويقيم علي، أو تقيم أنت ويخرج علي.

---

[٣٣] – التوبة: ٩١ . ٩٢.

فلمّا خلّفه على المدينة وأمره بالإقامة فيهم، أرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً منه وتشؤماً به، فلما بلغ ذلك عليّاً (ع) أخذ سيفه وسلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله (ص) وهو نازل بالجرف.

فقال له رسول الله (ص) لما رآه مقبلاً: يا علي ألم أُخلّفك على المدينة؟

قال (ع): نعم يا رسول الله، ولكن زعم المنافقون انك انما خلفتني لأنك استثقلتني وتشأمت بي.

فقال (ص): كذب المنافقون يا علي، ولكنّي خلّفتك لما تركت ورائي، أما يكفيك انك جلدة ما بين عيني ونور بصري، وكالروح في بدني، فارجع فاخلفني، فإن المدينة لا تصلح إلاّ بي وبك، أفلا ترضى يا علي أن تكون أخي وأنا أخوك، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي، وأنت خليفتي في أُمّتي، وأنت وزيري وأخي في الدنيا والآخرة؟

فرجع علي (ع) إلى المدينة.

مع أبي خيثمة

ثم إنّ أبا خيثمة رجع. بعد أن سار رسول الله (ص) أياماً. إلى أهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائط قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت فيه ماءاً وهيّأت له فيه طعاماً.

فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: لا والله ما هذا بإنصاف، رسول الله (ص) في وهج الشمس ولفح الريح قد حمل السلاح يجاهد في سبيل الله، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيّأ وامرأتين حسناوين في ماله وعريشه مقيم! لا والله ما هذا بالنصف.

ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله (ص)، فهيّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدّم ناقته فشدّ عليها رحله، ثم خرج في طلب رسول الله (ص) حتى أدركه حين نزل تبوك.

وقد كان أدرك أبو خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله (ص) فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إنّ لي ذنباً فما عليك أن تتخلّف عني حتى آتي رسول الله (ص)، ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله (ص) وهو نازل

بتبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق.

فقال رسول الله (ص): كن أبا خيثمة.

فقالوا: يا رسول الله (ص) هو والله أبو خيثمة.

فلما أناخ أقبل فسلّم على رسول الله (ص) وأخبره خبره.

فقال له رسول الله (ص) خيراً، ودعا له بخير.ثم التحق الجمحي بهم أيضاً.

من علامات النبوّة

روى: انه نال رسول الله (ص) والناس معه لما ساروا يومهم إلى تبوك عطش شديد، كادت تنقطع له أعناق الرجال والخيل عطشاً، فدعا (ص) بركوة فصبّ فيها ماءاً قليلاً من إداوة كانت معه ووضع أصابعه عليها فنبع الماء من تحت أصابعه، فاستقوا وارتووا والعسكر ثلاثون ألف رجل سوى الخيل والإبل.

وروي: انه لما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله (ص)، فدعا الله لهم بأن يسقيهم، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء، فقيل لبعض المنافقين: ويحك هل بعد هذا شيء؟

قال: سحابة مارّة.

حتى إذا كان رسول الله (ص) ببعض الطريق ضلّت ناقته القصوى، فخرج أصحابه في طلبها، فقال عمارة بن حزم كالمستهزئ: يخبرنا محمد بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته!

فقال رسول الله (ص): إنّ رجلاً قال: يخبرنا محمد بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فاعلموا اني لا أعلم إلا ما علّمني الله، وقد دلّني الله عليها الآن، وهي في هذا الوادي من شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فرأوها كما وصف، فأخذوها وجاءوا بها إليه.

مواساة أبي ذر

ثم مضى رسول الله (ص) سائراً، فجعل يتخلّف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله تخلّف فلان. حتى قيل: يا رسول الله تخلّف أبو ذر وأبطأ به بعيره، وقد كان مدة تخلّف أبي ذر عن رسول الله (ص) ثلاثة أيام، وذلك ان جمله كان أعجف، وقد وقف عليه في بعض الطريق،

فلما أبطأ عليه تركه وأخذ متاعه وثيابه، فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله (ص) ماشياً.

ونزل رسول الله (ص) في بعض منازله، فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل، فقالوا: يا رسول الله إنّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحده.

فقال رسول الله (ص): كن أبا ذر.

فلما تأمّله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبوذر.

فقال رسول الله (ص): أدركوه بالماء فإنه عطشان.

فأدركوه بالماء، ووافى أبو ذر رسول الله (ص) ومعه اداوة فيها ماء، فقال له: يا أباذر معك ماء وعطشت؟

فقال: نعم يا رسول الله بأبي أنت وأُمّي، انتهيت إلى صخرة عليها ماء السماء فذقته فإذا هو عذب بارد، فقلت: لا أُشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله(ص).

فقال له رسول الله (ص): يا أبا ذر رحمك الله أنت المطرود عن حرمي بعدي لمحبّتك لأهل بيتي، تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، وتدخل الجنّة وحدك، يسعد بك قوم من أهل العراق، يتولّون غسلك وتجهيزك والصلاة عليك ودفنك، أُولئك رفقائي في جنّة الخلد التي وعد المتّقون.

أبو ذر في الربذة

وتحقّق كل ما قاله رسول الله (ص) في حقّ أبي ذر، فقد سيّره عثمان إلى الربذة، فمات فيها ابنه (ذر) غريباً، حيث لم يكن مع أبي ذر بالربذة أحد إلا امرأته وابنه ذر، وابنته ذرّة.

فلما مات ابنه ذر وقف على قبره وقال: رحمك الله ياذر، لقد كنت كريم الخلق، باراً بالوالدين، وما عليّ في موتك من غضاضة، وما بي إلى غير الله حاجة، وقد شغلني الإهتمام لك عن الإغتمام بك، ولولا هول المطلع لأحببت أن أكون مكانك، فليت شعري ما قالوا لك وما قلت لهم؟

ثم رفع يده نحو السماء وقال: اللهمّ انك فرضت لك عليه حقوقاً، وفرضت لي عليه حقوقاً، فإني قد وهبت له ما فرضت لي عليه من حقوقي، فهب له ما فرضت عليه من حقوقك، فإنك أولى بالحق والكرم منّي.

وكانت لأبي ذر غنيمات يعيش هو وعياله منها، فأصابها داء فماتت كلها، فأصاب أباذر وأهله وابنته الجوع، فماتت أهله.

فقالت ابنته: أصابنا الجوع وبقينا ثلاثة أيام لم نأكل شيئاً، فقال لي أبي: يابنيّة قومي بنا إلى الرمل نطلب القتّ وهو نبت له حبّ، فصرنا إلى الرمل فلم نجد شيئاً، فجمع أبي رملاً ووضع رأسه عليه ورأيت عينه قد انقلبت فبكيت وقلت: ياأبة كيف أصنع بك وأنا وحيدة؟

فقال: يا بنتي لا تخافي فإني إذا متُّ جاءك من أهل العراق من يكفيك أمري، فإنه أخبرني حبيبي رسول الله (ص) في غزوة تبوك فقال: (يا أبا ذر تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، وتدخل الجنّة وحدك، يسعد بك أقوام من أهل العراق، يتولّون غسلك وتجهيزك ودفنك) فإذا أنا متُّ فمدّي الكساء على وجهي، ثم اقعدي على طريق العراق، فإذا أقبل ركب فقومي إليهم وقولي: هذا أبو ذر صاحب رسول الله (ص) قد توفّي.

فلما عاين الموت قال: مرحباً بحبيب أتى على فاقة، لا أفلح من ندم، اللهمّ خنّقني خناقك، فوحقّك انك لتعلم انّي أُحب لقاءك.

فلما مات مددت الكساء عليه، ثم قعدت على طريق العراق، فجاء نفر فقلت لهم: يا معشر المسلمين هذا أبوذر صاحب رسول الله (ص) قد توفّي.

فنزلوا ومشوا يبكون، فجاءوا فغسّلوه وكفّنوه ودفنوه، وكان فيهم مالك الأشتر، فإنه قال: كفنته في حلّة كانت معي قيمتها أربعة آلاف درهم.

ثم لما دفنوه وقف الأشتر على قبره وقال: اللهمّ هذا أبو ذر صاحب رسول الله (ص) عَبَدَك في العابدين، وجاهد فيك المشركين، لم يغيّر ولم يبدّل، لكنه رأى منكراً فغيّره بلسانه وقلبه حتى جفي ونفي وحرم واحتقر، ثم مات وحيداً غريباً، اللهمّ فاقصم من حرمه، ونفاه من مهاجره وحرم رسولك (ص).

فقال من كان معه: آمين.

وقيل: انه لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة فأصابه بها قدَره لم يكن معه بها أحد إلاّ امرأته وغلامه. فأوصاهما أن غسّلاني وكفّناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول راكب يمرّ بكم فقولوا: هذا أبوذر صاحب رسول الله (ص)، فأعينونا على دفنه.

فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبدالله بن مسعود ومالك

الأشتر في رهط من أهل العراق عماراً، فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق، فقام إليهم الغلام فقال: هذا أبوذر صاحب رسول الله (ص) فأعينونا على دفنه، فاستهل عبدالله يبكي ويقول: صدق رسول الله (ص)، تمشي وحدك، وتموت وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدثهم عبدالله بن مسعود حديثه وما قال له رسول الله (ص) في مسيره إلى تبوك.

وقود جهنم

ومرّ رسول الله (ص) مع من كان معه في طريقه إلى تبوك بجبل يرشح الماء من أعلاه إلى أسفله من غير سيلان، فتعجّب القوم منه وقالوا: ما أعجب رشح هذا الجبل؟

فقال لهم رسول الله (ص): انه يبكي، فازداد تعجّبهم وقالوا: والجبل يبكي؟!

قال (ص): نعم، أتحبّون أن تعلموا ذلك؟

قالوا بتلهّف واشتياق: نعم نحبّ ذلك.

فالتفت رسول الله (ص) إلى الجبل وقال له وكأنّه يكلّم إنساناً: ممّ بكاؤك أيّها الجبل؟

فأجابه الجبل وقد سمعه الجماعة بلسان فصيح: يا رسول الله، مرّ بي عيسى بن مريم وهو يتلو: (ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ) ([٣٤]) فأنا أبكي من ذلك اليوم خوفاً أن أكون من تلك الحجارة.

فقال له رسول الله (ص): اسكن من بكائك، فإنّك لست منها، إنما تلك الحجارة الكبريت، فسكن الجبل وجفّ ذلك الرشح منه في الوقت حتى لم ير شيء من ذلك الرشح، ومن تلك الرطوبة التي كانت بعد ذلك.

في أرض تبوك

وقدم رسول الله (ص) تبوك في شعبان يوم الثلاثاء، وأقام بقية شعبان وأياماً من شهر رمضان المبارك، فكان مدّة إقامته بها قريباً من شهرين، ولما نزل رسول الله (ص) ومن معه بتبوك، واختلفت الرسل بينه وبين ملك الروم، طالت في ذلك أياماً حتى نفد الزاد والأكل، فشكوا نفاد زادهم إلى رسول الله (ص).

---

[٣٤] – التحريم: ٦.

فقال (ص):من كان معه شيء من الدقيق،أو التمر،أو السويق، فليأتني به.

فجاء أحد بكف دقيق، والآخر بكف تمر، والثالث بكف سويق، فبسط رداءه وجعل ذلك عليه ووضع يده الكريمة على كل واحد منها ثم قال: نادوا في الناس: من أراد الزاد فليأت، فأقبل الناس يأخذون الدقيق، والتمر، والسويق، حتى ملأوا جميع ما كان معهم من الأوعية، وذلك الدقيق والتمر والسويق على حاله لم ينقص من واحد منها شيء.

مع صاحب أيلة

وأتى رسول الله (ص) وهو بتبوك يُحنة بن رؤبة، صاحب أيله، وأيله بالفتح مدينة على الشريط الحدودي لبلاد الشام فصالحه على الجزية، وكتب له رسول الله (ص) كتاباً بذلك واشترط عليهم قري من مرّ بهم من المسلمين، والكتاب عندهم.

وكذلك كتب لأهل جرباء، وأهل أذرح، وأهل مقنا، كتب لكل منهم كتاباً مستقلاً وصالحهم على الجزية وهي أيضاً من البلاد الواقعة على الشريط الحدودي لبلاد الشام.

سرية أبي عبيدة إلى جذام

وبعث رسول الله (ص) وهو بتبوك أباعبيدة بن الجراح إلى جمع من جذام، مع واحد منهم يقال له: زنباع بن روح الجذامي، فأصاب منهم طرفاً، وأصاب منهم سبايا، وبذلك قضى على غائلتهم وأمن المسلمون جانبهم.

سرية سعد إلى بني سليم

كما وبعث رسول الله (ص) وهو بتبوك أيضاً سعد بن عبادة إلى ناس من بني سليم وجموع من بلّى، فلما قارب القوم وأحسّوا به ولّوا هاربين وأقلعوا من طغيانهم وتمرّدهم.

سرية خالد إلى الاكيدر

وبعث رسول الله (ص) أيضاً وهو بتبوك خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين فارساً، وقيل: انه بعث الزبير وسماك بن خرشة في عشرين من المسلمين، إلى أكيدر بن عبدالملك من كندة، وكان ملكاً عليها، وكان نصرانياً وحاكماً على منطقة دومة الجندل، ودومة الجندل:

حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيء، ودومة هي من قريات من وادي القرى، وذكر أنّ عليها حصناً حصيناً يقال له مارد وهو حصن أكيدر الملك.

وأكيدر هذا كان يهدّد رسول الله (ص) بأنه سيقصده ويقتل أصحابه ويبيد خضراءهم، وكان المنافقون يهدّدون المسلمين بهم وبسطوهم عليهم.

ولذلك قال خالد: يا رسول الله كيف لي به وسط بلاد كلب وأنمار وما هو عليه من العدّة والعدد وأنا في أُناس يسير؟

فقال رسول الله (ص): لعلّ الله يكفيكه بصيد البقر فتأخذه.

فخرج خالد ومن معه فلما بلغ قريباً من حصنه بمنظر للعين وكانت ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له في الحصن ومعه امرأتين له يشرب الخمر معهما، إذ أقبلت البقر تنتطح وتحك بقرونها باب الحصن، فأشرفت امرأتاه على باب الحصن وقالتا لما رأتا البقر تحكّ بقرنها: هل رأيت مثل هذا قط؟

قال: لا والله.

قالتا: فمن يترك هذه الليلة؟

قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأُسرج له وركب معه نفر من أهل بيته ومعه أخوه حسّان، فخرجوا من حصنهم فطلبوها.

الاكيدر في الأسر

فلما خرج الاكيدر ونفر معه يطلبون الصيد، تلقّتهم خيل رسول الله (ص)، فاستأسر أكيدر وامتنع حسّان فقاتل فقتل، وهرب من كان معه ودخل الحصن، وأغلقوا الباب دونهم، وكان على اكيدر قباء مخوَّص بالذهب، فقال: لي إليكم حاجة.

فقالوا: وما هي؟

قال: تأخذون قبائي هذا مع سيفي ومنطقتي وتبعثون بها إليه (ص)، ثم تحملونني إليه في قميصي لئلا يراني في هذا الزيّ، بل يراني في زيّ التواضع، فلعلّه أن يرحمني.

ففعلوا ذلك، فلما وصل المبعوث بقباء اكيدر إلى رسول الله (ص) جعل المسلمون يلمسونه ويتعجّبون منه ويقولون: هذا من حليّ الجنّة.

فقال رسول الله (ص): أتعجبون من هذا؟ لمنديل سعد بن معاذ في الجنّة خير من هذا.

قالوا: وذلك خير من هذا؟

قال (ص): لخيط منه في الجنّة أفضل من ملء الأرض إلى السماء مثل هذا الذهب.

ثم بعد أن بعث خالد بقباء اكيدر وسيفه ومنطقته إلى رسول الله (ص) أقبل بأكيدر وسار معه أصحابه إلى باب الحصن، حتى إذا وصله سألهم أن يفتحوه له، فأبوا.

فقال له اكيدر: أرسلني أفتح الباب.

فأخذ عليه موثقاً وأرسله، فدخل وفتح الباب حتى دخل خالد وأصحابه، وأعطاه ثمانمائة رأس، وألفي بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وخمسمائة سيف.

فقبل ذلك منه وأقبل به إلى رسول الله (ص) فحقن (ص) دمه وصالحه على الجزية، وعلى أن يضيّفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام، وأن يزوّدوهم إلى المرحلة التي تليها، ثم خلّى سبيله بعد أن كتب له كتاباً بإمارته على قومه.

عبدالله ذو البجادين

قال عبدالله بن مسعود: قمت في جوف ليلة من الليالي ونحن في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله (ص) وجماعة، وإذا (عبدالله ذو البجادين) قد مات، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله (ص) في حفرته.

فلما هيّأه لشقه قال: اللهمّ إني أمسيت راضياً عنه فارض عنه، وكان يقول عبدالله بن مسعود: ياليتني كنت صاحب الحفرة.

وانما سمي (ذو البجادين) لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره، والبجاد: الكساء الغليظ، فهرب منهم إلى رسول الله (ص)، فلما كان قريباً منه شق بجاده بإثنتين فاتّزر بواحدة واشتمل بالأُخرى، ثم أتى رسول الله (ص) فقيل له (ذو البجادين).

المفاوضات وفوائدها

ثم انه كانت نتيجة اختلاف الرسل بين رسول الله (ص) وبين هرقل ملك الروم، أن بعث هرقل رجلاً من خاصته ومورد ثقته وكان من غسّان فجاء لينظر إلى رسول الله (ص) وصفته وعلاماته، وإلى خاتم النبوّة بين كتفيه، وسأل فإذا هو لا يقبل الصدقة، فوعى أشياء من

صفات النبي (ص) ثم انصرف إلى هرقل فذكرها له.

فدعا هرقل قومه إلى التصديق به، فأبوا عليه حتى خافهم على ملكه فتركهم، ولكنه امتنع من قتال النبي (ص)، وكان الله قد أخبر نبيّه من قبل بأنه لا يحتاج في هذه الغزوة إلى حرب، ولا يبتلى بقتال عدوّ، وان الأُمور تنقاد له بغير سيف، وانه يرجع منها بامتحان أصحابه واختبارهم.

ولذلك عاد رسول الله (ص) من غير قتال، وذلك بعد أن أرعب جانب العدوّ الرومي، وأبرم معاهدات مع البلاد الحدودية للشام وصالحهم على الجزية، وعلى عدم التعرّض ممّا مهّد الطريق بعدها كما مهدت حرب مؤتة من قبل الطريق لفتح بلاد الشام ودخول الناس في الإسلام.

وقيل: انه شاور رسول الله (ص) أصحابه في التقدّم والمسير إليهم، فقال بعضهم: إن كنت أمرت بالمسير فسر.

فقال رسول الله (ص): لو أمرت ما استشرتكم فيه.

فقالوا: يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت وأفزعهم دنوّك، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك في ذلك أمراً عظيماً. فانصرف رسول الله (ص) إلى المدينة، ولم يلق كيداً.

وكان في الطريق ماء يخرج من وشل يروي الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له: (وادي المشقق)، فقال رسول الله (ص): من سبقنا إلى الماء فلا يسقينّ منه شيئاً حتى نأتيه، فسبقه إليه نفر من المنافقين، فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله(ص) وقف عليه فلم ير فيه شيئاً.

فقال (ص): من سبقنا إلى هذا؟

فقيل: يا رسول الله فلان وفلان.

فقال (ص): ألم أنهكم أن تستقوا منه شيئاً حتى آتيه؟

ثم نزل ووضع يده تحت الوشل، فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب، ثم نضحه به ومسحه بيده ودعا بما شاء الله أن يدعو، فانخرق من الماء وإن له حساً كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه.

فقال رسول الله (ص): لئن بقيتم أو بقي منكم لتسمعنّ بهذا الطريق وقد أخصب ما

بينه وما خلفه.

المتآمرون على النبي (ص) وخليفته (ع)

وفي مرجع رسول الله (ص) من تبوك، همّ المنافقون الذين كانوا مع رسول الله (ص) في تبوك بالغدر به وذلك في ليلة العقبة فعصمه الله منهم، كما وهمّ من بقي من مردة المنافقين بالمدينة في مؤامرة مشتركة بقتل علي (ع)، فما قدروا على مغالبة ربّهم، وقد حملهم على ذلك حسدهم لرسول الله (ص) في علي (ع).

فعن حذيفة قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله (ص) أقود به، وعمّار يسوق الناقة، ومرّة أنا أسوق وعمّار يقوده، حتى إذا كنّا بالعقبة، فإذا أنا بسبعة عشر راكباً قد اعترضوه فيها.

قال: فصرخ بهم رسول الله (ص) وجعل عليهم لعنة الله، فولّوا مدبرين.

فقال لنا رسول الله (ص): هل عرفتم القوم؟

قلنا: يا رسول الله قد كانوا متلثّمين، ولكن عرفناهم برواحلهم.

قال (ص): هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، ثم قال (ص): هل تدرون ما أرادوا؟

قلنا: لا.

قال (ص): هذا جبرئيل نزل عليّ يخبرني بأنهم أرادوا أن ينفروا بي في العقبة فيقتلوني بها.

قلنا: يا رسول الله ألا تبعث لعشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟

قال (ص): لا، أكره أن تتحدّث العرب أنَّ محمداً قاتل بالقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم.

ثم قال (ص): اللهمّ ارمهم بالدبيلة.

قلنا: يا رسول الله وما الدبيلة؟

قال (ص): شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيورده النار وساءت مصيراً.

القرآن يفضح المتآمرين

ثم أخبر رسول الله (ص) حذيفة وعماراً بأسمائهم وأعدادهم، فكانوا اثني عشر رجلاً من بني أُمية، وخمسة من غيرهم، وكلهم من قريش، وما همّوا به، وأمرهما أن يكتما عليهم، وكان

حذيفة يقال له: صاحب السرّ الذي لا يعلمه غيره.

وفيهم أنزل تعالى: (يحذر المنافقون أن تُنزَّل عليهم سورة تنبّئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إنّ الله مخرج ما تحذرون ولئن سألتهم ليقولنّ انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون).

إلى قوله تعالى: (وَما لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) ([٣٥]).

وذلك ان القرآن مازال ينزل بكلام المنافقين حتى تركوا الكلام واقتصروا بالحواجب يغمزون. فقال بعضهم: ما تأمنون أن تسمّوا في القرآن فتفتضحوا أنتم وأعقابكم؟ هذه عقبة بين أيدينا لو رميناه منها لتقطع، فقعدوا على العقبة ويقال لها: عقبة ذي فتق، وائتمروا بينهم ليقتلوه.

فقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: انما كنا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن لنقتلنّه، فحفظ الله رسوله من كيدهم، وأنزل فيهم تلك الآيات.

مع مسجد ضرار

ثم أقبل رسول الله (ص) من تبوك، فلمّا نزل بذي أوان وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، جاءه خبر أبي عامر ومسجد الضرار من السماء.

وكان من قصّة أبي عامر الراهب الذي سماه رسول الله (ص) بالفاسق لتآمره على الإسلام والمسلمين وتجسّسه عليهم انه كتب إلى من كان في المدينة من المنافقين كتاباً جاء فيه: ابنوا مسجدكم واستعدّوا بما استطعتم من قوّة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم، فأُخرج محمداً وأصحابه من المدينة.

فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا رسول الله (ص) فقالوا: إنّا فرغنا من بناء مسجدنا، وقد بنيناه لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، فنحبّ أن تصلّي لنا فيه وتدعو بالبركة.

فقال رسول الله (ص): إني على جناح سفر، وكان يتجهّز إلى تبوك.

فانصرفوا، حتى إذا قدم رسول الله (ص) من تبوك غانماً ظافراً، ونزل بذي أوان، أتوه ثانية

---

[٣٥] – التوبة: ٦٤ . ٧٤.

وسألوه اتيان مسجدهم، فأنزل الله تعالى عليه: (والّذين اتَّخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل) إلى قوله سبحانه: (لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ([٣٦]).

فبعث إليه رسول الله (ص) بأمر من الله تعالى من يهدمه ويحرقه ويتّخذه كناسة تلقى فيه الجيف، ففعلوا ذلك، وتفرّق عنه أهله، وهم يتوقّعون مجيء أبي عامر، لكنه مات قبل أن يبلغ ملك الروم.

المتطهّرون والثناء عليهم

ولما كان فيما نزل على رسول الله (ص) بشأن مسجد ضرار وذمّه، ومدح مسجد قباء وأهله قوله تعالى: (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) ([٣٧]).

قال رسول الله (ص) لأهل قباء: ماذا تفعلون في طهركم، فإنّ الله تعالى قد أحسن الثناء عليكم؟

فقالوا: يا رسول الله إنا لا نكتفي بالإستنجاء بالأحجار، بل نغسل أثر الغائط ونتطهَّر منه ومن البول بالماء.

فقال رسول الله (ص): لقد أنزل الله تعالى فيكم: ـ على رواية ـ (والله يحبّ المطّهّرين).

وبهذا وأمثاله من التعليمات السماوية حافظ الإسلام على أُصول الصحّة، وأساس النظافة ورعاية آدابها بالنسبة إلى الفرد والمجتمع.

أول من يزوره الرسول (ص)

ثم انّ رسول الله (ص) قدم المدينة، وكان إذا قدم من سفر استقبل بالحسن والحسين (عليهما السلام) فأخذهما إليه وضمَّهما إلى صدره، وحفّ المسلمون به حتى يدخل أول ما يدخل على ابنته فاطمة الزهراء (ع) احتفاءاً بها، وتقديراً لها، وإظهاراً لما لها من الفضل عند

---

[٣٦] – التوبة: ١٠٧ ـ ١١٠.

[٣٧] – التوبة: ١٠٨.

الله تعالى ورسوله (ص)، والمسلمون يقعدون بالباب، فإذا خرج من عندها مشوا معه، فإذا دخل منزله تفرَّقوا عنه وودَّعوه إلى منازلهم.

هذه طابة

وعن أبي حميد الساعدي قال: أقبلنا مع رسول الله (ص) من غزوة تبوك، حتى إذا أشرفنا على المدينة، ألقى بنظرة إليها وقال (ص): هذه طابة، وهذا أُحد، جبل يحبّنا ونحبّه.

وفيه اشارة إلى مدح المدينة وأهلها وإلى بناء أمره على المحبّة والرحمة لكلّ شيء.

مع الشركاء الغائبين

ثم لما دنا رسول الله (ص) من المدينة التفت إلى أصحابه وقال: إنّ بالمدينة لأقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من وادٍ، إلا كانوا معكم فيه.

قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟

قال (ص): نعم، وهم بالمدينة حبسهم العذر.

وبهذا أشار رسول الله (ص) إلى انّ النية الحسنة لمن حبسه العذر الشرعي، لها الأثر الكبير في تقرير مصير الإنسان وانّها تشرك أصحابها في إحسان المحسنين، وتكسبهم من الأجر والثواب ما للمجاهدين عند الله من الأجر العظيم.

المتخلّفون عن تبوك

وقد تخلّف عن رسول الله (ص) قوم من المنافقين، وقوم من المؤمنين مستبصرين لم يعثر عليهم في نفاق، منهم: كعب بن مالك الشاعر، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية الواقفي.

فلما تاب الله عليهم قال كعب: ما كنت قط أقوى مني في ذلك الوقت الذي خرج رسول الله (ص) إلى تبوك، وما اجتمعت لي راحلتان قطّ إلاّ في ذلك اليوم، فكنت أقول: أخرج غداً، أخرج بعد غد، فإنّي القوي وتوانيت، وبقيت بعد خروج النبي (ص) أياماً أدخل السوق ولا أقضي حاجة، فلقيت هلال بن أُمية، ومرارة بن الربيع، وقد كانا تخلّفا أيضاً، فتوافقنا أن نبكّر إلى السوق، فلم تقض لنا حاجة، فما زلنا نقول: نخرج غداً وبعد غد، حتى بلغنا إقبال رسول الله (ص) فندمنا.

فلما وافى رسول الله (ص) استقبلناه نهنّيه بالسلامة، فسلّمنا عليه، فلم يردّ علينا السلام، وأعرض عنّا، وسلّمنا على إخواننا فلم يردّوا علينا السلام، فبلغ ذلك إلى أهلينا فقطعوا كلامهم معنا، وكنا نحضر المسجد فلا يسلّم علينا أحد ولا يكلّمنا.

قصة المتخلفين

وقيل: انّ كعب بن مالك قال: ما تخلّفت عن رسول الله (ص) في غزوة غزاها قط، غير أني كنت قد تخلّفت عنه في غزوة بدر، وكان في غزوة بدر لم يُعاقب أحد تخلّف عنها، وذلك أنّ رسول الله (ص) إنما خرج يريد عير قريش، فجمع الله بينه وبين عدوّه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله (ص) العقبة، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر أذكر في الناس منها، وكان من خبري حين تخلّفت عنه في غزوة تبوك اني لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت منه تلك الغزوة، والله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة، وكان رسول الله (ص) قلّ ما يريد غزوة يغزوها إلاّ ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله (ص) في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلا للناس أمرهم ليتأهّبوا لذلك أهبته، وأخبرهم بوجهه الذي يريده، والمسلمون مع رسول الله (ص) كثير.

قال: وغزا رسول الله (ص) تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وجعلت أغدو لأتجهّز معه فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إن أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر بالناس الجد، وأصبح رسول الله (ص) غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً.

فقلت: أتجهّز بعد يوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهّز فرجعت فلم أقض شيئاً، ثم غدوت ورجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت ولم أفعل، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله (ص) فطفت فيهم يحزنني أن لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه بالنفاق، أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله (ص) حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟

فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفيه.

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلاّ خيراً، فسكت رسول الله (ص).

فلما بلغني أنّ رسول الله (ص) توجّه قافلاً حضرني همّي وطفقت أُفكّر كيف أُقدّم عذري لرسول الله (ص) وأُوجّه له تخلّفي عنه، فلم أر شيئاً أحسن من الصدق، فأجمعت أن أُصدقه.

قال: وأصبح رسول الله (ص) قادماً إلى المدينة، وكان إذا قدم من سفر جاء إلى المسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل رسول الله (ص) علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فسلّمت عليه، فلما سلمت عليه تبسّم تبسّم المغضب ثم قال (ص): تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال (ص): ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟

فقلت: بلى يا رسول الله ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، وما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت.

فقال رسول الله (ص): أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.

فقمت وسألت رجالاً من بني سلمة: هل لقي هذا معي أحد؟

قالوا: نعم رجلان قالوا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك.

فقلت: من هما؟

قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أُمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدر فيهما أُسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، والتقيت بهما فكنتُ لهما ثالثاً.

هذا وكان قد نهى رسول الله (ص) المسلمين عن كلامنا فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف.

توبة المخلّفين الثلاثة

قال كعب: فلما رأينا ما حلّ بنا قلنا: ما يقعدنا بالمدينة ولا يكلّمنا رسول الله (ص) ولا إخواننا، ولا أهلونا؟ فهلمّوا نخرج إلى هذا الجبل فنقيم فيه حتى يتوب الله علينا أو نموت.

فخرجوا إلى ذناب جبل بالمدينة، فكانوا يصومون النهار ويحيون الليل، وكان أهلوهم يأتونهم بالطعام فيضعونه في ناحية ثم يولّون عنهم ولا يكلّمونهم، فبقوا على هذه الحالة أياماً كثيرة يبكون بالليل والنهار، ويدعون الله أن يغفر لهم.

فلما طال عليهم الأمد قال لهم كعب: يا قوم قد سخط الله علينا، ورسوله قد سخط علينا، وإخواننا قد سخطوا علينا، وأهلونا قد سخطوا علينا، فلا يكلّمنا أحد، فلماذا لا يسخط بعضنا على بعض؟

فتفرّقوا في الجبل وحلفوا أن لا يكلّم أحد صاحبه حتى يموت أو يتوب الله عليه، فبقوا على هذه الحالة ثلاثة أيام، كل واحد منهم في ناحية من الجبل، لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلّمه.

فلما كان في الليلة الثالثة ورسول الله (ص) في بيت أُمّ سلمة، نزلت توبتهم على رسول الله (ص) لما عرف الله من صدق نيّاتهم، وأنزل فيهم: (وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) ([٣٨]).

فأصبح المسلمون يبتدرونهم ويبشّرونهم.

قال كعب: فجئتُ إلى رسول الله (ص) وهو في المسجد، وكان إذا سرّ يستبشر كأن وجهه فلقة قمر، فقال لي ووجهه يشرق سروراً: أبشر بخير يومٍ طلع عليك شرفه منذ ولدتك أُمّك.

قال كعب: فقلت له: أمن عند الله أم عندك يا رسول الله؟

فقال (ص): من عند الله. وتصدّق كعب بثلث ماله شكراً لله على توبته.

وفي رواية: انهم انطلقوا لما تاب الله عليهم فجاءوا بأموالهم إلى رسول الله (ص) وقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلّفتنا عنك، فخذها وتصدّق بها عنّا.

فقال (ص): ما أُمرت فيها بأمر، فنزل: (خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً) ([٣٩]) الآيات.

المخلّفون وتوبتهم

وقيل: ان كعب بن مالك قال: لما نهى رسول الله (ص) عن كلامنا.. فما كلّمنا أحد حتى تسوّرت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليّ، فسلّمت عليه، فوالله ما ردّ

---

[٣٨] – التوبة: ١١٨.

[٣٩] – التوبة: ١٠٣.

عليّ السلام.

فقلت: يا أبا قتادة أُنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتولّيت حتى تسوّرت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟

فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسّان، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: (أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك).

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجل من أهل الشرك، فتيممت بها التنور فسجرته بها.

حتى إذا مضت أيام وكملت خمسون ليلة آذن رسول الله (ص) بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشّرون، فانطلقت إلى رسول الله (ص)، فتلقّاني الناس فوجاً فوجاً يهنّئوني بالتوبة ويقولون: ليهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله (ص) جالس وحوله الناس، فلما سلمت على رسول الله (ص)، قال رسول الله (ص) وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أُمك.

قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

قال (ص): لا، بل من عند الله، وكان رسول الله (ص) إذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله.

قال رسول الله (ص): أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك.

قلت: فإني أمسكت سهمي الذي بخيبر، ثم قلت: يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين ابتلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله (ص) أحسن مما ابتلاني، وما تعمدت منذ

ذكرت ذلك لرسول الله (ص) إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقى.

نزول سورة براءة

وفي سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة نزلت على رسول الله (ص) سورة براءة وأُمر بإبلاغها على المشركين، فدفعها (ص) إلى أبي بكر لينبذ بها عهد المشركين، فلما سار غير بعيد نزل جبرئيل (ع) على رسول الله (ص) وقال: إن الله يقرئك السلام ويقول لك: لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك.

فاستدعى رسول الله (ص) عليّاً (ع) وقال له: إركب ناقتي العضباء وألحق أبابكر، فخذ براءة من يده وامض بها إلى مكة وانبذ بها عهد المشركين إليهم.

فركب علي (ع) ناقة رسول الله (ص) العضباء وسار حتى لحق بأبي بكر وأخذ منه براءة، فرجع أبو بكر إلى المدينة، فلما دخل على رسول الله (ص) قال: يا رسول الله انك أهّلتني لأمر طالت الأعناق إليه، فلما توجّهت له رددتني عنه، مالي أنزل فيّ قرآن؟

فقال له رسول الله (ص): ان الأمين جبرئيل هبط إليّ عن الله عزّ وجل يقول: بأنه لا يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك، وعلي (ع) منّي، ولا يؤدّي عني إلا علي (ع).

ثم انّ علياً (ع) سار ببراءة حتى أذّن بها بعرفة والمزدلفة ويوم النحر عند الجمار، وفي أيام التشريق، فكان هو المؤذّن، أذّن بأذان الله ورسوله يوم الحجّ الأكبر في المواقف كلها، وكان ما نادى به: ألا لا يطوف بالبيت بعد هذا العام عريان، ولا يقرب المسجد الحرام بعد هذا العام مشرك، ومن كان له عهد فإلى مدّته، ومن لم يكن له عهد فإلى أربعة أشهر، ويحتج بقوله تعالى: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) ([٤٠]).

ولما دخل مكة اخترط سيفه وقال: والله لا يطوف بالبيت عريان إلا ضربته بالسيف، حتى ألبسهم الثياب فطافوا وعليهم الثياب، وكان الطواف بالبيت عرياناً مما قد تعارف في الجاهلية، فاستساغوه مع ما عليه من القبح والهتك لحرم الله سبحانه وتعالى، ولذلك نزلت براءة بكل قاطعية ونفّذها علي (ع) بلا تهاون حتى استطاع قلع الناس عنه.

---

[٤٠] – التوبة: ١ . ٢.

وعند رجوعه (ص) من تبوك سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة قدم عليه كتاب من ملوك حمير، وهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان بن قَيل ذي رعين وهمدان ومعافر مع رسولهم وفيه خبر إسلامهم، وبعث زرعة ذو يزن إلى رسول الله (ص) مالك بن مرة الرهاوي بإسلامه ومفارقتهم الشرك وأهله، وقد كان رسول الله (ص) في مسيره إلى تبوك يقول: إني بشرت بالكنزين فارس والروم، وأمددت بالملوك ملوك حمير يأكلون في الله ويجاهدون في سبيل الله، فلما قدم مالك بن مرة بإسلامهم كتب (ص) إليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله النبي، إلى الحارث بن عبد كلال، وإلى نعيم بن عبد كلال، وإلى النعمان بن قَيل ذي رعين وهمدان ومعافر، أما بعد: فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، فإنه قد وقع بنا رسولكم عند منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قلتم وأنبأنا بإسلامكم، وأنّ الله قد هداكم بهداه، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة وبيّن (ص) لهم صدقة الزرع والإبل والبقر والغنم..

ثم قال (ص): فمن زاد فهو خير له، ومن أدّى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وله ذمة الله ورسوله، وانه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنّ له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على يهوديّته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أُنثى حرّ أو عبد دينار وافٍ من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً، فمن أدّى ذلك إلى رسول الله فإنّ له ذمّة الله وذمّة رسوله، ومن منعه فإنه عدوّ لله ولرسوله.

وجاء فيما كتبه (ص) إلى زرعة: أما بعد: فإنّ محمداً النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن أن إذا أتاكم رسلي فأُوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل وعبدالله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم، وإن جمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم فأبلغوها رسلي، وان أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبنّ إلا راضياً.

وجاء فيما كتبه (ص) إليه أيضاً: أما بعد: فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله. ثم ان مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت

المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإنّ رسول الله هو مولى غنيّكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحلّ لمحمد ولا لأهل بيته، انما هي زكاة يزكى بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل، وإنّ مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيراً، وإني قد أرسلت إليكم من صالحي أهلي، وأُولي دينهم وأُولي عملهم، وآمركم بهم خيراً فإنه منظور إليهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سرية خالد إلى نجران

ثم انه لما فتح رسول الله (ص) مكة وانقادت له العرب، وأرسل رسله إلى الأُمم، وكاتب كسرى وقيصر يدعوهما إلى الإسلام، أكبر شأنه نصارى نجران وخلطاؤهم على اختلافهم في دين النصرانية، من المارونية، والنسطورية، والملكائية، وغيرها، وامتلأت قلوبهم على تفاوت منازلهم رهبةً ورعباً، وانهم كذلك إذ وردت عليهم رسل رسول الله (ص) بكتابه يدعوهم إلى الإسلام، فازداد القوم لذلك قلقاً واضطراباً واجتمعوا في أعظم كنائسهم للمشورة.

فقام رؤساء القوم وكبارهم ومن كانوا يرون سيادتهم على الناس في بقاء نصرانيتهم، فأشاروا عليهم بعدم الإستجابة وعدم الرضوخ والجزية، والإستمداد من الروم والإستعداد للحرب والزحف على المدينة.

وقام آخرون من ذوي العقل والإنصاف، وأشاروا عليهم بدراسة ما أوحى الله عزّوجل إلى المسيح من نعت محمد رسول الله (ص) وصفته وملك أُمته وذكر ذرّيته وأهل بيته (عليهم السلام).

وحضر نفر من أصحاب رسول الله (ص) شورهم بطلب من بعض رؤسائهم، فلما قُرىء على القوم ما أوحى الله عزّوجل إلى المسيح من نعت محمد رسول الله (ص) انحاز القوم إلى رأي ذوي العقل والإنصاف وسألوهم ما يعملون؟

فقالوا لهم: تمسّكوا بدينكم حتى نسير إلى المدينة وننظر ما جاء به وما يدعو إليه، ثم توجّهوا فيما يقرب من مائة شخص إلى المدينة.

وهنا لما أبطأ الأصحاب واستراث رسول الله (ص) خبر أصحابه أنفذ إليهم خالد بن الوليد في خيل سرحها معه لمشارفة أمرهم، فألفوهم وهم متوجّهون إلى المدينة، فرجعوا معهم إلى المدينة.

اضطراب نصارى نجران

وقيل: انما تحرك وفد نصارى نجران إلى المدينة لأنّ رسول الله (ص) كتب إلى أهل نجران: باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب الإسلام.

فلما أتى إلى الأُسقف الكتاب فقرأه قطع به وذعر ذعراً شديداً، فبعث به إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة، وكان من أهل همدان، ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله، لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب، فدفع إليه الأُسقف كتاب رسول الله (ص) فقرأه.

فقال الأُسقف: يا أبا مريم ما رأيك؟

فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذريّة اسماعيل من النبوّة، رأيي لو كان من أمر الدنيا أشرت عليك فيه برأي وجهدت لك فيه.

فقال الأُسقف: تنحَ فاجلس، ثم دعا الأُسقف رجلاً آخر منهم، يقال له: عبدالله بن شرحبيل وهو من ذي أصبح، فقال مثل قول شرحبيل، فبعث إلى آخر، يقال له: جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب، فقال له مثل قول شرحبيل وعبدالله.

فلما اجتمع الرأي على تلك المقالة جميعاً أمر الأُسقف بالناقوس فضرب به ورفعت المسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا نزل أمر بالنهار، وإذا فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمع أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية ومائة ألف وعشرون مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله (ص) وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الوادي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني وعبدالله بن شرحبيل وجبار بن قيس الحارثي فيأتونهم بخبر رسول الله(ص).

نصارى نجران في المدينة

فلما قدم نصارى نجران المدينة وفدوا على رسول الله (ص) وهم ـ على قول ـ ستّون راكباً،

منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر يؤوّل إليهم أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبدالمسيح، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة ابن علقمة أخو بكر بن وائل أُسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه وموّلوه وخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

فلما توجهوا إلى رسول الله (ص) من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له متوجّهاً إلى رسول الله (ص)، وإلى جنبه أخ له يقال له: كرز بن علقمة يسايره، إذ عثرت بغلة أبي حارثة، فقال له كرز: تعس الأبعد.

فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست.

فقال: ولمَ يا أخي؟

قال: والله إنه للنبيّ الأُميّ الذي ينتظرونه.

فقال له كرز: فما يمنعك وأنت تعلم هذا؟

فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا وموّلونا وكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا عنا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك.

فحضرت صلاتهم وهم في المسجد، فأقبلوا يضربون بالناقوس وقاموا لصلاتهم.

فقال أصحاب رسول الله (ص): يا رسول الله هذا في مسجدك؟

فقال (ص): دعوهم.

فلما فرغوا دنوا من رسول الله (ص) وقالوا: إلى ما تدعو؟

قال (ص): إلى شهادة أن لا إله إلا الله، واني رسول الله، وانّ عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث.

قالوا: فمن أبوه؟

فنزل الوحي على رسول الله (ص) فقال: قل لهم: ما تقولون في آدم؟ أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب، ويحدث وينكح؟ فسألهم رسول الله (ص) ذلك.

فقالوا: نعم.

فقال: من أبوه؟

فبهتوا وبقوا ساكتين لا يحيرون جواباً.

فأنزل الله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ، فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ) ([٤١]).

المباهلة: الحل الأخير

ولما نزلت هذه الآيات وأمر الله فيها رسوله (ص) بأن يباهل نصارى نجران، دعاهم رسول الله (ص) إلى أن يباهلوه، وذلك لأنهم قد افحموا في مناظرتهم، ووقفوا على خطأهم، غير ان تعصبهم لم يسمح لهم بأن يذعنوا للحق الذي عرفوه في قرارة أنفسهم، ولم يبق سوى أن يروا الحق بأُم أعينهم، وذلك بالإبتهال إلى الله تعالى في أن ينزل عذابه على المبطل منهما.

ولذلك قال لهم رسول الله (ص): باهلوني، فإن كنت صادقاً نزلت اللعنة عليكم، وإن كنت كاذباً نزلت عليّ، وحيث لم ير نصارى نجران لأنفسهم طريقاً غير ذلك، ولم يشهدوا مناصفة كهذه قالوا: أنصفت، ثم تواعدوا للمباهلة.

تزلزل النصارى

ومن الواضح: انه لا يتجرّأ أحد على أن يدعو أحداً للمباهلة إلاّ وهو على يقين من حقانيته، ولذلك لما دعى رسول الله (ص) نصارى نجران للمباهلة، وتواعدوا لها، أُوجسوا في أنفسهم خيفة.

فلما رجعوا إلى منازلهم قال رؤساؤهم: السيد والعاقب والأهتم: انه لو لم يكن نبياً حقاً لما دعانا إلى المباهلة، ثم جعلوا لذلك علامة وقالوا: إن باهلنا بقومه باهلناه، فإنه ليس بنبيّ، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة فلا نباهله، فإنه لا يقدم على أهل بيته إلا وهو صادق.

---

[٤١] – آل عمران: ٥٩ . ٦١.

فلما أصبح الصباح من اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجّة من السنة التاسعة للهجرة النبوية المباركة خرج نصارى نجران إلى موعدهم، وخرج رسول الله (ص) آخذاً بيد علي (ع)، والحسن والحسين (ع) بين يديه، وفاطمة (ع) تتبعه، وهو (ص) يقول: هؤلاء أبناؤنا: الحسن والحسين، وهذه نساؤنا: فاطمة([٤٢]) وهذا أنفسنا: علي.

وقد سأل النصارى عنهم وقالوا: من هؤلاء؟

فقيل لهم: هذا ابن عمه ووصيّه وختنه علي بن أبي طالب (ع)، وهذه ابنته فاطمة (ع)، وهذان ابناه الحسن والحسين (ع).

وتقدّم رسول الله (ص) بهم فجثا لركبتيه وجعل علياً (ع) بين يديه، وفاطمة بين كتفيه، والحسن (ع) عن يمينه، والحسين (ع) عن يساره وقال (ص): إذا دعوتُ فأمِّنوا، ورفع كفّه إلى السماء وفرَّج بين أصابعه ودعاهم إلى المباهلة.

فلما رأى ذلك أُسقفهم عبدالمسيح بن نونان قال: جثا والله محمد كما تجثوا الأنبياء للمباهلة، واني أرى وجوهاً لو دعت الله سبحانه لاستجاب.

وقال شرحبيل: إن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنّاه لا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك.

فقال له صاحباه: فما الرأي؟

فقال: رأيي أن أحكمه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً.

فتآمروا فيما بينهم، وقالوا: والله إنه لنبيّ، ولئن باهلنا ليستجيبنّ الله له فيهلكنا، ولا ينجينا شيء منه إلا أن نستقيله، فأقبلوا وقالوا لرسول الله (ص): نعطيك الرضا فاعفنا عن المباهلة وأقلنا.

وثيقة صلح نجران

فرجع رسول الله (ص) ولم يلاعنهم، فصالحهم على الجزية وأقالهم وكتب لهم هذا الكتاب:

---

[٤٢] – هذا وله (ص) يومئذ عدة نسوة لم يأتِ بإحداهنّ.

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي رسول الله (ص) لنجران، إذا كان عليهم حكمه: في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فافضل عليهم وترك ذلك كله على ألفي حلة، في كل رجب ألف حلة، وكل صفر ألف حلة، وكل حلة أوقية ما زادت على الخرج أو نقصت عن الأواقي فبحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بحساب، وعلى نجران مثواة رسلي ومنعهم من عشرين فدونه، ولايحبس رسول فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ذو معذرة، وما هلك مما أعاروا رسولي من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسولي حتى يؤدّيه إليهم، ولنجران وحِشْيتها جوار الله وذمّة النبيّ على أنفسهم وسكنهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم، وأن لا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملّتهم، ولا يغير أُسقف من أساقفتهم، ولا راهب من رهبانيتهم، ولا رقة من رقيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم دية ولا دم جاهلية ولا يحسرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل فيهم فيسهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا فذمّتي منه بريئة، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر، وعلى ما في هذه الصحيفة بجوار الله وذمّة محمد رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مبتلين بظلم).

ثم قال لهم رسول الله (ص): أما والذي بعثني بالحق لو باهلتكم بمن معي من أهل بيتي ما ترك الله على ظهر الأرض نصرانياً إلا أهلكه، ولأضرم الله عليكم الوادي ناراً تأجج، ثم ساقها إلى من وراءكم في أسرع من طرفة العين فحرّقتهم تأجّجاً.

فهبط عليه (ص) جبرئيل وقال له: ان الله يقرؤك السلام ويقول لك: وعزّتي وجلالي وارتفاع مكاني، لو باهلت بهؤلاء الذين معك من أهل بيتك أهلَ السماء وأهل الأرض لتساقطت عليهم السماء كسفاً متهافتة، ولتقطّعت الأرضون زبراً سايحة، فلم تستقر عليها بعد ذلك.

عندها رفع رسول الله (ص) يديه إلى السماء وعيناه ترمقان إلى علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال: على من ظلمكم حقكم وبخسني الأجر الذي افترضه الله عليهم فيكم بهلة الله تتابع إلى يوم القيامة.

آية المباهلة: وسام من الله تعالى

عن علي (ع) قال: خرج رسول الله (ص) حين خرج لمباهلة النصارى بي وبفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام).

وعن مجاهد قال: قلت لابن عباس: من الذين أراد رسول الله (ص) أن يباهل بهم؟

قال: علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) والأنفس: النبي (ص) وعلي(ع)..

وعن الشعبي قال: قال جابر: (أنفسنا وأنفسكم): رسول الله (ص) وعلي(ع)، و(أبناءنا): الحسن والحسين (ع)، و(نساءنا): فاطمة (ع).

وعن سعد بن أبي وقاص انه قال: لما نزل قوله تعالى: (قُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ) ([43]) دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال: اللهمّ هؤلاء أهلي.

وإلى غير ذلك ممّا يدلّ على انّ آية المباهلة وسام من الله تبارك وتعالى منحه وخصّه برسوله (ص) وأهل بيته (عليهم السلام) دون سائر خلقه.

سرية البجلي

وفي هذه السنة . سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة . بعث رسول الله (ص) جرير بن عبدالله البجلي إلى تخريب (ذي الخلصة) وهو صنم كان لقبائل من العرب.

وبعث (ص) أيضاً إلى ذي الكلاع فأسلم وأسلمت امرأته خزيمة بنت أبرهة بن الصباح، واسم ذي الكلاع سميفع، وقيل: انه كان قد استعلى أمره حتى ادعى الربوبية.

مع عمرو بن معدي كرب

لما عاد رسول الله (ص) من تبوك إلى المدينة قدم إليه عمرو بن معدي كرب وهو من بني زبيد، ومن الشعراء الفرسان في الجاهلية: وذلك أوائل السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة، فقال له رسول الله (ص): أسلم يا عمرو يؤمنك الله من الفزع الأكبر.

---

[43] – آل عمران: ٦١.

قال: وما الفزع الأكبر فإني لا أفزع؟!

قال (ص): يا عمرو، انه ليس كما تظنّ وتحسب، ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة، فلا يبقى ميّت إلا نشر، ولا حيّ إلاّ مات، إلاّ ما شاء الله، ثم يصاح بهم صيحة أُخرى، فينشر من مات، ويصفّون جميعاً، وتنشقّ السماء وتهدّ الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً، وترمي النار بمثل الجبال شرراً، فلا يبقى ذو روح إلا انخلع قلبه، وذكر ذنبه، وشغل بنفسه، إلا من شاء الله، فأين أنت يا عمرو من هذا؟

قال عمرو: ألا إني أسمع أمراً عظيماً، فآمن بالله ورسوله وآمن معه من قومه ناس ورجعوا إلى قومهم، ثم ان عمرو بن معدي كرب نظر إلى قاتل أبيه فأخذ برقبته ثم جاء به إلى رسول الله (ص) وقال: أعنّي على هذا الفاجر الذي قتل والدي.

فقال له رسول الله (ص) بعد أن أمره بإطلاق سراحه: أهدر الإسلام ما كان في الجاهلية، فاغتاظ عمرو من ذلك وانصرف مرتدّاً، وفي طريقه أغار على قوم من بني الحارث بن كعب ثم مضى إلى قومه.

سريتان متزامنتان

فلما بلغ ذلك رسول الله (ص) استدعى علياً (ع) وأمّره على المهاجرين وأنفذه إلى بني زبيد، وأرسل خالد بن الوليد في الأعراب وأمره أن يعمد إلى جعفي ـ بطن من مذحج ـ فإذا التقيا فأمير الناس علي (ع).

فسار علي (ع) واستعمل على مقدّمته خالد بن سعيد بن العاص، واستعمل خالد على مقدمته أباموسى الأشعري، فأما جعفي فإنها لما سمعت بالجيش افترقت فرقتين: فرقة ذهبت إلى اليمن، وفرقة انضمّت إلى بني زبيد.

فبلغ ذلك علياً (ع) فكتب إلى خالد بن الوليد: ان قف حيث أدركك رسولي، فلم يقف، فكتب (ع) إلى خالد بن سعيد بن العاص: بأن يتعرّض له حتى يحبسه، وأدركه علي (ع)، ثم سار حتى لقي بني زيد بواد يقال له: كِسر.

فلما رآه بنو زيد قالوا لعمرو: كيف أنت إذا لقيك هذا الغلام القرشي فأخذ منك الاتاوة؟

قال عمرو: سيعلم ان لقيني، فخرج عمرو يطلب مبارزاً.

فنهض إليه علي (ع) وقام خالد بن سعيد وقال: يا أبا الحسن بأبي أنت وأُمّي دعني أُبارزه.

فقال له علي (ع): إن كنت ترى انّ لي عليك طاعة فقف مكانك، فوقف.

ثم برز (ع) إليه فصاح به صيحة، فانهزم عمرو مولّياً، ولكن ثبت أخوه وابن أخيه فقتلا، وأخذت امرأته ركانة بنت سلامة وسبيت نساء منهم.

ثم انصرف علي (ع) وخلّف على بني زبيد خالد بن سعيد ليقبض صدقاتهم، ويؤمّن من عاد إليه من هرابهم مسلماً، فرجع عمرو بن معدي كرب واستأذن على خالد بن سعيد، فأذن له فعاد إلى الإسلام، فكلّمه في امرأته وولده فوهبهم له، وكان لعمرو سيف يسمّيه: الصمصامة، فلما وهب خالد بن سعيد لعمرو امرأته وولده وهب له عمرو الصمصامة.

سريتان إلى اليمن

ثم ان رسول الله (ص) بعث خالد بن الوليد في السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة، وذلك بعد قصة عمرو بن معدي كرب إلى أهل اليمن ليدعوهم إلى الإسلام، وأنفذ معه جماعة من المسلمين فيهم البراء بن عازب.

فلما وصلها أقام على القوم ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجبه أحد.

فدعا رسول الله (ص) علياً (ع) وأمره أن يسير إلى اليمن وأن يقفل خالداً ومن معه، وقال له: إن أراد أحد ممن مع خالد أن يعقب معك فاتركه.

قال البراء بن عازب: فكنت ممن عقب معه، فلما بلغ القوم الخبر تجمعوا له، فصلّى بنا علي بن أبي طالب (ع) الفجر، ثم تقدّم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ على القوم كتاب رسول الله (ص) إليهم، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، وكتب بذلك علي (ع) إلى رسول الله (ص).

فلما وصله كتاب علي (ع) وقريء عليه استبشر وابتهج وخرّ ساجداً شكراً لله تعالى، ثم رفع رأسه وجلس وقال: السلام على همدان، ثم تتابع بعد إسلام همدان أهل اليمن على قبول الإسلام والدخول فيه.

قال علي (ع): بعثني رسول الله (ص) إلى اليمن وقال لي: يا علي لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله على يديك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت.

قال (ع): فقلت: يا رسول الله تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم؟

فضرب رسول الله (ص) بيده في صدري وقال: (اللهمّ اهدِ قلبه، وثبّت لسانه) فوالّذي نفسي بيده ما شككت في قضاء بين اثنين.

ثم أوصاه وقال له: يا علي أُوصيك بالدعاء، فإن معه الإجابة، وبالشكر، فإن معه المزيد، وإياك أن تخفر عهداً وتعين عليه، وأنهاك عن المكر، فإنه لا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله، وأنهاك عن البغي، فإنه من بغي عليه لينصرنّه الله.

أذى علي (ع) أذى رسول الله (ص)

وروي عن الفريقين، عن عمرو بن شاس الأسلمي انه قال: كنت مع علي ابن أبي طالب (ع) في خيله إلى اليمن، فلحقني من علي (ع) أمر حسبته جفاءاً منه، فوجدت عليه في نفسي، فلما قدمت المدينة اشتكيته عند من لقيته من أصحابي.

فوصل ذلك إلى رسول الله (ص) فأقبلت يوماً ورسول الله (ص) جالس في المسجد، فنظر إليّ حتى جلست إليه، فقال (ص): يا عمرو بن شاس لقد آذيتني.

فقلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أعوذ بالله أن أكون قد آذيت رسول الله.

فقال (ص): (من آذى علياً فقد آذاني) ([٤٤]).

سرية أُسامة بن زيد

وكانت هذه آخر سرية بعثها رسول الله (ص) في أُخريات أيامه، وسيأتي ذكرها([٤٥]).

---

[٤٤] – راجع بحار الأنوار: ج٢١ ص٣٦٠ ب٣٤ ح١، وبحار الأنوار: ج٣٩ ص٢٣٢ ب٨٩ ح١.

[٤٥] – راجع الفصل الأخير من الكتاب.

فصل

في الوفود والرُسُل

عام الرُّسُل والوفود

ولما فتح رسول الله (ص) مكة في السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة، ودانت له قريش، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف، وكذا عاد علي بن أبي طالب(ع) من إعلان البراءة في موسم الحج في السنة التاسعة من الهجرة النبوية المباركة، أقبلت وفود القبائل العربية من شتى أنحاء الجزيرة تترى على المدينة.

كما وبعث رسول الله (ص) رسله إلى الآفاق في السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة، فكانت الرسل والوفود بين فتح مكة وارتحاله (ص)، كما كانت مراسلاته ومكاتباته مع الملوك والرؤساء بعد صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة النبوية المباركة حتى ارتحاله (ص) أيضاً، وحيث كانت الوفود مستمرة حتى زمن ارتحاله (ص)، لذلك قال (ص) في وصاياه: (أجيزوا الوفد).

وفد هوازن وثقيف

وكان ممن قدم عليه (ص): وفد هوازن، وقد مرّ ذكرهم، ووفد ثقيف، وذلك انه قدم على رسول الله (ص) عروة بن مسعود الثقفي مسلماً، ثم استأذن رسول الله (ص) في الرجوع إلى قومه وإنذارهم، فقال (ص): إني أخاف أن يقتلوك.

فقال: إنهم إن وجدوني نائماً ما أيقظوني، إشفاقاً منهم عليَّ.

فأذن له رسول الله (ص) فرجع إلى الطائف ودعاهم إلى الإسلام ونصح لهم، فعصوه، وأسمعوه الأذى، حتى إذا طلع الفجر قام في غرفة من داره فأذّن وتشهّد، فرماه رجل بسهم فقتله.

ثم أقبل بعد ذلك وفد ثقيف بضعة عشر رجلاً هم من أشراف ثقيف، فأسلموا وذلك في قصّة مفصّلة مرّ تفصيلها، ثم دعوا قومهم ثقيف إلى الإسلام، فأسلموا.

فلما أسلمت ثقيف، ضربت إلى رسول الله (ص) وفود العرب، فدخلوا في دين الله أفواجاً، كما قال الله سبحانه في سورة النصر:

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً) ([٤٦]).

وفد بني تميم

وقدم على رسول الله (ص) وفد بني تميم في جماعة من أشرافهم، منهم: الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وعيينة بن حصن الفزاري، وعمرو بن الأهتم، وعلى رأسهم: عطارد بن حاجب بن زرارة، وكان الأقرع وعيينة شهدا مع رسول الله (ص) فتح مكة وحنيناً والطائف، فلما قدم وفد تميم دخلا معهم، فأجارهم رسول الله (ص) وأحسن جوارهم.

وفد بني عامر

وممّن قدم على رسول الله (ص) وفد بني عامر بن صعصعة، وفيهم: عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس أخو لبيد بن ربيعة الشاعر لأُمه، وكان عامر وأربد يريدان أن يغدرا برسول الله (ص)، فقيل: يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك.

فقال رسول الله (ص): دعوه، إن يرد الله به خيراً يهده.

فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟

قال (ص): لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم.

فقال: تجعل الأمر لي بعدك؟

قال (ص): ليس ذلك إليّ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء.

قال: فاجعلني على الوبر وأنت على المدر.

قال (ص): لا.

---

[٤٦] – النصر: ١ ـ ٣.

قال: فماذا تجعل لي؟

قال (ص): أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها.

قال: وليس ذلك إليّ اليوم؟

وقيل: انه لما قدموا عليه قال عامر: يا محمد خالّني.

فقال (ص): لا، حتّى تؤمن بالله وحده، قالها مرّتين.

فلما أبى عليه قال عامر: والله لأملأنّها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مرداً.

وكان عامر قد قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل فأنا شاغل عنك وجهه، فإذا رأيتني أُكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف. فدار أربد ليضربه، فاخترط من سيفه شبراً، فحبس الله يده، فلم يقدر على ذلك، فالتفت رسول الله (ص) فرأى أربد وما يصنع بسيفه..

فلما ولّى قال رسول الله (ص): اللهمّ اكفني عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، اللهمّ اكفنيهما بما شئت.

فلما خرجوا من عند رسول الله (ص) قال عامر لأربد: أين ما أمرتك به؟

قال: ويحك والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا وحلتَ بيني وبينه، أفأضربك بالسيف؟

فأرسل الله على أربد وجمله صاعقة فأحرقتهما. وقيل: وأنزل الله عزّوجل: (وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ) ([٤٧]).

وفي رواية: قال عامر: والله لأربطن بكل نخلة فرساً.

فقال رسول الله (ص): يمنعك الله من ذلك وأبناء قيلة، يعني الأوس والخزرج.

وبعث الله على عامر بن الطفيل في طريقه ذلك الطاعون في عنقه فقتله في بيت امرأة من سلول، وكان رسول الله (ص) قد قال في عامر وأربد: اللهمّ أبدلني بهما فارسي العرب، فقدم عليه زيد بن مهلل الطائي، وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله (ص) زيد الخير، وعمرو بن معدي كرب الذي مرّ ذكره.

وفد طي

وقدم وفد طي على النبي (ص) وفيهم زيد الخيل وهو سيّدهم، وعديّ بن حاتم، فلما

---

[٤٧] – الرعد: ١٣.

انتهوا إليه (ص) كلمهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال (ص): ما ذكر لي رجل من العرب بفضل، ثم جاءني إلا رأيته دون مايقال فيه، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه، ثم سماه (زيد الخير).

فلما خرج زيد من عند رسول الله (ص) راجعاً إلى المدينة قال رسول الله(ص): إن ينج زيد من حمى المدينة، فلما انتهى إلى ماء من مياه نجد يقال له فردة أصابته الحمى فمات بها.

وفد زبيد

وقدم وفد بني زبيد على رسول الله (ص) في المدينة، وفيهم: عمرو بن معدي كرب، وقد مرّت قصته عند ذكر إسلامه فيما سبق.

وقيل: انه قتل في قتال الفرس.

وفد عبدالقيس

وقدم وفد عبدالقيس على رسول الله (ص) وهي قبيلة كبيرة ينسبون إلى عبدالقيس بن أفعمي بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، فقال رسول الله(ص): ممن القوم؟

قالوا: من ربيعة.

قال (ص): مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى.

فقالوا: يا رسول الله إنّ بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر فصل نأخذ به من ورائنا وندخل به الجنّة.

فقال (ص): آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن أربع: الدبّاء، والحنتم، والنقير، والمزفت . وكانت هذه الأربعة ظروفاً خاصة يصنع فيها الخمر، فنهاهم رسول الله (ص) عن الخمر وعن الشرب فيها، ثم أوصاهم قائلاً: فاحفظوهنّ وادعوا إليهنّ من ورائكم.

قالوا: يا رسول الله ما علمك بالنقير؟

قال (ص): بلى، جذع تنقرونه ثم تلقون فيه من التمر ثم تصبون عليه الماء حتى يغلى، فإذا سكن شربتموه، فعسى أن يضرب ابن عمه بالسيف . أي: على أثر السكر. وفي القوم

رجل به ضربة لذلك. قال: وكنت أخبئُها حياءً من رسول الله (ص).

قالوا: ففيم نشرب الماء يا رسول الله؟

قال (ص): اشربوا في أسقية الأدم التي تلاث ـ أي تشد ـ على أفواهها.

قالوا: يا رسول الله إنّ أرضنا كثيرة الجرذان لا تبقي بها أسقية الأدم.

قال (ص): وإن أكلتها الجرذان (مرتين أو ثلاثاً).

ثم قال رسول الله (ص) لأشج عبدالقيس: إنّ فيك لخصلتين يحبّهما الله: الحلم والأناة.

وفد بني حنيفة

وقدم على رسول الله (ص) وفد بني حنيفة، وفيهم مسيلمة الكذاب الذي ارتدّ وادّعى النبوّة فيما بعد، وكانوا قد خلّفوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا له (ص) مكانه فقالوا: يا رسول الله إنا قد خلّفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا، فأمر له رسول الله (ص) بما أمر للقوم، ثم انصرفوا وجاءوه بالذي أعطاه.

فلما قدم مسيلمة اليمامة ارتدّ على عقبه وتنبّأ وقال: إني أُشركت في الأمر معه، ثم جعل يسجع السجعات فيقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: (لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى) ووضع عنهم الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا ونحو ذلك، وكان مسيلمة الكذاب هذا صاحب يمامة، كما كان العنسي الكذاب صاحب صنعاء هو الآخر أيضاً الذي ادّعى النبوّة، وكذلك كانت سجاح التي ادّعت النبوّة كذباً، فأخزاهم الله جميعاً وأذلّهم.

وقيل: انه كتب مسيلمة لرسول الله (ص):

(من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، وليس قريش قوماً يعدلون).

فقدم عليه رسوله بهذا الكتاب، فكتب إليه رسول الله (ص): (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتّقين).

وعن ابن عباس قال: لما قدم مسيلمة الكذاب على رسول الله (ص) فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتّبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه.

فأقبل النبي (ص) ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد النبي (ص) قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعد أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنّك الله.

وقيل: انه (ص) قال: وإن أراك الذي رأيت فيه ما رأيت، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني، ثم انصرف.

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله (ص): وإن أراك الذي رأيت فيه ما رأيت، فأخبرني أن النبي (ص) قال: بينا أنا نائم رأيت رؤيا، فأوحي إليَّ في المنام: أن كذّابين يخرجان من بعدي: أحدهما العنسي صاحب صنعاء، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة.

وفد كندة

وقدم وفد كندة على رسول الله (ص) في ثمانين راكباً، وفيهم: الأشعث بن قيس، فدخلوا عليه (ص) مسجده وقد رجّلوا (أي: مشطوا) جممهم وتكحلوا، وعليهم جبات الحبرات مكفوفة بالحرير.

فلما دخلوا قال رسول الله (ص): أو لم تسلّموا؟

قالوا: بلى.

قال (ص): فما هذا الحرير في أعناقكم؟ فشقّوه ونزعوه منها، فألقوه.

وفد بني مراد

وقدم فروة بن مسيك المرادي مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لها إلى رسول الله(ص)، فقال له رسول الله (ص): هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟ . وقد كان بين مراد وهمدان وقعة قبل الإسلام أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتى أثخنوهم في يوم كان يقال له يوم الردم ..

فقال: من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم ولا يسوؤه ذلك؟

فقال له رسول الله (ص): أما إنّ ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً، واستعمله على مراد وزبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه في بلاده حتى توفى رسول الله (ص).

ولما توجّه فروة بن مسيك إلى رسول الله (ص) مفارقاً كندة قال:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت كالرِّجل خان الرِّجل عرق نسائها

يمّمت راحلتي أؤم محمداً أرجو فواضلها وحسن ثرائها

وفد الأشعريين

وقدم على رسول الله (ص) الأشعريون من أهل اليمن، وروي ان رسول الله (ص) قال قبل قدومهم: سوف يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوباً، فقدم الأشعريون، فجعلوا يرتجزون ويقولون:

غداً نلقي الأحبّة محمداً وحزبه

وفد أهل اليمن

وقدم على رسول الله (ص) وفد من أهل اليمن فقالوا: يا رسول الله جئنا لنتفقّه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر.

فقال لهم رسول الله (ص): كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء.

وفد أزد

وقدم على رسول الله (ص) صرد بن عبدالله الأزدي فأسلم وحسن إسلامه، فأمّره رسول الله (ص) على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن.

فخرج يسير بأمر رسول الله (ص) حتى نزل بجرش وهي يومئذ مدينة كان يقطن بها بعض قبائل العرب، قال: وقد ضوت اليهم خثعم فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم فحاصروهم قريباً من شهر، وامتنعوا فيها فرجع عنهم قافلاً حتى إذا كان في جبل لهم، ظن أهل جرش انه انما ولى عنهم منهزماً، فخرجوا في طلبه حتى إذا أدركوه، فوقع القتال بينهم.

وقيل: انه قد كان أهل جرش بعثوا إلى رسول الله (ص) رجلين منهم يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله (ص) عشية بعد العصر، إذ قال رسول الله (ص): بأي بلاد الله

شكر؟

فقام الجرشيان فقالا: يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كسر، وكذلك يسميه أهل جرش.

فقال (ص): إنه ليس بكسر ولكنه شكر.

قالا: فما شأنه يا رسول الله؟

قال (ص): إن بدن الله لتنحر عنده الآن.

قال: فجلس الرجلان إلى أحد الصحابة فقال لهما: ويحكما إن رسول الله (ص) لينعي لكما قومكما، فقوما فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما.

فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال (ص): اللهمّ ارفع عنهم.

فخرجا من عند رسول الله (ص) راجعين إلى قومهما فوجدا قومهما قد أُصيبوا في اليوم الذي قال فيه رسول الله (ص) ما قال، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر، فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله (ص) فأسلموا، وحمي لهم حمى حول قريتهم.

وفد بجيلة

وقدم على رسول الله (ص) جرير بن عبدالله البجلّي ومعه مائة وخمسون رجلاً من قومه، فقال رسول الله (ص) قبل قدومه: يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذي يمن، على وجهه مسحة ملك، فطلع جرير على راحلته ومعه قومه، فأسلموا وبايعوا.

وفد بني كعب

وقدم وفد بني الحارث بن كعب على رسول الله (ص) وفيهم: قيس بن الحصين، فسلّموا عليه وقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وانّك رسول الله.

فقال لهم رسول الله (ص): وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وانّي رسول الله، ثم قال لهم: بم كنتم تغلبون من قاتلتم في الجاهلية؟

قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرّق، ولا نبدأ أحداً بظلم.

قال (ص): صدقتم، وأمّر عليهم قيس بن الحصين، فرجعوا إلى قومهم، ثم بعث إليهم رسول الله (ص) بعد ذلك عمرو بن حزم الأنصاري ليفقّههم في الدين، ويعلّمهم السنّة

ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقاتهم.

وفد همدان

وقدم عليه (ص) وفد همدان، وفيهم: مالك بن النمط ومالك بن أيفع وضمام بن مالك، وعمرو بن مالك فلقوا رسول الله (ص) وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية على الرواحل المهرية، ومالك بن النمط يرتجز بين يدي رسول الله (ص) ويقول:

همدان خير سوقة وأقيال ليس لها في العالمين أمثال

محلها الهضب ومنها الأبطال لها اطابات بها وأكال

ويقول الآخر:

إليك جاوزن سواد الريف في هبوات الصيف والخريف

مخطمات بحبال ليف

وذكروا له كلاماً كثيراً حسناً فصيحاً، فكتب لهم رسول الله (ص) كتاباً وأمر عليهم مالك بن النمط.

وفد مزينة

وقدم وفد مزينة على رسول الله (ص) وفيهم: النعمان بن مقرن.

قال النعمان: قدمنا على رسول الله (ص) أربعمائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال (ص): (زوّدوا القوم) فزوّدونا بتمر كثير.

وقيل: انه (ص) قال لبعض أصحابه: زوّد القوم.

فقال: ما عندي إلا شيء من تمر، ما أظنه يقع من القوم موقعاً.

قال (ص): إنطلق فزوّدهم.

فانطلق بهم فأدخلهم منزله ثم أصعدهم إلى علية، فلما دخلوا إذا فيه من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم.

قال النعمان: وكنت في آخر من خرج، فنظرت وما أفقد موضع تمرة من مكانها.

وفد نجران

وقدم على رسول الله (ص) وفد نصارى نجران وفيهم: السيد والعاقب والأتهم، وآل أمرهم إلى المباهلة فأحجموا عنها وقبلوا الجزية، فكتب لهم رسول الله (ص) كتاب صلح، وذلك في قصة مفصّلة مرّ ذكرها في حديث المباهلة.

وفد ملوك حمير

وقدم على رسول الله (ص) وافد ملوك حمير: مالك بن مرة بكتابهم إليه(ص)، وبإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، فكتب لهم رسول الله (ص) كتاباً وأرسله إليهم مع رسولهم مالك بن مرة وأوصاهم به خيراً، وقد سبق تفصيله.

وفد جماعة الأعراب

وقدم على رسول الله (ص) أُهيب بن سمّاع وكان كبير قوم من الأعراب.

قال الراوي: كان رسول الله (ص) يوماً جالساً في نفر من أصحابه، وقد صلّى الغداة، إذ أقبل أعرابي على ناقة له حتى وقف بباب المسجد فأناخها ثم عقلها ودخل المسجد يتخطّى الناس والناس يوسّعون له، وإذا هو رجل مديد القامة، عظيم الهامة، متعجّر بعمامة، فلما مثل بين يدي رسول الله (ص) أسفر عن لثامه، ثم همّ أن يتكلّم فارتجّ، ثمّ همّ أن يتكلّم فارتجّ، حتى اعترضه ذلك ثلاث مرات.

فلما رآه رسول الله (ص) وقد ركبه الزمع ـ أي: الدهشة ـ لهى عنه بالحديث ليذهب عنه بعض الذي أصابه، وقد كسا الله نبيه (ص) جلالة وهيبة، فلما أنس وفرّخ روعه قال له النبي (ص): قل لله أنت، ما أنت قائل، فأنشد أبياتاً اعتذاراً عما أصابه.

فاستوى رسول الله (ص) جالساً وقد كان متكئاً ثم قال له: أنت أُهيب بن سماع؟ ولم يره قطّ قبل ذلك.

فقال: أنا أُهيب بن سماع، الآبي الدفّاع، القوي المنّاع.

قال (ص): أنت الذي ذهب جلّ قومك بالغارات، ولم ينفضوا رؤوسهم من الهفوات، إلا منذ أشهر وسنوات؟

قال: نعم أنا ذاك.

قال (ص): أتذكر الأزمة التي أصابت قومك، احرنجم لها الزيخ، وأخلف نوء المرّيخ، وامتنعت السماء، وانقطعت الأنواء، واحترقت العنمة، وخفّت البرمة، حتى ان الضيف لينزل بقومك وما في الغنم عرق ولا غزر، فترصدون الضب المكنون فتقتنصونه؟ وكأنك قلت في طريقك إليّ: لتسألني عن حلّ ذلك وعن حرمته؟ ألا ولا حرج على مضطرّ، ومن كرم الأخلاق برّ الضيف؟

قال: فقال أُهيب: لا والله لا أطلب أثراً بعد عين، لكأنّك كنت معي في طريقي وشريكي في أمري، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّك محمداً رسول الله، ثم قال: يا رسول الله زدني شرحاً وبياناً ازدد بك إيماناً.

فقال له رسول الله (ص): أتذكر إذ أتيت صنمك في الظهيرة، فعترت له العتيرة . وهي الذبيحة كانت تذبح للأصنام فيصبّ دمها على رأسها .؟

فقال أُهيب: نعم بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، ان الحارث بن أبي ضرار جمع لك جموعاً ليدهمك بالمدينة، واستعان بي على حربك، وكان لي صنم يقال له: واقب، فرقبت خلوته، وقممت ساحته، ثم نفضت التراب عن رأسه، ثم عترت له عتيرة، فإني لأستخبره في أمري، وأستشيره في حربك، إذ سمعت صوتاً قفّ له شعري، واشتدّ منه ذعري، فولّيت عنه وهو يقول:

أُهيب ما لك تجزع لا تنأ عنّي وارجع
واسمع مقالاً ينفع جاءك ما لا يدفع
بني صدق أروع فاقصد إليه واسْرع
تأمن وبال المصرع وهول يوم المطلع

قال أُهيب: فأتيت أهلي ولم أُطلع أحداً على أمري، فلما كان من الغد أتيته في الظهيرة فرقبت خلوته، وقممت ساحته، وعترت له عتيرة، ثم جسدته بدمها، فبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتاً هائلاً، فولّيت عنه هارباً وهو يقول كلاماً في معنى كلامه الأول.

قال: فلما كان من غد ركبت ناقتي، ولبست لامتي، وتكبّدت الطريق حتى أتيتك.

عندها قال النبي (ص) لعلي (ع): يا علي خذ بيد أُهيب وعلّمه القرآن، فأقام عندهم حتى حذق شيئاً من القرآن وتعلّم أحكام الإسلام.

وفد دوس

وقد قدم وفد دوس قبل عام الوفود، وكان قدومهم بخيبر.

وفد فروة بن عمرو الجذامي

وقدم وافد فروة بن عمرو الجذامي على رسول الله (ص) بإسلام فروة بن عمرو الجذامي وإيصال هديته إليه بغلة بيضاء، وكان فروة عاملاً للروم على ما يليهم من العرب، وكان منزله (معان) فلما بلغ الروم ذلك طلبوه حتى أخذوه فحبسوه ثم صلبوه وقتلوه.

وفد بني سعد

وقدم وفد بني سعد بن بكر على رسول الله (ص) وفيهم: ضمام بن ثعلبة.

قال الراوي: بينما نحن جلوس مع النبي (ص) في المسجد، إذ دخل جماعة ومعهم رجل على جمل فأناخه في المسجد، ثم عقله ثم التفت إلينا وقال: أيكم محمد؟ والنبي (ص) متكيء بين ظهرانينا.

فقلنا وقد أشرنا إليه (ص): هذا.

فالتفت الرجل إليه وقال: يابن عبدالمطلب؟

فقال له النبي (ص): قد أجبتك.

قال الرجل: إني سائلك ومشدد عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك.

فقال (ص): سل عما بدا لك.

قال: أسألك بربّك وربّ من قبلك، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟

فقال (ص): اللهمّ نعم.

فقال: نشدتك بالله، الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟

قال (ص): اللهمّ نعم.

قال: نشدتك بالله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا وتقسّمها على فقرائنا؟

قال (ص): اللهمّ نعم.

فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي مع هذه الجماعة، وأنا

ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر.

فأجازهم رسول الله (ص) كما يجيز كل وفد وأكرمهم، ثم انصرفوا وانصرف معهم الرجل راجعاً إلى بعيره.

فقال رسول الله (ص) حين ولّى: إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنّة، وكان ضمام رجلاً جلداً أشقر ذا غديرتين، ثم أتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج، حتى قدم على قومه بجماعته فاجتمعوا إليه، وكان أول ما تكلّم به أن قال: بئست اللات والعزّى.

فقالوا: مه يا ضمام.

فقال: ويلكم انهما ما يضرّان ولا ينفعان، وإن الله قد بعث رسولاً وقد أنزل عليه كتاباً استنقذكم مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، واني جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

قال الراوي: فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

وفد طارق

وقدم وفد طارق بن عبدالله وقومه، قال طارق: دخلنا المدينة فدخلنا المسجد، فإذا هو (ص) قائم على المنبر يخطب، فأدركنا من خطبته وهو يقول: (تصدّقوا فإن الصدقة خير لكم، اليد العليا خير من اليد السفلى، أُمك وأباك، وأُختك وأخاك).

وفد نجيب

وقدم وفد نُجيب على رسول الله (ص) وهم من السكون ثلاثة عشر رجلاً قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم.

فقال لهم رسول الله (ص): ردّوها فاقسموها على فقرائكم.

فقالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، ثم جعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، ورسول الله (ص) يجيبهم عما يسألونه.

ثم أمر (ص) بلالاً أن يحسن ضيافتهم، فلما أرادوا أن ينصرفوا أمر (ص) بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود.

وقيل: انه (ص) قال: هل بقي منكم أحد؟

قالوا: غلام خلّفناه على رحالنا.

قال (ص): أرسلوه إلينا.

فجاء الغلام فقال: يا رسول الله، إنّ حاجتي ليست كحاجة أصحابي، إني والله ما حملني من بلادي إلا أن تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي.

قال رسول الله (ص): اللهمّ اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه، ثم أمر (ص) له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ووافوا رسول الله (ص) في الموسم بمنى سنة عشر، فقالوا: نحن بنو أيدي.

فقال (ص): ما فعل الغلام الذي أتاني معكم؟

قالوا: يا رسول الله ما رأينا مثله قطّ، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها.

فقال (ص): الحمد لله.

قالوا: فعاش ذلك الرجل فينا على أفضل حال وأزهده في الدنيا وأقنعه بما رزق، فلما توفى رسول الله (ص) ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام قام في قومه، فذكّرهم الله والإسلام.

وفد بني سعد

وقدم وفد بني سعد هذيم بن قضاعة، وهم من أهل اليمن.

وفد بني فزارة

وقدم على رسول الله (ص) وفد بني فزارة بضعة عشر رجلاً، فيهم: خارجة بن حصن، والحر بن قيس بن أخي عيينة بن حصن وهو أصغرهم، فنزلوا في دار بنت الحارث، وجاءوا رسول الله (ص) مقرّين بالإسلام، وهم مسنتون على ركاب عجاف، فسألهم رسول الله (ص) عن بلادهم.

فقال أحدهم: يا رسول الله اسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وجدبت جناننا، وغرث عيالنا، فادع لنا ربّك يغيثنا، وتشفع لنا إلى ربّك.

فصعد رسول الله (ص) المنبر ودعى لهم فكان مما حفظ من دعائه: (اللهمّ اسق عبادك

وانشر رحمتك وأحي بلادك، اللهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً مريحاً مريعاً طبقاً واسعاً عاجلاً غير آجل، نافعاً غير ضارّ، اللهمّ سقيا رحمة لا سقيا عذاب، ولا هدم، ولا غرق، ولا محق، اللهمّ اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء).

فرجعوا وقد استجيب فيهم دعاء رسول الله (ص).

وفد بني أسد

وقدم على رسول الله (ص) وفد بني أسد، وفيهم: وابصة بن معبد وطليحة بن خويلد، ورسول الله (ص) في المسجد مع أصحابه، فتكلّموا وقالوا: يا رسول الله إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وأنّك رسوله وجئناك ولم تبعث إلينا بعثاً، فأنزل الله . على رواية: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ) ([٤٨]) الآية.

وكان مما سألوا رسول الله (ص) عنه: العيافة والكهانة وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك كلّه.

وفد بهراء

وقدم وفد بهراء من اليمن على رسول الله (ص) وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، ونزلوا على المقداد بن عمرو وأقاموا أياماً وتعلموا الفرائض، ثم ودّعوا رسول الله(ص) لينصرفوا إلى بلادهم، وعند توديعهم له (ص) أمر لهم بالجوائز وانصرفوا إلى بلادهم.

وفد عذرة

وقدم وفد عذرة، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم حمزة بن النعمان، فقال رسول الله (ص): من القوم؟

فقال متكلّمهم: ممن لا تنكر، نحن بنو عذرة إخوة قصي لأُمه، نحن الذين عضدوا قصياً وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر، ولنا قرابات وأرحام.

فقال رسول الله (ص): مرحباً بكم وأهلاً، فأسلموا، وبشّرهم رسول الله(ص) بفتح الشام

[٤٨] – الحجرات: ١٧.

وهروب هرقل إلى ممتنع من بلاده، ونهاهم عن سؤال الكاهنة وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها، وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية، ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد أُجيزوا.

وفد بلّي

وقدم وفد بَليّ على رسول الله (ص) فنزلوا على رويفع بن ثابت البلوي، فقال رسول الله (ص): الحمد لله الذي هداكم إلى الإسلام، ثم ودَّعوا رسول الله (ص) بعد أن أجازهم.

وقال (ص) له أبو الضبيب شيخ الوفد: يا رسول الله إنّي رجل فيّ رغبة من الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟

قال (ص): نعم، وكل معروف صنعته إلى غنيّ أو فقير فهو صدقة.

قال: يا رسول الله كم وقت الضيافة؟

قال (ص): ثلاثة أيام، ما كان بعد ذلك فصدقة، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك حتى يحرجك.

وفد ذي مرة

وقدم على رسول الله (ص) وفد ذي مرة، وكانوا ثلاثة عشر، ورئيسهم الحارث بن عرف.

فقال رسول الله (ص): كيف البلاد؟

فقالوا: والله إنا لمسنتون، فادع الله لنا.

فقال (ص): اللهمّ اسقهم الغيث، ثم أقاموا أياماً ورجعوا بالجائزة، ووجدوا بلادهم قد أُمطرت في ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله (ص).

وفد خولان

وقدم على رسول الله (ص) وفد خولان . وكانوا عشرة . مسلمين، فقال(ص): ما فعل صنم خولان الذي كانوا يعبدونه؟

قالوا: أبدلنا الله ما جئت به، إلا أن عجوزاً وشيخاً كبيراً يتمسّكان به، وإن قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله، ثم علمهم فرائض الدين، وأمرهم بالوفاء بالعهد والأمانة وحسن الجوار، وأن لا يظلموا، ثم أجازهم، ورجعوا إلى قومهم وهدموا الصنم.

وفد محارب

وكان ممّن قدم على رسول الله (ص) وفد محارب، وهم عشرة نفر، فيهم سواء بن الحارث وابنه خزيمة وأسلموا، وقيل انه لم يكن أحد أفظّ ولا أغلظ على رسول الله (ص) منهم، وكان في الوفد رجل منهم يعرفه رسول الله (ص) فقال وهو يعلن عن إسلامه: الحمد لله الذي أبقاني حتى صدقت بك.

فقال له رسول الله (ص): إنّ هذه القلوب بيد الله، ومسح وجه خزيمة فصارت له غرة بيضاء، وأجازهم كما يجيز كل وفد، وانصرفوا.

وفد صداء

وقدم وفد صداء على رسول الله (ص) فأسلموا، وهم خمسة عشر رجلاً، فبايعوه على الإسلام ورجعوا إلى قومهم، ففشى فيهم الإسلام، فوافى رسول الله(ص) منهم مائة رجل في حجّة الوداع.

وفد غسان

وقدم وفد غسان على رسول الله (ص) وكانوا ثلاثة نفر، فأسلموا وأجازهم رسول الله (ص) فانصرفوا راجعين، وقالوا: لا ندري أيتبعنا قومنا أم لا؟ فلما قدموا على قومهم دعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم.

وفد سلامان

وقدم وفد سلامان على رسول الله (ص) وهم سبعة نفر، وقيل: هم ستّة عشر نفراً، وعلى رأسهم حبيب السلاماني فأسلموا، وشكوا إليه (ص) جدب بلادهم فدعا لهم، ثم ودعوه وأمر (ص) لهم بالجوائز، فرجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت في تلك الساعة من ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله(ص) بالمطر.

وفد عبس

وقدم مع رسول الله (ص) وفد عبس، فقالوا: يا رسول الله قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواشٍ، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا.

فقال (ص): اتّقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئاً.

وفد بني سليم

وقدم على رسول الله (ص) وفد بني سليم، وفيهم: العباس بن مرداس، فأسلموا وحسن إسلامهم وأمر لهم رسول الله (ص) بالجائزة.

وفد عامر

وقدم وفد عامر على رسول الله (ص)، وكانوا عشرة، فأقروا بالإسلام، وكتب (ص) لهم كتاباً فيه شرائع الإسلام، وأمر أُبيَّ بن كعب فعلّمهم قرآناً وأجازهم (ص) وانصرفوا.

وفد الأزد

وقدم وفد الأزد على رسول الله (ص) وفيهم: سويد بن الحارث، قال: وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله (ص)، فلما دخلنا عليه وكلمناه وأعجبه ما رأى من صمتنا وزيّنا فقال (ص): من أنتم؟

قلنا: قوم من أزد مؤمنون.

فتبسّم رسول الله (ص) وقال: لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانكم؟

قلنا: خمس عشرة خصلة: خمساً أمَرَتْنا رسلك أن نؤمن بها، وخمساً أمرتَنا أن نعمل بها، وخمساً تخلّقنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً.

فقال رسول الله (ص): ما الخمس التي أمرَتْكم رسلي أن تؤمنوا بها؟

قلنا: أن نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت.

قال (ص): وما الخمس التي أمَرْتُكم أن تعملوا بها؟

قلنا: أن نقول لا إله إلا الله، ونقيم الصلاة، ونؤدّي الزكاة، ونصوم شهر رمضان، ونحجّ

البيت من استطاع إليه سبيلاً.

قال (ص): وما الخمس التي تخلّقتم بها في الجاهلية؟

قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء.

فقال (ص): حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، ثم قال(ص): وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة: إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً زائلون، واتّقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا في ما عليه تقدمون وفيه تخلدون.

فانصرف القوم من عند رسول الله (ص) بعد أن أجازهم، وقد حفظوا وصيّته وعملوا بها.

وفد بني المنتفق

وقدم على رسول الله (ص) وفد بني المنتفق: لقيط بن عامر، فإنه خرج ومعه صاحب له يقال له: نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق.

قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا على رسول الله (ص)، فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة، فقام في الناس خطيباً، فقمت أنا وصاحبي إليه وسألته عما عنده من علم الغيب.

فقال (ص): اختص ربكم بمفاتيح خمس من الغيب.

فقلت: ما هنّ يا رسول الله؟

فقال (ص): علم المنية، قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه، وعلم النطفة متى يكون في الرحم، قد علمه ولا تعلمونه، وعلم ما في غد، قد علم ما أنت صانع ولا تعلمه، وعلم يوم الغيث، وعلم الساعة.

قلت: يا رسول الله علمنا مما علّمك الله، فانا من قبيل لا يصدِّق تصديقنا أحد من مذحج التي تربو علينا، وخثعم التي تواليا وعشيرتنا.

قال (ص): تلبثون فيها ما لبثتم، ثم يتوفى نبيكم، ثم تبعث الصائحة، فلا تدع على ظهر الأرض شيئاً إلا مات، وكذلك الملائكة، ثم تحدّث (ص) عن القيامة والآخرة، وعن الثواب

والعقاب، وعن الجنّة والنار.

قال: قلت: يا رسول الله فبم نجزى من حسناتنا وسيّئاتنا؟

قال (ص): الحسنة بعشر أمثالها، والسيّئة بمثلها، إلا أن يعفو الله.

قال: قلت: يا رسول الله ما الجنّة وما النار؟

قال (ص): إن النار لها سبعة أبواب، ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً، وإنّ للجنّة ثمانية أبواب، وعرضها كعرض السماوات والأرض، أعدّها الله للمتّقين من عباده.

قال: قلت: يا رسول الله فعلى مَ نطلع من الجنّة؟

قال (ص): على أنهار من عسل مصفّى، وأنهار من خمر لذّة للشاربين، ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهار من ماء غير آسن، وفاكهة مما تعلمون، وخير من مثله معه، وأزواج مطهّرة.

فقلت: يا رسول الله ما هو أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه؟

قال (ص): ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فقلت: يا رسول الله على مَ أُبايعك؟

فبسط النبي (ص) يده وقال: على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن لا تشرك بالله شيئاً.

وفد النخع

وقدم على رسول الله (ص) وفد النخع في مائتي رجل فنزلوا دار الأضياف، ثم جاءوا رسول الله (ص) مقرّين بالإسلام ومؤمنين بالله وحده لا شريك له، فأكرمهم رسول الله (ص) وأجازهم كما يجيز غيرهم من الوفود، ثم رجعوا إلى قومهم وبلادهم.

وقيل: انه كان رسول الله (ص) قد بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قبل ذلك هو وأبا موسى الأشعري، كل واحد منهما على خلاف (أي: إقليم) ثم قال (ص): يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تخالفا.

وقال (ص) لمعاذ: (إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوك بذلك فأخبرهم أنّ الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك

وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب).

وروي انه (ص) قال لمعاذ: يا معاذ انك تقدم على قوم أهل كتاب، وانهم سائلوك عن مفاتيح الجنّة، فأخبرهم ان مفاتيح الجنّة (لا إله إلا الله) وانها تخرق كل شيء حتى تنتهي إلى الله ولا تحجب دونه، من جاء بها يوم القيامة مخلصاً رجحت بكل ذنب.

فقال معاذ: أرأيت ما سُئلت عنه وأُختصم الي فيه مما ليس في كتاب الله ولم أسمع منك سنة الله؟

فقال (ص): تواضع يرفعك الله، ولا تقضين إلاّ بعلم، فإن أشكل عليك أمر فسَلْ ولا تستحي، واستشر ثم اجتهد، فإن الله إن علم من قلبك الصدق يوفقك، فإن التبس عليك فقف حتى تنتبه أو تكتب إليّ فيه، واحذر الهوى، فإنه قائد الأشقياء، وعليك بالرفق.

سائر الوفود

إلى غير ذلك ممن وفد المدينة وتشرّف باللقاء مع رسول الله (ص) حتى ان بعض أهل السير والتاريخ ذكر مواصفات أكثر من سبعين وفداً قدموا المدينة من مختلف مناطق الحجاز ومن اليمن واليمامة والبحرين وما إلى ذلك.

قيل: انه كان رسول الله (ص) إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك.

فصل

في حجة الوداع

وتسمى: حجة الإسلام، وحجّة البلاغ، وحجة الكمال، وحجة التمام، وذلك انه لما دخل على رسول الله (ص) شهر ذي القعدة من السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة نزل عليه جبرئيل وقال له: يا محمد ان الله عزّوجلّ يقرؤك السلام ويقول لك: إني لم أقبض نبياً من أنبيائي ولا رسولاً من رسلي إلا بعد إكمال ديني وتأكيد حجّتي، وقد بقي عليك من ذاك فريضتان مما تحتاج أن تبلّغهما قومك: فريضة الحج، وفريضة الولاية والخلافة من بعدك، فإني لم أخلُ أرضي من حُجّة، ولن أُخليها أبداً، فإن الله جلّ ثناؤه يأمرك أن تبلّغ قومك الحج وتحج ويحج معك من استطاع إليه سبيلاً من أهل الحضر والأطراف والأعراب، وتعلّمهم من معالم حجّهم مثل ما علّمتهم من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم، وتوقفهم من ذلك على مثال الذي أوقفتهم عليه من جميع ما بلّغتهم من الشرائع.

فنادى منادي رسول الله (ص) في الناس: ألا إن رسول الله (ص) يريد الحج وان يعلّمكم من ذلك مثل الذي علّمكم من شرائع دينكم، ويوقفكم من ذلك على ما أوقفكم عليه من غيره.

ثم تجهّز رسول الله (ص) للحج، وأمر الناس بالجهاز له، فتجهّزوا لذلك، وقد حضر المدينة من ضواحيها ومن جوانبها خلق كثير، فأجمع رسول الله (ص) عندها على الخروج، فخرج مغتسلاً متدهّناً مترجّلاً متجرّداً في ثوبين صحاريين: إزار ورداء، وأخرج (ص) معه نساءه كلهنّ في الهوادج، كما وأخرج معه أهل بيته (فاطمة عليها السلام) وسار معه عامة المهاجرين والأنصار، ومن شاء الله من قبائل العرب وأفناء الناس.

أقول: كنت قد كتبت فيما سبق كتاباً حول كيفية حجه (ص)، ننقله هنا:

هكذا حج رسول الله (ص)

وذلك كما ورد في صحاح الروايات:

وقد وفّقني الله أن أنشره في هذه الكراسة، بإضافة بعض التوضيحات بين قوسين هكذا ( ) كما ألحقنا به صورة إجمالية عن (حجّ التمتّع) وعن (محرمات الإحرام) وذلك على ما استفيد من (السنّة المطهّرة) والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

روى الكليني وشيخ الطائفة (رحمهما الله) بسندهما عن الإمام الصادق(ع): انّ رسول الله (ص) أقام بالمدينة عشر سنين لم يحج.

ثم أنزل الله تعالى عليه: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) ([٤٩]).

فأمر المؤذنين أن يؤذنوا بأعلى أصواتهم: أنّ رسول الله (ص) يحج في عامه هذا.

فعلم به من حضر المدينة، وأهل العوالي والأعراب، فاجتمعوا لحج رسول الله (ص).

وانما كانوا تابعين، ينظرون ما يؤمرون به فيتبعونه، أو يصنع شيئاً فيصنعونه.

العمرة وأعمالها

فخرج رسول الله (ص) في أربع بقين من ذي القعدة فلما انتهى إلى ذي الحُليفة، فزالت الشمس..

١ ـ اغتسل (وفي حديث آخر: لبس لباس الإحرام).

ثم خرج حتى أتى المسجد الذي عند الشجرة، فصلّى فيه الظهر.

ثم خرج حتى انتهى إلى البيداء (وهي صحراء قريبة من مسجد الشجرة) عند الميل الأول، فصفّ الناس له سماطين.

٢ ـ فأحرم، وأهلّ بالحجّ (أي: قال التلبية) وساق مائة بدنة (أي: ناقة) وقيل: ستاً وستّين بدنة، أو أربعاً وستين.

حتى انتهى (ص) إلى مكة، في أربع مضين من ذي الحجّة.

---

[٤٩] – الحج: ٢٧.

٣ ـ فطاف بالبيت سبعة أشواط.

٤ ـ ثم صلّى (ص) ركعتين خلف مقام إبراهيم (ع).

ثم عاد إلى الحجر فاستلمه، وقد كان استلمه في أول طوافه.

٥ ـ ثم قال: إنّ الصفا والمروة من شعائر الله، فبدأ بما بدأ الله عزّ وجل به.

وان المسلمين كانوا يظنون: ان السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون. فأنزل الله عزّ وجل: (إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما) ([٥٠]).

ثم أتى (ص) الصفا، فصعد عليه، واستقبل الركن اليماني، فحمد الله وأثنى عليه، ودعا مقدار ما يقرأ سورة البقرة مترسّلاً.

ثم انحدر إلى المروة فوقف عليها، كما وقف على الصفا.

ثم انحدر وعاد إلى الصفا، فوقف عليها.

ثم انحدر إلى المروة، حتى فرغ من سعيه.

فلما فرغ من سعيه، وهو على المروة أقبل على الناس بوجهه، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: إن هذا جبرئيل. وأومأ بيده إلى خلفه. يأمرني أن آمر من لم يسق منكم هدياً:

٦ ـ أن يحل (والإحلال بالحلق لبعض الشعر أو التقصير).

ولو استقبلت من أمري ما استدبرت، لصنعت مثل ما أمرتكم، ولكنّي سقت الهدي ولا ينبغي لسائق الهدي أن يحلّ، حتى يبلغ الهدي محلّه (أي: في منى حيث يذبح الهدي) انّ الله عزّ وجل يقول: (وَلا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) ([٥١]).

قال: فقال له رجل من القوم: انخرج حُجّاجاً وشعورنا تقطر؟

فقال له رسول الله (ص): أما انك لن تؤمن بهذا أبداً؟ (أي: لن تؤمن بحج التمتّع).

فقال له سراقة بن مالك بن جشعم الكناني: يا رسول الله علمنا ديننا، كأننا خلقنا اليوم. فهذا الذي أمرتنا به، ألعامنا هذا أم ولما يستقبل؟ (أي: حج التمتع في هذه السنة أو في كلّ سنة؟).

---

[٥٠] – البقرة: ١٥٨.

[٥١] – البقرة: ١٩٦.

فقال له رسول الله (ص) وقد أنزل الله آية التمتّع: (فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) ([٥٢]): بل هو للأبد إلى يوم القيامة.

ثم شبك (ص) بين أصابعه وقال: دخلت العمرة في الحج هكذا إلى يوم القيامة (أي: ان الحج صار حج تمتع، حيث ان عمرته وحجه يؤتيان معاً، الأول: العمرة، الثاني: الحج).

قال: وقدم علي (ع) من اليمن، على رسول الله (ص) وهو بمكة.

فوافى الحج، فوجد فاطمة (ع)، وقد أحلّت، ووجد ريحاً طيّباً، ووجد عليها ثياباً مصبوغة.

فقال (ع): ما هذا يا فاطمة؟ (أي: كيف أحللتم؟).

فقالت (ع): أمرنا بهذا رسول الله (ص).

فخرج علي (ع) إلى رسول الله (ص) مستفتياً؟ (لأن علياً (ع) كان قد أحرم، وطاف، وصلّى، وسعى.. ثم أراد أن يسأل رسول الله (ص)، هلى يبقى في إحرامه، أو يحل؟).

فقال: يا رسول الله إني رأيت فاطمة قد أحلّت وعليها ثياب مصبوغة؟

فقال رسول الله (ص): اني أمرت الناس بذلك.

فأنت يا علي بما أهللت؟ (أي هل اهللت بالحج، أو بالعمرة؟).

فقال: يا رسول الله إهلالاً كإهلال النبي (ص) (أي: اني قصدت أن أحرم كإحرام الرسول (ص)).

فقال له رسول الله (ص): قرّ على إحرامك، وأنت شريكي في هديي.

الحج ومناسكه

قال: ونزل رسول الله (ص) هو وأصحابه بمكة، بالبطحاء، ولم ينزل الدور، فلما كان يوم التروية (ثامن ذي الحجّة) عند زوال الشمس.

١ ـ أمر الناس أن يغتسلوا، ويهلّوا بالحج (أي: يقولوا التلبية) وهو قول الله عزّوجل الذي أنزله على نبيّه (ص): (فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً) ([٥٣]). فخرج النبي (ص) وأصحابه مهلّين

---

[٥٢] – البقرة: ١٩٦.

[٥٣] – آل عمران: ٩٥.

بالحج، حتى أتى إلى منى. فصلّى الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر (أي بقوا ليلة التاسع في منى).

ثم غدا والناس معه. وكانت قريش تفيض من المزدلفة وهي جمع (أي: المشعر) ويمنعون الناس أن يفيضوا منها (أي: أن يجعلوا طريقهم إلى عرفات، من المشعر).

فأقبل رسول الله (ص) وقريش ترجو أن تكون إفاضته من حيث كانوا يفيضون، فأنزل الله عزّ وجل عليه: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ) ([٥٤]) يعني: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق (عليهم السلام) في إفاضتهم منها، ومن كان بعدهم (أي: كلهم كانوا يفيضون ويذهبون إلى عرفات من غير طريق المشعر).

فلما رأت قريش انّ قبّة رسول الله (ص) قد مضت، كأنه دخل في أنفسهم شيء للذي كانوا يرجون من الإفاضة من مكانهم.

حتى انتهى (ص) إلى (نمرة) وهي بطن (عرفة) بجبال (الاراك). فضرب (ص) قبته، وضرب الناس أخبيتهم عندها.

٢ ـ فلما زالت الشمس (أي: ظهر يوم عرفة، وهو تاسع ذي الحجة). خرج رسول الله (ص) ومعه قريش، وقد اغتسل، وقطع التلبية. حتى وقف بالمسجد، فوعظ الناس، وأمرهم ونهاهم، ثم صلّى الظهر والعصر بأذان وإقامتين، ثم مضى إلى الموقف، فوقف به.

فجعل الناس يبتدرون إخفاف ناقته، يقفون إلى جانبها، فنحّاها، ففعلوا مثل ذلك. فقال (ص): أيها الناس ليس موضع إخفاف ناقتي بالموقف، ولكن هذا كله.ـ وأومأ إلى الموقف بيده ـ فتفرّق الناس.

وفعل مثل ذلك بالمزدلفة (أي: أعلمهم ان الموقف: المشعر كله) فوقف الناس بالدعاء حتى وقع القرص (قرص الشمس).

٣ ـ ثم أفاض (ص) وأمر الناس بالدعة، حتى انتهى إلى المزدلفة، وهو المشعر الحرام.. فصلّى المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين.

ثم أقام حتّى صلّى فيها الفجر. وعجل ضعفاء بني هاشم بليل، وأمرهم أن لا يرموا الجمرة: جمرة العقبة حتى تطلع الشمس.

---

[٥٤] – البقرة: ١٩٩.

٤ . فلما أضاء النهار أفاض حتى انتهى إلى منى.

٥ . فرمى جمرة العقبة.

٦ . وكان الهدي الذي جاء به رسول الله (ص) مائة بدنة، وقيل: أربعة وستين أو ستة وستين، فأشرك (ص) علياً (ع) في الهدي.

وقيل: انه جاء علي (ع) بأربعة وثلاثين أو ستة وثلاثين (ولعل علياً (ع) جاء بها من اليمن).

فنحر رسول الله (ص) ثلاثاً وستّين، وقيل: ستة وستين، ونحر علي (ع) سبعاً وثلاثين، وقيل: أربعاً وثلاثين بدنة.

وأمر رسول الله (ص) أن يؤخذ من كل بدنة منها جذوة (أي: قطعة) من لحم، ثم تطرح في برمة، ثم تطبخ، فأكل رسول الله (ص) وعلي (ع) وتحسّيا من مرقها، ولم يعط الجزارين جلودها، ولا جلالها، ولا قلائدها، وتصدّق به.

٧ . وحلق (ص).

٨ . وزار (ص) البيت (أي: طاف للزيارة، وصلّى صلاة الطواف، وسعى، وطاف طواف النساء، وصلّى صلاة الطواف).

٩ . ورجع (ص) إلى منى، وأقام بها، حتى كان اليوم الثالث من أيام التشريق.

١٠ . ثم رمى (ص) الجمرات (أي: رماهنّ، في كل يوم).

هكذا حج رسول الله (ص) كما في الروايات الصحيحة.

حج التمتع

وإليك موجزاً من صورة (حج التمتع) ([٥٥]):

١ . الإحرام، لعمرة التمتع.

٢ . الطواف لعمرة التمتع.

٣ . ركعتان للطواف لعمرة التمتع.

٤ . السعي لعمرة التمتع.

---

[٥٥] – أي: الحج مع العمرة.

٥ . التقصير لعمرة التمتع.

٦ . الإحرام، لحج التمتع.

٧ . الوقوف بعرفات لحج التمتع.

٨ . الوقوف بالمشعر لحج التمتع.

٩ . الإفاضة إلى منى لحج التمتع.

١٠ . الرمي لجمرة العقبة لحج التمتع.

١١ . النحر، أو الذبح لحج التمتع.

١٢ . الحلق، أو التقصير لحج التمتع.

١٣ . الطواف، لحج التمتع.

١٤ . ركعتان للطواف لحج التمتع.

١٥ . السعي لحج التمتع.

١٦ . طواف النساء لحج التمتع.

١٧ . ركعتان لطواف النساء لحج التمتع.

١٨ . المبيت بمنى.

١٩ . رمي الجمرات الثلاث، بمنى، كل يوم.

محرمات الإحرام

وإليك محرمات الإحرام:

١ . صيد حيوان البر.

٢ . النساء.

٣ . عقد النكاح.

٤ . الإستمناء.

٥ . استعمال الطيب.

٦ . لبس المخيط للرجال.

٧ . الإكتحال.

٨ . النظر في المرآة.

٩ ـ لبس الخف وكل ما يستر ظهر القدم.

١٠ ـ الفسوق، الكذب، السباب، المفاخرة.

١١ ـ الجدال، أي مطلق اليمين، احتياطاً.

١٢ ـ قتل هوام البدن.

١٣ ـ التختم للزينة، بل مطلق الزينة.

١٤ـ تغطية الرجل رأسه.

١٥ ـ تغطية المرأة وجهها.

١٦ ـ التدهين.

١٧ ـ إزالة الشعر.

١٨ ـ إخراج الدم.

١٩ ـ قلع الضرس.

٢٠ ـ تقليم الظفر.

٢١ ـ التظليل للرجال، حال السير.

٢٢ ـ قطع شجر الحرم.

٢٣ ـ حمل السلاح.

من حوادث حجّة الوداع

وروي انه لما تجهّز رسول الله (ص) إلى الحج كتب إلى علي (ع) ـ وقد بعثه في سرية إلى اليمن ـ بأن يخرج ومن معه إلى الحج أيضاً، فلما قارب رسول الله(ص) مكة من طريق المدينة، قاربها علي (ع) من طريق اليمن، فتقدّم علي (ع) الجيش للقاء النبي (ص) وخلّف عليهم رجلاً منهم، فأدرك النبي (ص) وقد أشرف على مكة، فسلّم عليه وعرض عليه أخباره، ثم أخبره بأنه أقبل مع الجيش وتقدم عليهم للقائه، فسرّ رسول الله (ص) ذلك وابتهج بلقائه وقال له: بم أهللت يا علي؟

فقال (ع): عقدت نيّتي بنيّتك يا رسول الله وقلت لما أحرمت: اللهمّ اهلالاً كإهلال نبيّك.

فقال له رسول الله (ص): أنت شريكي في حجّي ومناسكي وهديي ـ وكان رسول الله

(ص) قد ساق الهدي معه . ثم قال له: أقم على إحرامك، وعد إلى جيشك فعجّل بهم إليّ حتى نجتمع بمكة إن شاء الله تعالى.

في موقف عرفات

ولما كان رسول الله (ص) في الموقف بعرفات ومعه المسلمون وصلّى بهم الظهر والعصر معاً عند زوال الشمس بلا أن يصلّ بينهما شيئاً، وقيل: لما نزلت سورة: (إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ) ([٥٦]) وذلك في أوسط أيام التشريق وعرف رسول الله (ص) انه الوداع ..ركب راحلته العضباء فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس: انّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى أن تلقوا ربّكم..

أيّها الناس: كل دم كان في الجاهلية فهو هدر، وكل ربا كان في الجاهلية فموضوع.

أيها الناس ان الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرضين، وانّ عدّة الشهور عند الله اثناعشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم: رجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرّم، فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم، فإن النسيء زيادة في الكفر يُضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله . وكانوا يحرّمون المحرّم عاماً ويستحلّون صفر، ويحرّمون صفر عاماً ويستحلّون المحرم ..

أيها الناس: ان الشيطان قد يئس أن يعبد في بلادكم آخر الأبد، ورضي منكم بمحقّرات الأعمال.

أيها الناس: انكم ستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كانت عنده وديعة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها.

أيها الناس: ان النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ ضراً ولا نفعاً، أخذتموهنّ بأمانة

---

[٥٦] – النصر: ١.

الله واستحللتم فروجهنّ بكلمات الله، فلكم عليهنّ حق، ولهنّ عليكم حق، ومن حقكم عليهنّ أن لايوطئنّ فرشكم، ولايعصينّكم في معروف، فإذا فعلن ذلك فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، ولا تضربوهنّ.

أيها الناس: اني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا أبداً: أمراً بيّناً كتاب الله عزّوجل وعترتي أهل بيتي.

أيها الناس: ألا فليبلّغ شاهدكم غائبكم: انه لا نبيّ بعدي، ولا أُمّة بعدكم، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد انّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت.

فقال (ص): اللهمّ اشهد، اللهمّ اشهد، ثلاث مرات.

عند مسجد الخيف

ثم ان رسول الله (ص) لما وقف بمنى ومعه المسلمون خطب الناس في مسجد الخيف وهو مسجد منى، سمّي بذلك لأنه واقع في سفح جبل، مرتفعاً عن مجرى السيل.

فقال (ص) بعد الحمد والثناء على الله تعالى: (نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبّلغها من لم يبلغه، يا أيها الناس ليبلّغ الشاهد الغائب، فربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه).

ثم قال (ص): (ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئٍ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمّة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمّتهم أدناهم).

آخر أيام التشريق

ولما كان اليوم الثالث من آخر أيام التشريق رمى رسول الله (ص) الجمار ونفر من منى حتى انتهى إلى الأبطح، ثم ارتحل من يومه وخرج من أسفل مكة من ذوي طوى، بعد أن دخل مكة من أعلاها من عقبة المدنيّين، فخرج (ص) متوجهاً نحو المدينة، وذلك بعد أن استتم حجه، وقضى مناسكه، وعرّف الناس ما يحتاجون إليه، وأعلمهم بأنه قد أقام لهم سنّة إبراهيم (ع) وأزال عنهم ما أحدثه المشركون.

في المناقب عن ابن عباس انه قال: لما نزل قوله تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) ([٥٧]) قال رسول الله (ص): ليتني أعلم متى يكون ذلك! هذا وهو (ص) يعلم الغيب بإذنه تعالى ووحيه. فنزلت سورة النصر، فكان بعد نزولها يسكت رسول الله (ص) بين التكبير والقراءة ثم يقول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه).

فقيل له في ذلك، فقال: (اما انّ نفسي نعيت إليَّ) ثم بكى بكاءاً شديداً.

فقيل: يا رسول الله أوَتبكي من الموت وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟

فقال (ص): فأين هول المطّلع؟ وأين ضيقة القبر، وظلمة اللحد؟ وأين القيامة والأهوال؟([٥٨])

ثم قال: فعاش (ص) بعد نزول هذه السورة عاما([٥٩]).

ثم نزلت آيات وآيات حتى إذا لم يبق على ارتحال رسول الله (ص) من هذه الدنيا سوى سبعة أيام نزلت: (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) ([٦٠]).

فكانت هذه الآية ـ على بعض الروايات ـ هي آخر آية من القرآن الكريم نزل بها جبرائيل (ع) على رسول الله (ص) وقال له: ضعها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة([٦١])، كما انّ أول آية من القرآن كان قد نزل بها جبرئيل(ع) على رسول الله (ص) هي قوله تعالى: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) ([٦٢]) الآيات.

فأول آية من القرآن ابتدأ بأول يوم من البعثة النبوية الشريفة، وآخر آية من آيات القرآن اختتم الأيام الأخيرة لرسول الله (ص) وما بينهما من فترة كان نزول ما بين هاتين الآيتين،

---

[٥٧] – الزمر: ٣٠.

[٥٨] – أراد النبي (ص) الإلماع إلى الأهوال لا أنه (ص) يبتلى بها.

[٥٩] – راجع بحار الأنوار: ج٢٢ ص٤٧١ ب١ ح٢٠.

[٦٠] – البقرة: ٢٨١.

[٦١] – تفسير شبّر (قدس سره): ص٨٣.

[٦٢] – العلق: ١.

وتلك الفترة استغرقت مدة ثلاث وعشرين سنة.

مَن جمع القرآن؟

وهنا ما يلفت النظر ويجلب الإنتباه وهو قول جبرئيل للنبي (ص) عند نزوله بالآية الأخيرة .كما في الرواية .: ضعها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة، فإنه صريح في انّ الله تعالى أمر نبيّه بجمع القرآن وبترتيبه ترتيباً دقيقاً حتى في مثل ترقيم الآيات، وقد فعل النبي (ص) ذلك في حياته (ص) كما أمره الله تعالى، ولم يكن (ص) يترك القرآن متفرّقاً حتى يجمع من بعده.

وهل يمكن للرسول (ص) مع كبير اهتمامه وكثير حرصه على القرآن الكريم أن لا يقوم بجمع القرآن وترتيبه! وأن يتركه مبعثراً في أيدي المسلمين ويوكل جمعه إليهم، مع ان الوحي أخبره بقوله: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)([٦٣]).

فهل يصح أن يكون (ص) حريصاً على القرآن من جهة([٦٤]) وأن لا يجمع القرآن ويتركه مبعثراً من جهة أُخرى؟

بل أليس القرآن هو دستور الإسلام الخالد، ومعجزته الباقية على مرّ القرون والأعصار إلى يوم القيامة؟ ومعه هل يصح أن يتركه النبي (ص) مبعثراً من دون أن يجمعه؟!

أم كيف يأذن الله تعالى لنبيّه بأن لا يقوم بجمعه مع انه تعالى يقول: (إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) ([٦٥]) ويقول تعالى أيضاً: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ([٦٦]).

فعلى النبي (ص) إبلاغ القرآن مجموعاً ومرتّباً إلى الناس كافة، كما جمعه الله تعالى ورتّبه.

إذن: فهذا القرآن الذي هو بأيدينا على ترتيبه وجمعه، وترقيم آياته، وترتيب سوره وأجزائه هو بعينه القرآن الذي رتّبه رسول الله (ص) وجمعه للمسلمين في حياته (ص) بأمر من الله

---

[٦٣] – الزمر: ٣٠.

[٦٤] – حتى انه (ص) كان يأمر بحفظ القرآن والاهتمام به والتحريض على تلاوته والعمل به، وخاصة في أيامه الأخيرة، حيث كان يقول مراراً: إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً.

[٦٥] – القيامة: ١٧.

[٦٦] – الحجر: ٩.

تعالى لم يطرأ عليه أيّ تغيير وتحريف، أو تبديل وتعديل، أو زيادة ونقصان.

ويؤيّده: ما روي عن تفسير علي بن ابراهيم عن الإمام الصادق (ع) عن رسول الله (ص) انه أمر علياً (ع) بجمع القرآن وقال (ص): يا علي، القرآن خلف فراشي في المصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التوراة، فانطلق علي (ع) فجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه([٦٧]).

وفي مجمع البيان نقلاً عن السيّد المرتضى انه قال: إن القرآن جمع في عهد رسول الله (ص) بالشكل الذي هو اليوم بأيدينا. وقال بمقالته قبله الشيخ الصدوق (قده) والشيخ المفيد (قده)، وقال بمقالته بعده شيخ الطائفة الشيخ الطوسي (قده) والمفسّر الكبير الشيخ الطبري (قده) المتوفى سنة ٥٤٨ وباقي علماءنا الأبرار إلى يومنا هذا.

وعن زيد بن ثابت انه قال: كنّا نجمع القطع المتفرّقة من آيات القرآن ونجعلها بأمر رسول الله (ص) في مكانها المناسب، ولكن مع ذلك كانت الآيات متفرّقة، فأمر رسول الله (ص) علياً (ع) أن يجمعها في مكان واحد، وحذّرنا من تضييعها.

وعن الشعبي انه قال: جمع القرآن في عهد رسول الله (ص) من قبل ستّة نفر من الأنصار.

وعن قتادة انه قال: سألت أنساً عن انه من جمع القرآن في عهد رسول الله (ص)؟ فقال: أربعة نفر من الأنصار ثم ذكر أسماؤهم.

وعن علي بن رباح: ان علي بن أبي طالب (ع) جمع القرآن هو وأُبي بن كعب في عهد رسول الله (ص).

الشواهد الأُخرى

هذا بالإضافة إلى شواهد ومؤيّدات أُخرى تدل على ان القرآن الذي هو بأيدينا هو نفسه الذي جمع ورتب في عهد رسول الله (ص) من غير زيادة ولا نقيصة.

منها: تسمية سورة الحمد بسورة الفاتحة في عهد رسول الله (ص) يعني انها فاتحة القرآن مع انها لم تكن السورة ولا الآيات الأُولى التي نزل بها الوحي على رسول الله (ص)، فتسميتها

---

[٦٧] – بحار الأنوار: ج٨٩ ص٤٨ ب٧ ح٧ ط بيروت.

بفاتحة الكتاب في عهده (ص) يشير إلى ان الكتاب كان مجموعاً بهذا الشكل الموجود بأيدينا اليوم، وسورة الحمد فاتحته كما هو اليوم فاتحته أيضاً.

ومنها: ان النبي (ص) كان يقول في حديث الثقلين المروي عن الفريقين متواتراً: (إنّي مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً).

فالكتاب المجموع والمرتب يخلّفه رسول الله (ص) في أُمته، لا الآيات المتفرّقة، إذ لا يطلق عليها الكتاب، وقد سبق الله تعالى رسوله(ص) في هذا التعبير حيث أطلق مراراً وفي آيات متعدّدة كلمة (الكتاب) على القرآن، إشارة إلى انه مجموع ومرتّب عنده تعالى في اللّوح المحفوظ .كما قال به بعض المفسّرين . وانه تعالى أطلع رسوله (ص) على جمعه وترتيبه لديه وأمره بأن يجمع القرآن على ما هو مجموع في اللّوح المحفوظ، ويرتّبه وفق ترتيبه، وفعل النبي (ص) ذلك.

ومنها: ما ورد من أمر النبي (ص) بختم القرآن في شهر رمضان وفي غيره من سائر الأيام، وبيان ما لختمه من الفضيلة والثواب، حتى ان عبدالله بن مسعود، وأُبي بن كعب وغيرهما قد ختموا القرآن عند رسول الله (ص) عدّة مرات، ولولا ان القرآن مجموع ومرتّب، لم يكن لختم القرآن معنى، لأن الختم يقال لما يبدأ من أوله وينتهي بآخره.

ومنها: روايات تأمر بعرض الأحاديث المروية عن الرسول (ص) وعن أهل بيته (عليهم السلام) لمعرفة غثها من سمينها على القرآن الكريم وتقول: ما وافق كتاب الله فقد قاله رسول الله (ص) وقاله أهل البيت (عليهم السلام)، وما خالف الكتاب فهو زخرف وباطل، وانهم لم يقولوه، فقد أحالتنا هذه الروايات إلى هذا القرآن الذي هو بأيدينا لمعرفة الحق من الباطل مما يدل على سلامته من كل زيادة ونقيصة، وتبديل وتحريف، وإلا لم يصح أن يكون مرجعاً لمعرفة الحق من الباطل.

ومنها: ما ورد من ان القرآن كله كان مكتوباً موضوعاً بين المحراب والمنبر، وكان المسلمون يكتبون منه.

ومنها: ما ورد من ان جبرئيل (ع) كان يعرض القرآن على رسول الله (ص) كل عام مرّة، وعرضه عليه (ص) في عامه الأخير مرتين.

ومنها: ما روي من ان جماعة من الصحابة كانوا قد حفظوا القرآن كله في عهد رسول الله (ص).

ولا يخفى ذلك على من راجع تفسير القرآن للعلاّمة البلاغي (قدس سره)، ولوالدي (رحمه الله) ([٦٨]) كلمة حول ذلك طبعت في إحدى أعداد (أجوبة المسائل الدينية) في كربلاء المقدّسة.

هذا بالإضافة إلى انّ هناك آيات وروايات تشير إلى ان القرآن نزل على رسول الله (ص) مرّتين: مرّة نزل بمجموعه على قلب رسول الله (ص) كما قال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) ([٦٩]) ومرّة نزل عليه نجوماً ومتفرّقاً عبر ثلاث وعشرين سنة في المناسبات والقضايا المتفرّقة، والنبيّ (ص) قد وعى قلبه القرآن الذي نزل عليه أوّلاً مجموعاً ومرتّباً، فجمع القرآن الذي نزل عليه ثانياً نجوماً ومتفرّقاً حسب جمع القرآن الأول، ورتبه وفق ترتيبه، وهو بعينه القرآن الذي هو اليوم بأيدينا.

إلى غير ذلك مما يشير بمجموعه إلى انّ هذا القرآن الذي هو اليوم بأيدينا هو القرآن الذي جمع بأمر من الله ورسوله (ص) في عهد رسول الله (ص) لم يزدد حرفاً ولم ينقص حرفاً، ولم يتغيّر شيء منه ولم يتبدّل أبداً، كيف وقد قال تعالى: (لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ) ([٧٠]).

---

[٦٨] – آية الله العظمى السيد ميرزا مهدي الشيرازي (قدس سره).

[٦٩] – القدر: ١.

[٧٠] – فصّلت: ٤٢.

فصل

في الولاية والإمامة

مهمة تبليغ الرسالة

ولما انصرف رسول الله (ص) من حجة الوداع والمسلمون معه وهم على بعض الروايات زهاء مائتي ألف نسمة، سار (ص) نحو المدينة حتى إذا كان اليوم الثامن عشر من ذي الحجة وصل إلى غدير خم من الجحفة التي تتشعّب فيها طرق المدنيين عن غيرهم، ولم يكن هذا المكان بموضع إذ ذاك يصلح للنزول، لعدم الماء فيه والمرعى، فنزل عليه الأمين جبرئيل عن الله بقوله تعالى: (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)([٧١]).

وكان نزوله هذا بهذا الشأن هي المرة الثالثة، فقد نزل عليه (ص) قبلها مرّتين . وذلك للتأكيد .: مرة عند وقوفه بالموقف، وأُخرى عند كونه في مسجد الخيف، وفي كل منهما يأمره بأن يستخلف عليّ بن أبي طالب (ع)، وأن يسلّم إليه ما عنده من العلم وميراث علوم الأنبياء (عليهم السلام) وجميع ما لديه من آياتهم، وأن يقيمه علماً للناس، ويبلّغهم ما نزل فيه من الولاية، وفرض الطاعة على كل أحد، ويأخذ منهم البيعة له على ذلك، والسلام عليه بإمرة المؤمنين، ورسول الله(ص) يسأل جبرئيل أن يأتيه من الله تعالى بالعصمة، وفي هذه المرة نزل عليه بهذه الآية الكريمة التي فيها: (والله يعصمك من الناس).

وكان أوائل القوم، عند نزول جبرئيل بهذه الآية التي أمرت رسول الله(ص) في تبليغ ما أُنزل إليه في علي (ع)، قريباً من الجحفة، فأمر رسول الله (ص) بالتوقّف عن المسير وأن يردّ من تقدّم من القوم ويحبس من تأخّر عنهم في ذلك المكان، فنزل (ص) ونزل المسلمون حوله، وكان يوماً قايظاً شديد الحرّ، فأمر بدوحات هناك فقمّ ما تحتها وأمر بجمع الرحال فيه، ووضع بعضها فوق بعض.

ثم أمر (ص) مناديه فنادى في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمعوا إليه وان الرجل منهم ليضع بعض ردائه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدّة الحرّ، فلما اجتمعوا صعد (ص) على تلك الرحال حتى صار في ذروتها، ودعا علياً (ع) فرقى معه حتى قام عن يمينه ثم

---

[٧١] – المائدة: ٦٧.

خطب (ص) الناس خطبة بليغة لم يسمع الناس بمثلها فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ فأبلغ الموعظة، ونعى إلى الأُمّة نفسه، وأشار إلى أمر الإستخلاف فنصب علياً (ع) بأمر من الله تعالى خليفة عليهم بعده، وقال في آخرها ما يلي:

مقتطفات من حديث الغدير

معاشر الناس! ان الله أوحى إليّ يقول: (يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين).

وأنا مبيّن لكم سبب نزول هذه الآية: انّ جبرئيل هبط عليّ مراراً ثلاثاً يأمرني عن ربّي جلّ جلاله أن أقوم في هذا المشهد، فأُعلم كل أبيض وأسود، انّ علي بن أبي طالب أخي ووصيّي وخليفتي على أُمّتي، والإمام من بعدي، وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة من الناس وهو الله الكافي الكريم.

فاعلموا معاشر الناس! ان الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً مفترضاً طاعته على المهاجرين والأنصار، وعلى التابعين لهم بإحسان، وعلى البادي والحاضر وعلى الأعجمي والعربي، والحر والمملوك، وعلى كل موحّد.

معاشر الناس! انه آخر مقام أقومه في هذا المشهد، فاسمعوا وأطيعوا، وانقادوا لأمر ربّكم، فإنّ الله هو مولاكم وإلهكم، ثم من بعده رسوله محمّد وليّكم القائم المخاطب لكم، ثم من بعدي علي وليّكم وإمامكم بأمر ربّكم، ثم الإمامة في ذرّيتي من ولده إلى يوم تلقون الله ورسوله، لا حلال إلاّ ما أحلّه الله، ولا حرام إلاّ ما حرّمه الله، عرّفني الله الحلال والحرام وأنا أفضيت لما علّمني ربّي من كتابه وحلاله وحرامه إليه.

معاشر الناس! ما من علم إلاّ وقد أحصاه الله فيّ، وكل علم علّمت فقد أحصيته في إمام المتّقين، وما من علم إلا عَلَّمته علياً والمتّقين من ولده.

معاشر الناس! لا تضلّوا عنه، ولا تنفروا منه، ولا تستنكفوا من ولايته، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به، ويزهق الباطل وينهى عنه، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

معاشر الناس! فضّلوه فقد فضّله الله، واقبلوه فقد نصبه الله.

معاشر الناس! انّ علياً والطيّبين من ولده هم الثقل الأصغر، والقرآن هو الثقل الأكبر، وكل واحد منبيء عن صاحبه، وموافق له، لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، هم أُمناء الله في

خلقه، وحكماؤه في أرضه، ألا وقد أدّيت، ألا وقد بلّغت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت، ألا وان الله عزّوجل قال، وأنا قلت عن الله عزّوجل: ألا انه ليس أمير المؤمنين غير أخي هذا، ولا تحلّ إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره.

ثم ضرب بيده على عضد علي فرفعه وقال:

معاشر الناس! هذا أخي ووصيّي، وواعي علمي، وخليفتي على أُمَّتي وعلى تفسير كتاب الله عزّوجل، والداعي إليه، والعامل بما يرضاه، والمحارب لأعدائه، والموالي على طاعته، والناهي عن معصيته، خليفة رسول الله، وأمير المؤمنين، والإمام الهادي، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بأمر الله، أقول وما يبدّل القول لديّ بأمر ربّي أقول: اللهمّ والِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من أنكره، واغضب على من جحد حقّه، اللهمّ انك أنزلت عليّ: ان الإمامة بعدي لعليّ وليّك، اللهمّ انّي أُشهدك وكفى بك شهيداً اني قد بلّغت.

معاشر الناس! انما أكمل الله عزّ وجل دينكم بإمامته، هذا علي أنصركم لي، وأحقّكم بي، وأقربكم إليّ، وأعزّكم عليّ، والله عزّ وجل وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضىً إلا فيه، وما خاطب الله الذين آمنوا إلاّ بدأ به، ولا نزلت آية مدح في القرآن إلا فيه، ولا شهد بالجنّة في (هَلْ أَتى عَلَى الإِنْسانِ) ([٧٢]) إلاّ له، ولا أنزلها في سواه، ولا مدح بها غيره.

معاشر الناس! نبيّكم خير نبيّ، ووصيّكم خير وصيّ، وبنوه خير الأوصياء.

معاشر الناس! ذرّية كلّ نبيّ من صلبه، وذريّتي من صلب علي.

معاشر الناس! انّ الله قد أمرني ونهاني، وقد أمرتُ علياً ونهيته، فعلم الأمر والنهي من ربّه عزّوجل، فاسمعوا لأمره تسلموا، وأطيعوا تهتدوا، وانتهوا لنهيه ترشدوا، وصيروا إلى مراده، ولا تتفرّق بكم السبل عن سبيله.

معاشر الناس! أنا صراط الله المستقيم الذي أمركم باتباعه، ثم عليّ من بعدي، ثم ولدي من صلبه أئمّةً يهدون إلى الحقّ وبه يعدلون، ألا انّ أعداء علي هم أهل الشقاق والنفاق، والحادّون، وهم العادون، وإخوان الشياطين الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

---

[٧٢] – الإنسان: ١.

معاشر الناس! ألا وانّي منذر، وعليّ هاد.

معاشر الناس! انّي نبيّ، وعليّ وصيّ، ألا انّ خاتم الأئمّة منّا القائم المهدي.

معاشر الناس! قد بيّنت لكم وأُفهمتكم، وهذا علي يفهمكم بعدي، ألا واني عند انقضاء خطبتي أدعوكم إلى مصافقتي على بيعته، والإقرار به، ثم مصافقته بعدي، ألا واني قد بايعتُ الله، وعليّ قد بايعني، وأنا آخذكم بالبيعة له عن الله عزّ وجلّ (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ) ([٧٣]).

معاشر الناس! وكلّ حلال دللتكم عليه، أو حرام نهيتكم عنه، فإني لم أرجع عن ذلك ولم أُبدّل، ألا فاذكروا ذلك واحفظوه، وتواصوا به، ولا تبدلوه ولا تغيّروه، ألا فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وامروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ألا وانّ رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن تنتهوا إلى قولي وتبلّغوه من لم يحضر، وتأمروه بقبوله، وتنهوه عن مخالفته، فإنه أمر من الله عزّوجلّ ومنّي، ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر إلاّ مع إمام معصوم.

معاشر الناس! فما تقولون؟ قولوا الّذي قلت، وسلّموا على عليٍّ بإمرة المؤمنين، وقولوا: سمعنا وأطعنا، وقولوا: الحمد لله الّذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

معاشر الناس! انّ فضائل عليّ عند الله عزّوجل الذي قد أنزلها في القرآن أكثر من أن أُحصيها في مكان واحد، فمن أنبأكم بها فصدِّقوه.

معاشر الناس! من يطع الله ورسوله وعلياً أمير المؤمنين والأئمّة من ولده فقد فاز فوزاً عظيماً.

فناداه القوم: سمعنا وأطعنا أمر الله وأمر رسوله بقلوبنا وألسنتنا وأيدينا.

ثم انّ رسول الله (ص) نادى بأعلى صوته ويده في يد علي (ع) وقال: يا أيّها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟

قالوا بأجمعهم: بلى يا رسول الله.

فرفع رسول الله (ص) بضبع علي (ع) حتى رأى الناس بياض ابطيهما، وقال على النسق من غير فصل: (فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من خالفه، وأدر الحقّ معه حيثما دار، ألا فليبلّغ

---

[٧٣] – الفتح: ١٠.

ذلك منكم الشاهد الغائب، والوالد الولد).

الصحابة يبايعون عليّاً (ع)

ثم نزل رسول الله (ص) وكان وقت الظهيرة فصلّى ركعتين ثمّ زالت الشمس، فأذّن مؤذّنه لصلاة الفرض، فلما صلّى بهم جلس في خيمته وأمر عليّاً (ع) أن يجلس في خيمة له بازائه، ثم أمر (ص) المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنّؤوه (ع) بالولاية، ويسلّموا عليه بإمرة المؤمنين، ويبايعوه على ذلك.

ففعل الناس ذلك كلّهم حتى انّ أبا بكر وعمر بايعاه وعمر يقول له: بخّ بخّ لك يابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة([٧٤])، ثم أردفا ذلك بقولهما: السلام عليك يا أميرالمؤمنين ورحمة الله وبركاته، ثم هنّؤوه بالخلافة.

ثم أمر رسول الله (ص) أزواجه وسائر نساء المؤمنين معه أن يدخلن على علي (ع) ويسلّمن عليه بإمرة المؤمنين، ويبايعنه على ذلك، ففعلن وسلّمن عليه (ع) وبايعنه بإدخال أيديهنّ في طشت فيه ماء كان قد أدخل علي (ع) يده فيه قبل ذلك.

جبرئيل ويوم الغدير

ولما فرغ رسول الله (ص) من خطبته رأى الناس رجلاً جميلاً بهيّاً طيّب الريح وهو ينادي ويقول: تالله ما رأيتُ محمداً (ص) كاليوم قطّ، فسعى أحد الصحابة بمقالة الرجل إلى رسول الله (ص)، فقال له رسول الله (ص): أتدري من ذلك الرجل؟

قال: لا.

قال (ص): ذلك هو الروح الأمين جبرئيل، فإيّاك إيّاك أن تحلّه، فإنّك إن فعلته، فالله ورسوله وملائكته والمؤمنون منك براء.

قال ابن عبّاس: قد وجبت والله بيعته في رقاب الصحابة إلى يوم القيامة.

---

[٧٤] – بحار الانوار: ج٢١، ص٣٨٨، مؤسسة الوفاء ـ بيروت.

القرآن يبارك خلافة علي (ع)

وعن ابن عباس، وحذيفة، وأبي ذر وغيرهم، انهم قالوا: والله ما برحنا من مكاننا ذلك حتى نزل جبرئيل بهذه الآية عن الله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً) ([٧٥]).

فقال رسول الله (ص): الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الربّ سبحانه وتعالى برسالتي إليكم، والولاية لعليّ بن أبي طالب بعدي.

فعندها قام حسّان بن ثابت وقال: يا رسول الله أتأذن لي أن أقول في هذا المقام ما يرضاه الله؟

فقال له (ص): قل يا حسّان على اسم الله.

فوقف على نشز من الأرض وتطاول الناس لسماع كلامه، فأنشأ يقول:

الغدير برواية الشعر

يناديهم يوم الغدير نبيّهم بخمّ واسمع بالرسول منادياً

فقال: فمن مولاكمُ ونبّيكم؟ فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت نبيّنا ولم تلق منّا في الولاية عاصيا

فقال له: قم يا علي فإنّني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً

فمن كنتُ مولاه فهذا وليّه فكونوا له أتباع صدق مواليا

هناك دعا اللهمّ وال وليّه وكن للذي عادى علياً معاديا

فقال له رسول الله (ص): لا تزال يا حسّان مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك.

ثم قام من بعده جماعة من الشعراء وألقوا على مسامع القوم أبياتاً في مدح علي (ع) وتبجيل هذه المناسبة العظيمة كقيس بن سعد بن عبادة الخزرجي وغيره.

مع النعمان الفهري

ولما نصب رسول الله (ص) علياً (ع) يوم غدير خم وقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، قَدِمَ على النبي (ص) النعمان بن الحارث الفهري فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا

[٧٥] – المائدة: ٣.

الله، وانّك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها ثم لم ترضَ حتى نصبت ابن عمك علينا وقلت: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟ فقال (ص): والله الذي لا إله إلا هو انّ هذا من الله، فولّى النعمان وهو يقول: اللهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، وأنزل الله تعالى: (سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ) ([٧٦]) الآيات([٧٧]).

من ذكريات الغدير

وفي يوم الغدير أمر رسول الله (ص) بعد أن أخذ البيعة لعلي (ع) بإمرة المؤمنين بزيادة الشهادة الثالثة: (أشهد أنَّ علياً وليّ الله) في فصول الأذان والإقامة.

وقد قال الإمام الصادق (ع): (إذا قال أحدكم لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فليقل: علي أمير المؤمنين) ([٧٨]).

وفي الحديث عن أبي ذر انه أذّن بعد واقعة الغدير وأخذ يهتف بعد الشهادتين بالشهادة الثالثة، فرفع ذلك بعض إلى رسول الله (ص)، فقال (ص): أما وعيتم خطبتي يوم الغدير لعلي بالولاية؟! أما سمعتم قولي في أبي ذر: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر؟!

وروي عن سلمان الفارسي أيضاً انه أذّن بعد قصة الغدير فذكر بعد الشهادتين الشهادة الثالثة في أذانه، فأخبر بعض الصحابة رسول الله (ص) بذلك، فلم يرَ من رسول الله (ص) إلا انه أقرّ لسلمان ذلك.

هذا بالإضافة إلى روايات أُخرى تدلّ على أنّ الشهادة الثالثة جزء من الأذان والإقامة، وقد اخترنا ذلك في الفقه([٧٩]).

الله تعالى يعصم نبيّه (ص)

ثم انه لما تمّت بيعة الناس لعلي (ع) بالخلافة وبعد أن صلّى رسول الله (ص) بهم الفرض، أمرهم بالرحيل، وقد طال مكثهم هناك للبيعة ثلاثة أيّام.

فسار رسول الله (ص) بعد أن أمر الناس بالرحيل يومه وليلته حتى أشرف على عقبة

---

[٧٦] – المعارج: ١.

[٧٧] – بحار الانوار: ج٣٧ ص١٧٥ ب٥٢ ح٦٢.

[٧٨] – بحار الانوار: ج٢٧ ص١ ب١٠ ح١.

[٧٩] – راجع موسوعة الفقه ج١٩ كتاب الصلاة، في فصول الأذان والإقامة.

هدشا، وكان قد تقدّمه نفر من المنافقين إلى ثنية العقبة وأخذوا معهم دباباً قد طرحوا فيها حجارة لينفروا برسول الله (ص) ناقته ويقضوا عليه قبل أن يصل إلى المدينة.

قال حذيفة: فدعاني رسول الله (ص) وأمرني أن آخذ بزمام الناقة، ودعا عمّار بن ياسر وأمره بأن يسوقها، حتى إذا صرنا في رأس العقبة ودحرج أُولئك النفر تلك الدباب بين قوائم الناقة، فزعت الناقة وكادت أن تنفر، فصاح بها رسول الله (ص) أسكني يا مباركة فليس عليكِ بأس.

فلما رأى القوم ان الناقة لا تنفر تقدّموا إليها ليدفعوها بأيديهم، فجعلت أنا وعمّار نضرب وجوههم بأسيافنا ـ وكانت ليلة مظلمة ـ فتأخّروا عنا وقد أيسوا مما دبّروه.

فقلت: يا رسول الله ألا تبعث إليهم رهطاً من أصحابك يأتوك برؤوسهم؟

فقال (ص): اني أكره أن يقول الناس: دعا قوماً إلى دينه فأجابوه فقاتل بهم، حتى إذا ظفر بعدوّه قتلهم، ولكن دعهم فإن الله لهم بالمرصاد وسيمهلهم قليلاً ثم يضطرّهم إلى عذاب غليظ.

قال حذيفة: ثم انحدرنا من العقبة ونزل رسول الله (ص) وتوضّأ وانتظر أصحابه، حتى نزلوا واجتمعوا لصلاة الصبح، فرأيتُ أُولئك النفر قد انخرطوا مع القوم ودخلوا مع رسول الله (ص) إلى الصلاة، فلما قضيت الصلاة دعا رسول الله (ص) أُولئك النفر وعاتبهم على ما كان منهم من الوقوف على العقبة، فاعتذروا بأنّهم تقدّموه إليها لضيق المكان، وليأنس بعضهم ببعض، فنظر إليهم رسول الله (ص) مليّاً ثم قال: وما الله بغافل عمّا تعملون.

فصل

في الأيام الأخيرة من حياته (ص)

الثقلان وديعتا رسول الله (ص)

ثم ان رسول الله (ص) لم يزل بعد يوم الغدير يكرّر من قوله:

(يا أيها الناس اني فرطكم، وأنتم واردون عليَّ الحوض، ألا واني سائلكم عن الثقلين، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما، فإنّ اللطيف الخبير نبّأني انّهما لن يفترقا حتى يلقياني، وسألت

ربّي ذلك فأعطانيه، ألا واني قد تركتهما فيكم: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فلا تسبقوهم فتفرّقوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم، أيها الناس لا ألفينّكم بعدي ترجعون كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقوني في كتيبة كمجرّ السيل الجرّار، ألا وان علي بن أبي طالب أخي ووصيّي، يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله).

تأكيد حديث الغدير

وعن علي (ع) انه قال: أمرني رسول الله (ص) أن أخرج فأُنادي في الناس: (ألا من ظلم أجيراً أجره فعليه لعنة الله، ألا من توالى غير مواليه فعليه لعنة الله، ألا ومن سبّ أبويه فعليه لعنة الله).

قال علي (ع): فخرجت فناديت في الناس كما أمرني رسول الله (ص) فقال الناس: هل لما ناديت به من تفسير؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال (ع): فقام جماعة من أصحاب النبي (ص) فدخلوا عليه، فقالوا: يا رسول الله (ص) هل لما نادى علي من تفسير؟

قال (ص): نعم، أمرته أن ينادي: ألا من ظلم أجيراً أجره فعليه لعنة الله، والله يقول: (قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى) ([80]) فمن ظلمنا أجرنا فعليه لعنة الله.

وأمرته أن ينادي: من توالى غير مواليه فعليه لعنة الله، والله يقول: (النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) ([81]) ومن كنت مولاه فعليّ مولاه، فمن توالى غير علي وذرّيته فعليه لعنة الله.

وأمرته أن ينادي: من سبّ أبويه فعليه لعنة الله، وأنا أُشهد الله وأُشهدكم اني وعلياً أبوا هذه الأُمّة، فمن سبّ أحدنا فعليه لعنة الله.

قال الخباب بن الأرتّ: كان هذا الحديث قبل ارتحال النبي (ص) من هذه الدنيا بتسعة عشر يوماً.

---

[80] – الشورى: ٢٣.

[81] – الأحزاب: ٦.

سريّة أُسامة إلى الروم

ثم عقد رسول الله (ص) اللواء والإمرة لأُسامة بن زيد، وندبه أن يخرج بجمهور الأُمّة إلى حيث أُصيب أبوه من بلاد الروم، وكانت هذه هي آخر سريّة عقدها رسول الله (ص) في حياته، وكان قد اجتمع رأيه على إخراج جماعة من الذين تآمروا عليه في العقبة وتعاهدوا بينهم على نكث البيعة في معسكره، حتى لا يبقى في المدينة عند ارتحاله (ص) من يختلف في الرياسة، ويطمع في التقدّم على الناس بالإمارة، ويستتب الأمر لمن استخلفه من بعده ولا ينازعه في حقّه منازع.

فعقد (ص) لأُسامة الإمرة على كبار الصحابة وذوي أسنانهم وهو حدث السنّ، حتى لا يطعن أحد في تعيين الله ونصب رسوله علياً خليفة من بعده وأميراً للمؤمنين بحداثة السنّ، ثم جدّ في إخراجهم، وأمر أُسامة أن يعسكر بالجرف على أميال من المدينة، وأمر الناس بالخروج إليه والمسير معه، وحذّرهم من التلوّم والإبطاء عنه. وقال (ص): نفّذوا جيش أُسامة، نفّذوا جيش أُسامة، لعن الله من تخلّف عن جيش أُسامة، يكرّرها ثلاثاً([٨٢]).

الإستغفار لأهل البقيع

بينا كان رسول الله (ص) يُحرص أشدّ الحرص على تسيير جيش أُسامة، ومغادرة رؤوس أصحابه المدينة، وتخليتها لعلي (ع) من المعارضين، إذ عرضت له الشكاة التي ارتحل فيها من الدنيا، وكانت شكاته على أثر أُكلة خيبر المسمومة، فإنه مازال ينتقض به سمّها حتى قال (ص) عند ارتحاله: (اليوم قطعت مطاياي الأكلة التي أكلتُ بخيبر، وما من نبيّ ولا وصيّ إلاّ شهيد). وهناك روايات أُخرى في سبب شهادته (ص) مذكورة في المفصّلات.

فلما أحسّ رسول الله (ص) بذلك أخذ بيد علي بن أبي طالب (ع)، واتبعه جماعة من الناس، وتوجّه إلى البقيع، فقال لمن اتبعه: انني قد أُمرت بالإستغفار لأهل البقيع، فانطلقوا معه حتى وقف بين أظهرهم وقال: (السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه

---

[٨٢] – راجع شرح النهج لابن أبي الحديد: ج٦ ص٥٢، دار إحياء التراث العربي، وفيه: (انفذوا جيش أُسامة، لعن الله من تخلّف عنه، وكرّر ذلك).

مما أصبح فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم يتبع أولها آخرها).

ثم استغفر (ص) لأهل البقيع طويلاً.

ثم أقبل إلى علي أميرالمؤمنين (ع) وقال له: (يا أخي انّ جبرئيل كان يعرض عليّ القرآن كل سنة مرة، وقد عرضه عليّ في العام مرتين، ولا أراه إلاّ لحضور أجلي)، ثم قال: (يا علي إني خيّرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها، وبين لقاء ربّي والجنّة، فاخترتُ لقاء ربّي والجنّة خالداً فيها، فإذا أنا متّ فتغسلني) وأوصاه أن يكون (ع) هو الذي يلي أمره.

لا نجاة الا بعمل مع رحمة الله

ثم عاد رسول الله (ص) من البقيع إلى منزله، فمكث ثلاثة أيام موعوكاً، ثم خرج إلى المسجد معصوب الرأس معتمداً إلى علي أمير المؤمنين (ع) بيمنى يديه، وعلى الفضل بن العباس باليد الأُخرى حتى صعد المنبر فجلس عليه، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال: (معاشر الناس قد حان منّي خفوق من بين أظهركم، فمن كان له عندي عدة فليأتني أعطه إياها، ومن كان له عليَّ دَيْن فليخبرني به).

فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله ان لي عندك عدة، اني تزوّجت فوعدتني أن تنحلني ثلاثة أفواق.

فأمر (ص) له بذلك وقال: انحلها وافضل.

ثم قال: معاشر الناس! انه ليس بين الله وبين أحد شيئاً يعط به خيراً، أو يصرف به عنه شرّاً، الاّ العمل، أيها الناس لا يدّعي مدّعٍ، ولا يتمنّى متمنٍّ، والذي بعثني بالحق نبياً لا ينجي إلا عمل مع رحمة الله، ولو عصيت لهويت، ثم قال: اللهمّ هل بلّغت؟ ثم نزل فصلّى بالناس صلاة خفيفة، ثم دخل بيته.

الكتاب والعترة خليفتا رسول الله (ص)

فلمّا كان من الغد أقبل الأنصار وأحدقوا بالباب، وعلموا بشدّة نقاهة رسول الله (ص) والضعف الذي هو فيه فجعلوا يبكون، فسمع رسول الله (ص) البكاء فقال: من هؤلاء الباكون؟

قالوا: هم الأنصار يا رسول الله.

فقال (ص): مَن هنا مِن أهل بيتي؟

قالوا: علي (ع) والعبّاس، فدعا بهما وخرج متكياً عليهما واستند إلى جذع من جذوع مسجده، واجتمع الناس حوله، فحمد الله وأثنى عليه وقال: (معاشر الناس! انه لم يمت نبيّ قطّ إلا خلّف تركة، وقد خلّفتُ فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فتمسّكوا بهما، فمن ضيّعهما ضيّعه الله، ألا وان الأنصار كرشي وعيبتي آوي إليها، أُوصيكم بتقوى الله والإحسان إلى محسنهم، والتجاوز عن مسيئهم).

مع أُسامة بن زيد

ثم انّ رسول الله (ص) دعا أُسامة بن زيد الذي أمره أن يعسكر بالجرف وقال له: سِر على بركة الله حيث أمرتك بمن أمّرتك عليه.

فقال أُسامة: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، أتأذن لي في المقام عندك حتى يشفيك الله، فإني متى خرجت وأنت على هذه الحالة خرجت وفي قلبي منك قرحة.

فقال له رسول الله (ص): انفذ يا أُسامة إلى ما أمرتك.

فخرج أُسامة من يومه ذلك، ونادى منادي رسول الله (ص): ألا لا يتخلّف عن جيش أُسامة أحد ممن أمَّرته عليه.

ثم أمر (ص) قيس بن عبادة والحباب بن المنذر بإخراج جماعة من الأنصار كانوا قد تثاقلوا، وأمرهم بترحيل القوم إلى عسكرهم، ففعلا ذلك حتى ألحقوهم بالعسكر، وقالا لأُسامة: إنّ رسول الله (ص) لم يرخّص لك في التأخير، فسر من قبل أن يعلم بتأخيرك، فارتحل بهم أُسامة، وانصرف قيس والحبّاب إلى رسول الله(ص) وأخبراه بمسير القوم، ومع ذلك فقد تخلّف عن جيش أُسامة بعض كما ورجع منهم آخرون إلى المدينة.

النبي (ص) يصلّي بالمسلمين جالساً

وكان رسول الله (ص) لشدّة شكاته في تلك الليلة لا يفارقه علي (ع) والفضل بن العباس، وكان بلال عندما يؤذّن لكل فريضة يأتي إلى النبي (ص) فيقول: الصلاة يا رسول الله، فإن قدر رسول الله (ص) على الخروج إلى الصلاة خرج وصلّى بالناس، وإن لم يقدر أمر علي بن أبي طالب (ع) أن يصلّي بهم.

وفي صباح تلك الليلة أتاه بلال على عادته يؤذنه بالصلاة، فوجده قد ثقل عن الخروج، فنادى: الصلاة رحمكم الله، فأذّن رسول الله (ص) بندائه ورأسه في حجر علي (ع). ولم يتمكّن (ص) من الخروج إلى المسجد.. هذا والمسلمون جالسون للصلاة فتقدّم أحد الصحابة إلى المحراب، فلمّا كبّر سمعه رسول الله(ص)، فقال لمن حوله: سنّدوني وأخرجوني إلى المسجد.

فخرج (ص) وهو معصّب الرأس معتمداً بين علي (ع) والفضل بن العبّاس ورجلاه يخطّان في الأرض من الضعف، فتقدّم رسول الله (ص) ونحّى الصحابي عن المحراب، وابتدأ الصلاة وكبّر لها مستأنفاً وهو جالس، وبلال يسمع الناس التكبير.

فلما أكمل (ص) صلاته قال لمن حوله: عرّجوا بي إلى المنبر، فأجلسوه على أدنى مرقاة منها واجتمع له جميع أهل المدينة من المهاجرين والأنصار حتى برزت العواتق من خدورهنّ فبين باك وصارخ والنبي (ص) يخطب ساعة ويسكت ساعة.

وكان مما ذكر (ص): أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال (ص): (ألا أيُّها الناس اني مخلّف فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فتمسّكوا بهما، فلا تتقدّموا أهل بيتي فتمرقوا، ولا تتأخّروا عنهم فتزهقوا، وأوفوا بعهدي، ولا تنكثوا بيعتي التي بايعتموني عليها، اللهمّ اني قد بلّغت ما أمرتني، ونصحت لهم ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب).

وفي رواية انه (ص) قال: ألا قد خلّفت فيكم كتاب الله فيه النور والهدى والبيان، ما فرّط الله فيه من شيء، حجّة الله عليكم وحجّتي وحجّة وليّي، وخلّفت فيكم العلم الأكبر، عَلَم الدين، ونور الهدى: وصيّي علي بن أبي طالب، ألا هو حبل الله فاعتصموا به جميعاً ولا تفرَّقوا عنه.

أيّها الناس! لا تأتوني غداً بالدنيا تزفّونها زفّاً، ويأتي أهل بيتي شعثاً غبراً، مقهورين مظلومين، تسيل دماؤهم.

أيّها الناس! الله الله في أهل بيتي، فإنهم أركان الدين، ومصابيح الظلم، ومعدن العلم، علي أخي ووزيري، وأميني والقائم من بعدي بأمر الله، والموفي بذمّتي، ومحيي سنّتي، أول الناس بي ايماناً، وآخرهم عهداً عند الموت، وأولهم لي لقاءاً يوم القيامة، فليبلّغ شاهدكم غائبكم.

أيّها الناس! ومن كانت له قبلي تبعة فها أنا ومن كانت له عدة أو دَيْن فليأت فيها علي بن أبي طالب فإنّه ضامن لذلك كله حتى لا يبقى لأحد عليّ تبعة.

ثم قام (ص) معتمداً بين علي (ع) والفضل بن العبّاس ودخل منزله.

مع المتخلّفين عن جيش أُسامة

ثم انّ رسول الله (ص) بعث من استدعى له المتخلّفين عن جيش أُسامة، فلما حضروا قال لهم (ص): ألم آمركم أن تنفّذوا جيش أُسامة؟!

فقالوا: بلى يا رسول الله.

فقال (ص): فلم تأخّرتم عن أمري؟

فقال بعضهم: اني كنت قد خرجت ثم رجعت لأُجدِّد بك عهداً.

وقال بعض آخر: اني لم أخرج لأني لم أُحب أن أسأل عنك الركبان.

فقال رسول الله (ص): نفّذوا جيش أُسامة، نفّذوا جيش أُسامة. يكرّرها ثلاثاً. لعن الله من تأخّر عنه([٨٣])، ثم اشتدّ ضعفه (ص) وانقطع عن الكلام لعظم ما لحقه من التعب والضعف، فبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه وولده ونساء المسلمين وجميع من حضره (ص).

الرزية كل الرزية

ثم مكث رسول الله (ص) هنيئة كذلك، حتى إذا أفاق من ضعفه نظر إلى من حضره وقال (ص): (ايتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً)، فقال بعضهم: ان الرجل ليهجر! ([٨٤])

---

[٨٣] – وفي شرح النهج لابن أبي الحديد: (انفذوا جيش أُسامة لعن الله من تخلّف عنه وكرر ذلك) ج٦ ص٥٢/ دار إحياء التراث العربي.

[٨٤] – راجع مسند أحمد بن حنبل: ج١ ص٣٥٥ ح٣٣٢٦ وفيه: (قال رسول الله: ائتوني باللوح والدواة، أو الكتف، اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً، فقالوا: إن رسول الله ليهجر) ومثله في صحيح مسلم: ج٣ ص١٢٥٩ ح١، وراجع صحيح البخاري ج١ ص٢٩ ط/ دار إحياء التراث العربي، باب كتابة العلم، وفيه: (قال عمر: إن النبي غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا) والبخاري: ج٦ ص١١

هذا والقرآن يقول: (ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى، وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى) ([٨٥]).

عند ذلك أعرض رسول الله (ص) بوجهه عن القوم، فنهضوا.

قال سليم: وكان ابن عباس كلما تذكّر ذلك بكى وقال: الرزيّة كل الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين أن يكتب لنا ذلك الكتاب.

أنتم المستضعفون بعدي

ولما أعرض رسول الله (ص) عن القوم بوجهه، نهض القوم من عنده وانصرفوا، وبقي عنده علي بن أبي طالب (ع) والعباس بن عبدالمطلب وأهل بيته خاصة.

عندها التفت اليهم رسول الله (ص) وقال لهم: أنتم المستضعفون من بعدي وصمت، فنهضوا وهم يبكون وقد يئسوا من النبي (ص).

مع ابن عباس

ثم ان ابن عباس استأذن على رسول الله (ص) فأذن له، فلما دخل عليه ورآه بتلك الحالة قال: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله قد دنا أجلك؟

قال (ص): نعم، يابن عباس.

فقال: يا رسول الله فما تأمرني به؟

قال (ص): يابن عباس خالف من خالف علياً ولا تكوننّ لهم ظهيراً ولا ولياً.

ثم بكى رسول الله (ص) حتى اشتدّ ضعفه، فلما أفاق قال: يابن عباس سبق الكتاب فيهم وعلم ربي، والذي بعثني بالحق نبياً لا يخرج أحد ممن خالفه من الدنيا وأنكر ولايته وحقه حتى يغيّر الله ما به من نعمة، يابن عباس! إذا أردت أن تلقى الله وهو عنك راضٍ فاسلك طريقة علي بن أبي طالب، ومِل معه حيث ما مال، وارض به إماماً، وعادِ من

باب مرض النبي، وفيه: (فقال بعضهم: ان رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله). [الناشر].

[٨٥] – النجم: ٢ . ٤ .

عاداه، ووالِ من والاه، يابن عباس! إحذر أن يدخلك فيه شك، فإن الشك في علي (ع) كفر بالله.

في وداع الأنصار

ثم انّ رسول الله (ص) دعا الأنصار، فلما حضروا التفت إليهم وقال: (يا معشر الأنصار قد حان الفراق، وقد دعيت وأنا مجيب الداعي، وقد جاورتم فأحسنتم الجوار، ونصرتم فأحسنتم النصرة، وواسيتم في الأموال، ووسّعتم في السكنى، وبذلتم لله مهج النفوس، والله يجزيكم بما فعلتم الجزاء الأوفى، وقد بقيت واحدة، وهي تمام الأمر وخاتمة العمل، العمل بها مقرون، اني أرى أن لا يفرق بينهما جميعاً، لو قيس بينهما بشعرة ما انقاست، من أتى بواحدة وترك الأُخرى كان جاحداً للأُولى ولايقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً).

فقالوا: يا رسول الله بيّنها لنا نتمسّك بها فلا نضلّ ونرتدّ عن الإسلام.

فقال رسول الله (ص) في جوابهم: (كتاب الله، وأهل بيتي، فإن الكتاب هو القرآن، وفيه الحجة والنور والبرهان، كلام الله جديد غض طري شاهد ومحكم عادل ولنا قائد بحلاله وحرامه وأحكامه، يقوم غداً فيحاجّ أقواماً فيزلّ الله به أقدامهم عن الصراط، واحفظوني معاشر الأنصار في أهل بيتي، فإن اللطيف الخبير أخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، ألا وان الإسلام سقف تحته دعامة لا يقوم السقف إلا بها، فلو انّ أحدكم أتى بذلك السقف ممدوداً لا دعامة تحته فأوشك أن يخرّ عليه سقفه فيهوي في النار. أيها الناس! الدعامة دعامة الإسلام وذلك قوله تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) ([٨٦]) فالعمل الصالح طاعة الإمام ولي الأمر من بعدي علي بن أبي طالب والتمسّك بحبله. أيها الناس! أفهمتم؟ الله الله في أهل بيتي مصابيح الظلم، ومعادن العلم، وينابيع الحكم، ومستقر الملائكة، منهم وصيي وأميني ووارثي علي بن أبي طالب وهو مني بمنزلة هارون من موسى، ألا هل بلّغت معاشر الأنصار؟ ألا فاسمعوا ومن حضر، ألا ان فاطمة بابها بابي وبيتها بيتي، فمن هتكه فقد هتك حجاب الله).

---

[٨٦] – فاطر: ١٠.

وداع مع المهاجرين

ثم أمر رسول الله (ص) بأن يجمعوا له المهاجرين، فلما اجتمعوا التفت إليهم وقال: (أيها الناس اني قد دعيت واني مجيب دعوة الداعي، قد اشتقت إلى لقاء ربّي واللحوق بإخواني من الأنبياء، واني أُعلمكم اني قد اوصيت إلى وصيّي، ولم أهملكم إهمال البهائم، ولم أتارك من أُموركم شيئاً).

فقام إليه أحدهم وقال: يا رسول الله أوصيت بما أوصى به الأنبياء من قبلك؟

قال (ص): نعم.

فقال الرجل: فبأمر من الله أوصيت أم بأمرك؟

قال (ص) له: اجلس يا فلان، أوصيتُ بأمر الله، وأمره طاعته، وأوصيت بأمري، وأمري طاعة الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى وصيّي فقد عصاني، ومن أطاع وصيّي فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله...

ثم التفت (ص) إلى الناس وقال: أيها الناس! اسمعوا وصيّتي، من آمن بي وصدّقني بالنبوة واني رسول الله (ص) فأُوصيه بولاية علي بن أبي طالب وطاعته والتصديق له، فإن ولايته ولايتي وولاية ربّي، قد أبلغتكم فليبلّغ الشاهد الغائب: ان علي بن أبي طالب هو العلم، فمن قصر دون العلم فقد ضلّ، ومن تقدّمه تقدّم إلى النار، ومن تأخّر عن العلم يميناً هلك، ومن أخذ يساراً غوى، وما توفيقي إلا بالله، فهل سمعتم؟).

قالوا: نعم.

وفي رواية: انه (ص) قال: ألا اني مخلف فيكم كتاب الله ربّي عزّوجل، وعترتي أهل بيتي.

ثم أخذ بيد علي (ع) فرفعها وقال: هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي، خليفتان نصيران، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فأسألهما ماذا خُلّفت فيهما.

مع الثقلين: الأكبر والأصغر

قال أبو سعيد الخدري: ان آخر خطبة خطبنا بها رسول الله (ص) لخطبة خطبنا في مرضه الذي قبض فيه، خرج متوكياً فجلس على المنبر ثم قال: (يا أيها الناس اني تارك فيكم الثقلين) وسكت.

فقام رجل فقال: يا رسول الله ما هذان الثقلان؟

قال (ص): ما ذكرتهما إلا وأنا أُريد أن أُخبركم بهما، الثقل الأكبر: كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم، والثقل الأصغر: أهل بيتي.

ثم قال (ص): وأيم الله اني لأقول لكم هذا ورجال في أصلاب أهل الشرك أرجى عندي من كثير منكم.

ثم قال (ص): والله لا يحبّهم عبد إلاّ أعطاه الله نوراً يوم القيامة حتى يرد عليّ الحوض، ولا يبغضهم عبد إلا احتجب الله عنه يوم القيامة.

وكان ممّا قاله رسول الله (ص) والمسلمون مجتمعون حوله: أيها الناس! انه لا نبي بعدي، ولا سنّة بعد سنّتي، فمن ادّعى ذلك فدعواه وباغيه في النار، أيها الناس! احيوا القصاص، واحيوا الحق لصاحب الحق، ولا تفرقوا، وأسلموا وسلّموا، كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله قويّ عزيز.

ومما قاله (ص) في أيامه الأخيرة: أيها الناس حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم، فأما حياتي: فإن الله هداكم بي من الضلالة، وأنقذكم من شفا حفرة من النار، وأما مماتي فإن أعمالكم تعرض عليّ، فما كان من حسن استزدت الله لكم، وما كان من قبيح استغفرت الله لكم.

فقام بعض من حضر وقال: وكيف ذاك يا رسول الله وقد رممت؟ يعني: صرت رميماً.

فقال: كلا، ان الله حرم لحومنا على الأرض فلا تطعم منها شيئاً.

وإلى هذا أشار أبو عبدالله الصادق (ع) عندما قال: مالكم تسوؤن رسول الله (ص)؟

فقال له رجل: جعلت فداك وكيف نسوؤه؟

قال (ع): أما تعلمون ان أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية الله ساءه؟ فلا تسوؤا رسول الله (ص) وسرّوه.

الوصية والوصي

ولما ثقل رسول الله (ص) في مرضه الذي قبض فيه كان رأسه في حجر علي(ع)، والبيت مملوء من أصحابه من المهاجرين والأنصار، والعباس بين يديه يذب عنه بطرف ردائه، فالتفت رسول الله (ص) إلى عمه العباس وقال: يا عباس يا عم النبي أقبل وصيّتي في أهلي، وفي أزواجي، واقض ديني، وأنجز عداتي، وأبريء ذمّتي.

فقال العباس: يا رسول الله أنا شيخ ذو عيال كثير، غير ذي مال ممدود، وأنت أجود من السحاب الهاطل، والريح المرسلة، تباري الريح سخاءاً وكرماً، فلو صرفت ذلك عني إلى من هو أطوق له منّي.

فقال رسول الله (ص): أما اني سأعطيها من يأخذها بحقّها، ومن لايقول مثل ما تقول، يا علي هاكها خالصة لا يحاقك فيها أحد، يا علي أقبل وصيتي، وأنجز مواعيدي، وأدِّ ديني، يا علي اخلفني في أهلي وأُمّتي، وبلّغ عني من بعدي.

قال علي (ع): لما نعى رسول الله (ص) إليّ نفسه رجف فؤادي وأُلقي علي لقوله البكاء، فلم أقدر أن أُجيبه بشيء.

ثم عاد (ص) لقوله، فقال (ص): يا علي أوَتقبل وصيّتي؟

قال (ع): فقلت، وقد خنقتني العبرة ولم أكد ابين: نعم يا رسول الله.

فقال (ص): يا بلال ايتني بذي الفقار، ودرعي ذات الفضول، ايتني بمغفري ذي الجبين، ورايتي العقاب، ايتني بالعنزة والممشوق.

فأتى بلال بذلك كله إلا درعه كانت يومئذ مرهونة في أصوع من شعير، كان (ص) قد استقرضها لقوته وقوت عياله.

ثم قال (ص): ايتني بالمرتجز والعضباء، ايتني باليعفور والدلدل، فأتى بها فوقفها بالباب.

ثم قال (ص): ايتني بالأتحمية والسحاب، فأتى بهما، فلم يزل يدعو بشيء شيء، فافتقد عصابة كان يشدّ بها بطنه في الحرب، فطلبها فأتى بها والبيت غاص يومئذ بمن فيه من المهاجرين والأنصار.

ثم قال (ص): يا علي قم فاقبض هذا في حياة منّي، وشهادة من في البيت، لكيلا ينازعك أحد من بعدي.

قال علي (ع): فقمت واستودعت ذلك جميعاً منزلي، ثم جئت فقمت بين يدي رسول الله (ص) فنظر إليَّ ثم عمد إلى خاتمه فنزعه ثم دفعه إليَّ وقال: هاك يا علي هذا لك في الدنيا والآخرة.

ثم قال (ص) لي: يا علي أجلسني، فأجلسته وأسندته إلى صدري.

قال علي (ع): فلقد رأيت رسول الله (ص) وان رأسه ليثقل ضعفاً وهو يقول يسمع

أقصى أهل البيت وأدناهم: إنّ أخي ووصيّي ووزيري وخليفتي في أهلي وأُمّتي علي بن أبي طالب، يقضي ديني، وينجز موعدي، يا بني هاشم يا بني عبد المطلب لا تبغضوا علياً، ولا تخالفوا عن أمره فتضلّوا.

ثم قال (ص): أضجعني يا علي، فأضجعته، فقال (ص) لبلال: يا بلال ايتني بولديَّ الحسن والحسين، فانطلق فجاء بهما فأسندهما إلى صدره، فجعل (ص) يشمّهما.

قال علي (ع): فظننت انهما قد غمّاه . يعني أكرباه . فذهبت لآخذهما عنه.

فقال (ص): دعهما يا علي يشمّاني وأشمّهما، ويتزوّدا منّي وأتزوّد منهما، فسيلقيان من بعدي زلزالاً، وأمراً عضالاً، فلعن الله من يخيفهما، اللهمّ إنّي أستودعكهما وصالح المؤمنين.

مع ابنته فاطمة (عليها السلام)

قال سلمان: بينا أنا عند رسول الله (ص) في مرضه الذي قبض فيه، إذ دخلت عليه فاطمة (ع) فلما رأت ما به (ص) خنقتها العبرة حتى فاضت دموعها على خدّيها، فأبصر ذلك رسول الله (ص) فقال: ما يبكيك يا بنيّة، أقرّ الله عينك ولا أبكاها؟

قالت (ع): وكيف لا أبكي وأنا أرى ما بك من الضعف؟ فمن لنا بعدك يا رسول الله؟

فقال (ص) لها (ع): يا فاطمة لكم الله فتوكّلي عليه واصبري كما صبر آباؤك من الأنبياء، وأُمّهاتك من أزواجهم، ألا أُبشرك يا فاطمة؟

قالت (ع): بلى يا أبه.

قال (ص): أما علمت ان الله تعالى اختار أباك فجلعه نبياً، وبعثه إلى كافة الخلق رسولاً، ثم اختار علياً فأمرني فزوّجتك إياه، واتخذته بأمر ربّي وزيراً ووصيّاً، يا فاطمة انّ علياً أعظم المسلمين على المسلمين بعدي حقاً، وأقدمهم سلماً، وأعزهم خطراً، وأجملهم خلقاً، وأشدّهم في الله وفيّ غضباً، وأعلمهم علماً، وأحلمهم حلماً، وأثبتهم في الميزان قدراً، وأشجعهم قلباً، وأربطهم جأشاً، وأسخاهم كفاً.

فاستبشرت فاطمة (ع)، فأقبل عليها رسول الله (ص) وقال: هل سررتك يا فاطمة؟

قالت (ع): نعم يا أبة، الحديث.

وصايا خاصة

قال ابن عباس: لما مرض رسول الله (ص) وعنده أصحابه قام إليه عمار بن ياسر فقال له: فداك أبي وأُمي يا رسول الله من يغسلك منا إذا كان ذلك منك؟

قال (ص): ذاك علي بن أبي طالب (ع)، لأنه لا يهمّ بعضو من أعضائي إلا أعانته الملائكة على ذلك.

فقال له: فداك أبي وأُمي يا رسول الله فمن يصلّي عليك منّا إذا كان ذلك منك؟

قال (ص): مه! رحمك الله، ثم قال لعلي (ع): يا ابن أبي طالب إذا رأيت روحي قد فارقت جسدي فاغسلني، وانق غسلي، وكفّني في طمريّ هذين، أو في بياض مصر، وبرد يمان، ولا تغال في كفني، واحملوني حتى تضعوني على شفير قبري، فأول من يصلّي عليّ الجبّار جلّ جلاله من فوق عرشه، ثم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل في جنود من الملائكة لا يحصي عددهم إلا الله عزّوجل، ثم الحافّون بالعرش، ثم سكّان أهل سماء فسماء، ثم جلّ أهل بيتي ونسائي الأقربون فالأقربون، يؤمون ايماءاً، ويسلّمون تسليماً.

حقوق الناس

قال ابن عباس: ثم ان رسول الله (ص) قال لبلال: يا بلال هلمّ عليّ بالناس، فاجتمع الناس، فخرج رسول الله (ص) متعصّباً بعمامته، متوكياً على قوسه، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معاشر أصحابي أيّ نبيّ كنت لكم؟

قالوا: كنت لله صابراً، وعن منكر بلاء الله ناهياً، فجزاك الله عنّا أفضل الجزاء.

فقال (ص): وأنتم فجزاكم الله، ثم قال (ص): انّ ربّي عزّوجل حكم وأقسم أن لا يجوزه ظلم ظالم، فناشدتكم بالله أيّ رجل منكم كانت له قِبَل محمد مظلمة إلاّ قام فليقتص منه، فالقصاص في دار الدنيا أحبّ إليَّ من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء.

فقام إليه رجل من أقصى القوم يقال له: سوادة بن قيس وقال: فداك أبي وأُمّي يا رسول الله، انك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، فلا أدري عمداً أو خطأً.

فقال (ص): معاذ الله أن أكون قد تعمّدت، ثم قال: يا بلال قم إلى منزل فاطمة فائتني بالقضيب الممشوق.

فخرج بلال وهو ينادي في سكك المدينة: معاشر الناس من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة؟ فهذا محمد (ص) يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة!

فلما وصل منزل فاطمة (ع) طرق الباب وهو يقول: يا فاطمة قومي فوالدك يريد القضيب الممشوق.

فأقبلت فاطمة (ع) وهي تقول: يا بلال وما يصنع والدي بالقضيب الممشوق في مثل هذا اليوم؟!

فقال بلال: يا فاطمة أما علمتِ انّ والدكِ قد صعد المنبر وهو يودّع أهل الدين والدنيا.

فصاحت فاطمة (ع) وقالت: واغمّاه لغمّك يا أبتاه، من للفقراء والمساكين وابن السبيل، يا حبيب الله وحبيب القلوب؟

ثم ناولت بلالاً القضيب، فجاء به حتى ناوله رسول الله (ص)، عندها قال رسول الله (ص): أين الشيخ؟

قام الشيخ وهو يقول: ها أنا ذا يا رسول الله بأبي أنت وأُمّي.

فقال (ص): تعال فاقتصّ منّي حتى ترضى.

فجاء الشيخ وقال: فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف (ص) عن بطنه مستسلماً للقصاص.

فقال الشيخ: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله، أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟

فأذن (ص) له، فوضع الشيخ فمه عليه يقبّله وهو يقول: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله (ص) من النار يوم النار.

فقال (ص) له عند ذلك: يا سوادة بن قيس أتعفو أم تقتصّ؟

قال: بل أعفو يا رسول الله.

فقال (ص): اللهمّ اعف عن سوادة بن قيس كما عفى عن نبيّك محمّد.

أقول: الظاهر ان سوادة بن قيس أراد أن يقبّل جسم رسول الله (ص) فقال ما قال، وإلا فالرسول (ص) لا يخطأ حتى في مثل ما ادعاه سوادة، لأن العصمة تمنع عن الخطأ، ولعل الرسول (ص) لم يكذبه حتى لا يقول الناس ان النبي (ص) حيث أراد التخلّص من القصاص كذب سوادة.

ثم قام رسول الله (ص) فدخل بيت أُم سلمة وهو يقول: ربّ سلّم أُمّة محمد من النار، ويسّر عليهم الحساب.

فقالت أُم سلمة: يا رسول الله ما لي أراك مغموماً متغيّر اللون؟

فقال (ص): نعيت إلى نفسي هذه الساعة، فسلام لك في الدنيا، فلا تسمعين بعد هذا صوت محمد أبداً.

فقالت أُم سلمة: واحزناه حزناً لا تدركه الندامة عليك يا محمداه.

النبي (ص) ساعة الوداع

قال ابن مسعود: لما دنا فراق رسول الله (ص) جمعنا في بيت فنظر إلينا فدمعت عيناه ثم قال (ص): مرحباً بكم، حياكم الله، حفظكم الله، نصركم الله، نفعكم الله، هداكم الله، وفّقكم الله، سلمكم الله، قبلكم الله، رزقكم الله، رفعكم الله، أُوصيكم بتقوى الله، وأُوصي الله بكم([87])، اني لكم نذير مبين أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإن الله تعالى قال لي ولكم: (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) ([88]). وقال سبحانه: (أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ) ([89]).

قلنا: متى يا رسول الله أجلك؟

قال (ص): دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى، وجنّة المأوى والعرش الأعلى، والكأس الأوفى، والعيش الأهنأ.

قلنا: فمن يغسّلك؟ قال (ص): أخي.

من كلمات الوداع

قال علي (ع): بينما نحن عند النبي (ص) وهو يجود بنفسه وهو مسجّى بثوب وملاءة خفيفة على وجهه، فمكث ماشاءالله أن يمكث ونحن حوله بين باكٍ ومسترجع إذ تكلّم

---

[87] – أي: أطلب من الله سبحانه أن يتفضل بالمزيد عليكم ولفظ (اوصي) من باب المشاكلة مثل قوله تعالى: (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك).

[88] – القصص: ٨٣.

[89] – الزمر: ٦.

(ص) وقال: (ابيضّت وجوه، واسودّت وجوه، وسعد أقوام، وشقي آخرون، أصحاب الكساء الخمسة أنا سيّدهم ولا فخر، عترتي أهل بيتي السابقون المقرّبون، يسعد من اتّبعهم وشايعهم على ديني ودين آبائي، أنجزتَ مواعيدك يا رب إلى يوم القيامة في أهل بيتي).

الأولى حتى من جبرئيل

وعن علي (ع) انه قال: دخلت على رسول الله (ص) في شكاته فإذا رأسه في حجر رجل أحسن ما رأيت من الخلق، والنبي (ص) نائم، فلما دخلت التفت إليّ ذلك الرجل وقال لي: ادن إلى ابن عمك فأنت أحقّ به منّي، فدنوتُ منهما، فقام الرجل وجلست مكانه ووضعتُ رأس النبي (ص) في حجري كما كان في حجر الرجل، فمكث ساعة، ثم استيقظ النبي (ص) فقال: يا علي أين الرجل الذي كان رأسي في حجره؟

قلت: يا رسول الله إنّي لما دخلت دعاني إليك ثم قال: ادن إلى ابن عمك فأنت أحقّ به منّي، ثم قام فجلستُ مكانه.

فقال النبي (ص): فهل تدري من الرجل؟ ذاك جبرئيل كان يحدّثني حتى خفّ عني وجعي، ونمت ورأسي في حجره.

قال عمار: لما حضر رسول الله (ص) أمر الله دعا بعلي (ع) فسارّه طويلاً ثم قال له: يا علي أنت وصيّي ووارثي، قد أعطاك الله علمي وفهمي، فإذا متّ ظهرت لك ضغائن في صدور قوم، وغصبت على حقك.

فبكت فاطمة (ع) وبكى الحسن والحسين (عليهما السلام).

فقال (ص) لفاطمة: يا سيّدة النسوان ممّ بكاؤك؟

قالت (ع): يا أبة أخشى الضيعة بعدك.

فقال (ص): أبشري يا فاطمة فإنك أول من يلحقني من أهل بيتي، لا تبكي ولا تحزني، فإنّك سيدة نساء أهل الجنّة، وأباك سيد الأنبياء، وابن عمك سيد الأوصياء، وابناك سيدا شباب أهل الجنّة، ومن صلب الحسين (ع) يخرج الله الأئمّة التسعة مطهّرون معصومون، ومنك مهدي هذه الأُمّة.

جبرئيل وكتاب الوصيّة

قال علي (ع): دعاني رسول الله (ص) عند ارتحاله من هذه الدنيا وأخرج من كان عنده في البيت غيري، والبيت فيه جبرئيل والملائكة معه، فأخذ رسول الله (ص) كتاب الوصية من يد جبرئيل مختومة، فدفعها إليّ وأمرني أن أفضّها، ففعلت، وأمرني أن أقرأها فقرأتها، فإذا فيها كل ما كان رسول الله (ص) يوصيني به شيئاً شيئاً ما تغادر حرفاً.

قال موسى بن جعفر (ع): قلت لأبي عبدالله (ع): أليس كان أميرالمؤمنين(ع) كاتب الوصية ورسول الله (ص) المملي عليه وجبرئيل والملائكة المقرّبون شهود؟

فقال (ع): قد كان ما قلت، ولكن حين نزل برسول الله (ص) الأمر نزلت الوصية من عند الله كتاباً مسجّلاً، نزل به جبرئيل مع أُمناء الله تبارك وتعالى من الملائكة، فقال جبرئيل: يا محمد مر بإخراج من عندك إلاّ وصيّك ليقبضها منا، وتشهدنا بدفعك إياها إليه.

ففعل رسول الله (ص) ذلك وأشهدهم عليه وقال: يا علي تفي بما فيها مِن موالاة مَن والى الله ورسوله، والعداوة لمن عادى الله ورسوله والبراءة منهم، على الصبر منك، وعلى كظم الغيظ، وعلى ذهاب حقّك، وغصب خمسك، وانتهاك حرمتك.

فقال: نعم يا رسول الله.

فقال أمير المؤمنين (ع): والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لقد سمعت جبرئيل يقول للنبي (ص): يا محمد عرّفه انه ينتهك الحرمة وهي حرمة الله وحرمة رسول الله (ص).

قال أمير المؤمنين (ع): فصعقت حين فهمت الكلمة من الأمين جبرئيل حتى سقطت على وجهي وقلت: نعم قبلت ورضيت وإن انتهكت الحرمة.

ثم دعا رسول الله (ص) فاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وأعلمهم مثل ما أعلم أميرالمؤمنين (ع) فقالوا مثل قوله، فختمت الوصية ودفعت إلى أمير المؤمنين (ع) وخرج جبرئيل والملائكة معه إلى السماء.

ثم عرض على رسول الله (ص) ضعف شديد، فلما أفاق دخلت عليه النساء يبكين وارتفعت الأصوات وضجّ الناس بالباب من المهاجرين والأنصار.

وديعة الله ووديعة رسوله

قال موسى بن جعفر (ع): فقلت لأبي (ع): فما كان بعد خروج الملائكة عن رسول

الله (ص)؟

فقال (ع): ثم دعا (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال لمن في بيته: اخرجوا عني، وقال لأُم سلمة: كوني على الباب فلا يقربه أحد، ثم التفت إلى علي (ع) وقال له: يا علي ادن مني، فدنا منه، فأخذ بيد فاطمة (ع) فوضعها على صدره طويلاً، وأخذ بيد علي (ع) بيده الأُخرى، فلما أراد رسول الله (ص) الكلام غلبته العبرة فلم يقدر على الكلام.

فبكت فاطمة (ع) بكاءاً شديداً وأكبّت على وجهه تقبّله، وبكى علي والحسن والحسين (عليهم السلام) لبكاء رسول الله (ص) ثم أكبّوا على وجهه.

فرفع رسول الله (ص) رأسه إليهم ويدها في يده، فوضعها في يد علي (ع) وقال له: يا أبا الحسن هذه وديعة الله ووديعة رسوله محمد عندك فاحفظ الله واحفظني فيها، وانك لفاعل هذا يا علي، هذه والله سيّدة نساء أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين، هذه والله مريم الكبرى، أما والله ما بلغت نفسي هذا الموضع حتى سألت الله لها ولكم، فأعطاني ما سألته، يا علي أنفذ لما أمرتك به فاطمة، فقد أمرتها بأشياء أمر بها جبرئيل، وأمرتها أن تلقيها إليك، فانفذها، فهي الصادقة الصدوقة، واعلم يا علي اني راضٍ عمّن رضيَت عنه ابنتي فاطمة، وكذلك ربي وملائكته، يا علي ويل لمن ظلمها، وويل لمن ابتزّها حقها، وويل لمن هتك حرمتها، وويل لمن أحرق بابها، وويل لمن آذى حليلها، وويل لمن شاقّها وبارزها، اللهم اني منهم بريء، وهم مني براء، ثم سماهم رسول الله (ص) وضمّ فاطمة إليه وعلياً والحسن والحسين (عليهم السلام) الحديث.

الإقرار بقبول الوصيّة

قال أبو عبدالله الصادق (ع): ثم انّ رسول الله (ص) قال لعلي (ع) بعد أن دفع إليه الوصية وأشهد على ذلك جبرئيل ومن معه من الملائكة: يا علي أضمنت دَيْني تقضيه عنّي؟

قال (ع): نعم، الحديث.

حنوط من الجنة

قال علي (ع): ثم انه كان في الوصية أن يدفع إليَّ الحنوط، فدعاني رسول الله (ص) قبل

ارتحاله عن الدنيا بقليل وقال: يا علي ويا فاطمة هذا حنوطي من الجنة، وكان وزنه أربعين درهماً، قد دفعه إليَّ جبرئيل، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: اقسماه وأعزلا منه لي ولكما.

قالت فاطمة (ع): لك يا أبه ثلثه، وليكن الناظر في الباقي علي بن أبي طالب (ع)، فبكى رسول الله (ص) وضمّها إليه وقال: موفقة رشيدة، مهدية ملهمة، يا علي قل في الباقي.

قال (ع): نصف ما بقي لها، ونصف لمن ترى يا رسول الله.

قال (ص): هو لك فاقبضه

النبي (ص) يستدعي أخاه

ولما ثقل رسول الله (ص) وحجب الناس عنه كان أمير المؤمنين (ع) لا يفارقه إلا لضرورة، فقام (ع) في بعض شؤونه، فأفاق رسول الله (ص) إفاقة فافتقد علياً (ع) فقال وأزواجه حوله: (ادعوا لي أخي وصاحبي) وعاوده الضعف فصمت.

فدُعي له غير علي (ع)، فلما فتح (ص) عينه ونظر إليه أعرض عنه بوجهه.

فقالت أُمّ سلمة: أُدعوا له علياً (ع)، فإنه لا يريد غيره.

فدعي أمير المؤمنين (ع) فلما دنا منه أومأ (ص) إليه، فأكبّ عليه فناجاه رسول الله (ص) طويلاً، ثم قام فجلس ناحية، فقال له الناس بعد ذلك: ما الذي أوعز إليك يا أبا الحسن؟

فقال (ع): علّمني ألف باب من العلم، يفتح لي في كل باب ألف باب، وأوصاني بما أنا قائم به إن شاء الله تعالى.

وفي رواية انه قال (ع): علّمني رسول الله (ص) ألف باب من الحلال والحرام، وما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، كل باب منها يفتح ألف باب، فذلك ألف ألف باب، حتى علمت علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب.

وفي رواية في المستدرك: ألف ألف باب يفتح لي من كلّ باب ألف باب.

ثم انّ أُم سلمة استأذنت على رسول الله (ص) فقال لها: ادعي لي حبيبتي وقرّة عيني وثمرة فؤادي فاطمة المظلومة بعدي، فدعتها، فأقبلت وهي تبكي، فاعتنقها رسول الله (ص) وضمها إلى صدره، فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تهملان دموعاً، ثم ناجاها وأسرّ إليها شيئاً تهلّل وجهها له، ولما سئلت بعد ذلك عن بكائها وعن تهلّل وجهها؟

قالت (ع): نعى إليّ نفسه فبكيت، ثم أخبرني بأني أول أهل بيته لحوقاً به، وانه لن تطول المدّة لي بعده حتى أدركه، وأخبرني أني سيدة نساء أهل الجنّة، وابناي سيدا شباب أهل الجنة وان الأئمة الإثني عشر خلفاؤه هم بعلي ووُلدي: علي (ع) أبوهم وأولهم، والمهدي ابني آخرهم، فتهلّل وجهي لذلك.

ثم انه (ص) دعا الحسن والحسين وقبّلهما وشمّهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان وأخبر (ص) بأنهما سيُظلمان بعده ويقتلان ظلماً، ولعن قاتلهما.

قال ابن عباس: ثم قالت فاطمة (ع) للنبي (ص) وهو في لحظاته الأخيرة: يا أبة أنا لا أصبر عنك ساعة من الدنيا، فأين الميعاد غداً؟

قال (ص): أما انك أول أهلي لحوقاً بي . وكان كذلك فقد لحقت بأبيها بعد خمسة وسبعين يوماً مظلومة شهيدة([٩٠]) . والميعاد على جسر جهنّم.

قالت (ع): يا أبة أليس قد حرّم الله عزّوجل جسمك ولحمك على النار؟

قال (ص): بلى، ولكني قائم حتى تجوز أُمتي.

قالت (ع): فإن لم أرك هناك؟

قال (ص): تريني عند القنطرة السابعة من قناطر جهنّم، أستوهب الظالم من المظلوم.

قالت (ع): فإن لم أرك هناك؟

قال (ص): تريني في مقام الشفاعة وأنا أشفع لأُمّتي.

قالت (ع): فإن لم أرك هناك؟

قال (ص): تريني عند الميزان وأنا أسأل لأُمتي الخلاص من النار.

قالت: فإن لم أرك هناك؟

---

[٩٠] – أو بعد خمسة وتسعين يوماً، على اختلاف الروايات.

قال (ص): تريني عند الحوض، حوضي عرضه ما بين ايله إلى صنعاء، على حوضي ألف غلام([91]) بألف كأس كاللؤلؤ المنظوم، وكالبيض المكنون، من تناول منه شربة فشربها لم يظمأ بعدها أبداً، وجعل يكرّرها.

النبي (ص) حياً وميتاً

ثم ان رسول الله (ص) ثقل وهو (ص) في بيت فاطمة (ع) فأشار إلى علي (ع) فدنا منه، فقال له وهو في لحظاته الأخيرة: (ضع يا علي رأسي في حجرك، فقد جاء أمر الله تعالى، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك، ثمّ وجّهني إلى القبلة وتولّ أمري، فاستق لي ست قرب من ماء بئر غرص، فغسّلني وكفّني وحنّطني، فإذا فرغت فخذ بمجامع كفني واجلسني ثم سلني عما شئت، فو الله لاتسألني عن شيء إلا أجبتك، وصلِّ عليّ أول الناس، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، يا علي ادفنّي في هذا المكان فإنّ بيتي قبري، وارفع قبري من الأرض أربع أصابع، وفي رواية: قدر شبر وأربع أصابع، وفي رواية: واجعل حول قبري حائطاً، ورش عليه من الماء واستعن بالله تعالى).

فأخذ علي (ع) رأس رسول الله (ص) فوضعه في حجره وقد انقطع عن الكلام لما نزل به، فأكبت فاطمة (ع) تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وتقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ففتح رسول الله (ص) عينه وقال بصوت ضئيل: يا بنية هذا قول عمك أبي طالب، لا تقوليه، ولكن قولي: (وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ) ([92]).

على مشارف الآخرة

ولما كان صباح يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة

---

[91] – هذا مثال الزيادة، لا العدد، فهو من قبيل قوله تعالى: (وإن تستغفر لهم سبعين مرة) [التوبة: ٨٠].

[92] – آل عمران: ١٤٤،.

النبوية المباركة استأذن على رسول الله (ص) ملك الموت، وهو (ص) في بيت فاطمة (ع) وعمر رسول الله (ص) إذ ذاك ثلاث وستّون سنة.

قال ابن عباس: فلما طرق الباب قالت فاطمة (ع): من ذا؟

قال: أنا غريب أتيت رسول الله (ص) فهل تأذنون لي في الدخول عليه؟

فأجابت: امضِ رحمك الله لحاجتك، فرسول الله (ص) عنك مشغول.

فمضى ثم رجع فدقّ الباب وقال: غريب يستأذن على رسول الله (ص) فهل تأذنون للغرباء؟

فأفاق رسول الله (ص) وقال: يا فاطمة ان هذا مفرق الجماعات، ومنغّص اللذّات، هذا ملك الموت، ما استأذن والله على أحد قبلي، ولا يستأذن على أحد بعدي، استأذن عليَّ لكرامتي على الله، ائذني له.

فقالت (ع): أُدخل رحمك الله، فلما أُذن له دخل كريح هفّافة وقال: السلام عليك يا رسول الله وعلى أهل بيتك.

قال (ص): وعليك السلام يا ملك الموت.

فقال: انّ ربك أرسلني إليك وهو يقرؤك السلام ويخيّرك بين لقائه والرجوع إلى الدنيا.

فاستمهله (ص) حتى ينزل جبرئيل ويستشيره، فخرج ملك الموت من عنده وجاء جبرئيل فقال: السلام عليك يا أباالقاسم.

قال (ص): وعليك السلام يا حبيبي جبرائيل.

فقال: يا رسول الله انّ ربك إليك مشتاق، وما استأذن ملك الموت على أحد قبلك، ولا يستأذن على أحد بعدك.

قال (ص): يا حبيبي جبرئيل ان ملك الموت قد خيّرني عن ربّي بين لقائه وبين الرجوع إلى الدنيا، فما الذي ترى؟

فقال: يا رسول الله (وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى) [٩٣].

قال (ص): نعم، لقاء ربي خير لي، لا تبرح يا حبيبي جبرئيل حتى ينزل ملك الموت، فنزل

---

[٩٣] – الضحى: ٤ . ٥.

ملك الموت فقال له رسول الله (ص): امض لما أُمرت له.

وفي رواية: قال جبرئيل: يا رسول الله أتريد الرجوع إلى الدنيا؟

قال (ص): لا، وقد بلّغت.

ثم قال ثانية: يا رسول الله أتريد الرجوع إلى الدنيا؟

قال (ص): لا، الرفيق الأعلى.

فقال جبرائيل: يا رسول الله هذا آخر يوم أهبط فيه إلى الأرض([٩٤]) انما كنت حاجتي من الدنيا.

فقال له رسول الله (ص): يا حبيبي جبرئيل ادن مني، فدنا منه، فكان جبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، وملك الموت قابضاً لروحه (ص).

ثم مدّ (ص) يده إلى علي (ع) فجذبه إليه وهو يقول: ادن مني يا أخي فقد جاء أمر الله، فدنا (ع) منه حتى أدخله تحت ثوبه الذي كان عليه، ووضع فاه في أُذنه وجعل يناجيه طويلاً حتى فارقت روحه الدنيا، صلوات الله عليه وآله، ويد أمير المؤمنين (ع) اليمنى تحت حنكه، ففاضت نفسه فيها، فرفعها (ع) إلى وجهه فمسحه بها.

ثم انسل علي (ع) من تحت ثيابه، وقال: أعظم الله أُجوركم في نبيّكم، فقد قبضه الله إليه ثم مدّ عليه ازاره، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، يالها من مصيبة خصت الأقربين وعمت المؤمنين، لما يصابوا بمثلها قط، ولا عاينوا مثلها.

فارتفعت عندها الأصوات بالضجّة والبكاء. فصاحت فاطمة (ع) وصاح المسلمون، وصاروا يضعون التراب على رؤوسهم، وفاطمة (ع) تقول: يا أبتاه إلى جبرئيل ننعاه، يا أبتاه من ربّه ما أدناه، يا أبتاه جنان الفردوس مأواه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، واجتمعت نسوة بني هاشم وجعلن يذكرن النبي (ص). وقالت أُم سلمة: وضعت يدي على صدر رسول الله (ص) يوم قبض فمرّت بي أيام وأسابيع آكل وأتوضأ ما تذهب رائحة المسك من يدي.

أعظم المصائب

[٩٤] – أي آخر هبوط على رسول الله (ص) لأجل إبلاغ الوحي وإلاّ فقد نزل جبرائيل بعده، في قصص مختلفة لا لأجل الوحي.

وكان رسول الله (ص) قد قال لعلي (ع): يا علي من أُصيب بمصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها من أعظم المصائب، وإلى هذا المعنى يشير ما جاء في الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين (ع) من انه كان يقول:

ما غاض دمعي عند نائبة إلا جعلتك للبكا سبباً

وإذا ذكرتك سامحتك به مني الجفون ففاض وانسكبا

وأنشأ أمير المؤمنين (ع) أيضاً يقول:

الموت لا والداً أبقى ولا ولداً هذا السبيل إلى أن لا ترى أحداً

هذا النبي ولم يخلد لأُمته لو خلّد الله خلقاً قبله خُلدا

للموت فينا سهام غير خاطئة من فاته اليوم سهم لم يفته غداً

وأنشأت الزهراء (ع) تقول:

إذا مات يوماً ميّت قلّ ذكره وذكر أبي طول الدُنى في تزيّد

تذكرت لما فرّق الموت بيننا فعزّيت نفسي بالنبي محمد

فقلت لها: إن الممات سبيلنا ومن لم يمت في يومه مات في غد

التعزية من الله تبارك وتعالى

عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: لما قُبض رسول الله (ص) بات آل محمد (عليهم السلام) بأطول ليلة حتى ظنّوا أن لا سماء تظلّهم، ولا أرض تقلّهم، لأنّ رسول الله (ص) وتر الأقربين والأبعدين في الله.

فبينما هم كذلك إذ أتاهم آت لا يرونه ويسمعون كلامه، فقال: (السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، انّ في الله عزاء من كل مصيبة، ونجاة من كل هلكة، ودركاً لما فات (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ) ([٩٥]) انّ الله اختاركم وفضّلكم وطهّركم وجعلكم أهل بيت نبيّه، واستودعكم علمه، وأورثكم كتابه، وجعلكم تابوت علمه، وعصا عزّه([٩٦])،

[٩٥] – آل عمران: ١٨٥.

[٩٦] – تشبيه بتابوت بني إسرائيل، وعصا موسى (عليه السلام).

وضرب لكم مثلاً من نوره([٩٧])، وعصمكم من الزلل، وأمنكم من الفتن، فتعزّوا بعزاء الله، فإن الله لم ينزع منكم رحمته، ولن يزيل عنكم نعمته، فأنتم أهل الله عزّوجل الذين بهم تمّت النعمة، واجتمعت الفرقة، وائتلفت الكلمة، وأنتم أولياؤه، فمن تولاّكم فاز، ومن ظلم حقكم زهق، مودّتكم من الله واجبة في كتابه على عباده المؤمنين، ثم الله على نصركم إذا يشاء قدير، فاصبروا لعواقب الأُمور فإنها إلى الله تصير، قد قبلكم الله من نبيّه وديعة، واستودعكم أولياءه المؤمنين في الأرض، فمن أدّى أمانته آتاه الله صدقه، فأنتم الأمانة المستودعة، ولكم المودّة الواجبة، والطاعة المفروضة، وقد قبض رسول الله (ص) وقد أكمل لكم الدين، وبيّن لكم سبيل المخرج، فلم يترك لجاهل حجّة، فمن جهل أو تجاهل أو أنكر أو نسي أو تناسى فعلى الله حسابه، والله من وراء حوائجكم، واستودعكم الله، والسلام عليكم).

قال الراوي: فسألتُ أبا جعفر (ع) ممّن أتاهم التعزية؟قال (ع): من الله تبارك وتعالى.

جبرئيل يعزّي أهل البيت (عليهم السلام)

وعن أبي عبدالله (ع) قال: لما قبض رسول الله (ص) جاءهم جبرئيل، والنبي (ص) مسجّى، وفي البيت علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ) ([٩٨]) ان في الله عزاء من كل مصيبة، ودركاً من كل ما فات، وخلفاً من كل هالك، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، إنما المصاب من حرم الثواب.

الخضر يعزّي آل الرسول (عليهم السلام)

عن أبي الحسن الرضا (ع) قال: لما قبض رسول الله (ص) أتاهم آت فوقف على باب البيت فعزّاهم به وأهل البيت يسمعون كلامه ولا يرون شخصه، فقال علي بن أبي طالب (ع): هذا هو الخضر أتاكم يعزّيكم بنبيّكم، فكان مما قال في تعزيته:

---

[٩٧] – المراد آية النور.

[٩٨] – آل عمران: ١٨٥.

(السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ) ([99]) انّ في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا، وعليه فتوكّلوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب وأستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

وفي رواية عن أبي ذر عن علي (ع) انه بعث الله عزّوجل إليهم حين قبض رسول الله (ص): بالتعزية وفاطمة (ع) تبكيه، قال (ع): سمعنا حساً على الباب، وقائلاً يقول: (السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، ربّكم عزّوجل يقرئكم السلام، ويقول لكم: انّ في الله خلفاً من كلّ مصيبة، وعزاءاً من كل هالك، ودركاً من كل فوت، فتعزّوا بعزاء الله، واعلموا انّ أهل الأرض يموتون، وانّ أهل السماء لا يبقون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

قال (ع): وأنا في البيت وفاطمة والحسن والحسين أربعة لا خامس لنا إلاّ رسول الله (ص) مسجّى بيننا.

المعصوم لا يليه إلا معصوم

قال ابن مسعود: قلت للنبي (ص) وهو في شكاته: يا رسول الله من يغسّلك إذا حدث بك حادث؟

قال (ص): يغسّل كل نبي وصيّه.

قلت: فمن يا رسول الله وصيّك؟

قال (ص): علي بن أبي طالب.

وقال سلمان: أتيت علياً (ع) وهو يغسّل رسول الله (ص) وكان قد أوصى (ص) أن لا يغسّله غير علي (ع)، وأخبر انه لا يريد أن يقلّب منه عضواً إلا قُلب له.

وقد قال أمير المؤمنين (ع) لرسول الله (ص): من يعينني على غسلك يا رسول الله؟

قال (ص): جبرئيل.

فلما غسّله وكفّنه وحنّطه أدخلني وأدخل أبا ذر والمقداد وفاطمة والحسن والحسين

---

[99] – آل عمران: ١٨٥.

(عليهم السلام) فتقدّم وصففنا خلفه وصلّى عليه، ثم أدخل عشرة من المهاجرين وعشرة من الأنصار، فيصلّون ويخرجون، حتى لم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلاّ صلّى عليه.

وفي رواية: ثم أدخل عليه عشرة فداروا حوله، ثم وقف أمير المؤمنين (ع) في وسطهم، فقال: (إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً) فيقول القوم كما يقول، حتى صلّى عليه (ص) أهل المدينة وأهل العوالي كلهم.

انقطاع النبوّة أكبر فجيعة للأرض

قال ابن عباس: لما قبض رسول الله (ص) تولّى غسله علي بن أبي طالب (ع)، فلما فرغ من غسله كشف الازار عن وجهه ثم قال (ع): (بأبي أنت وأُمّي طبت حياً وطبت ميتاً، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممّن سواك من النبوّة والأنباء، وأخبار السماء، خصصت حتى صرت مسلّياً عمّن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواء، ولولا انك أمرتَ بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدْنا عليك ماء الشؤن، ولكان الداء مماطلاً، والكمد مخالفاً، وقلاّ لك، ولكنه ما لا يملك ردّه ولا يستطاع دفعه، بأبي أنت وأُمّي اذكرنا عند ربّك، واجعلنا من همّك)، ثم أكبّ (ع) عليه (ص) فقبّل وجهه.

وفي نهج البلاغة: (ولقد قُبِض رسول الله (ص) وانّ رأسه لعلى صدري، وقد سالتْ نفسه في كفّي، فأمررتها على وجهي، ولقد ولّيت غسله (ص) والملائكة أعواني، فضجّت الدار والأفنية، ملأ يهبط، وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلّون عليه، حتى واريناه في ضريحه، فمن ذا أحق به منّي حياً وميّتاً؟)([100]).

وفي النهج أيضاً: (إلاّ انّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ، فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون) ([101]).

[100] – نهج البلاغة: الخطبة ١٩٧.

[101] – نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٢.

ولما فرغ المسلمون من الصلاة على رسول الله (ص) . وقد صلّوا عليه فوجاً فوجاً . خاضوا في موضع دفنه فقال بعضهم في البقيع، وقال آخرون: في صحن المسجد.

فقال علي (ع): انّ الله سبحانه لم يقبض نبياً في مكان إلا وارتضاه لرمسه فيه، واني دافنه في حجرته التي قبض فيها، وهي بيت فاطمة (ع) فرضي المسلمون بذلك.

فلما تهيّأ القبر وضع علي (ع) رسول الله (ص) على يديه ثم دلاّه في حفرته، ثم نزل علي (ع) في القبر فكشف عن وجهه، ووضع خدّه على الأرض موجّهاً إلى القبلة على يمينه، ثم وضع عليه اللبن وأهال عليه التراب..

فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا محمد بن عبدالله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا أمين الله، أشهد أنّك رسول الله، وأشهد أنّك محمد بن عبدالله، وأشهد أنّك قد نصحت لأُمّتك، وجاهدت في سبيل ربِّك، وعبدته حتى أتاك اليقين، فجزاك الله يا رسول الله أفضل ما جزى نبياً عن أُمَّته، اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد أفضل ما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم انّك حميد مجيد) ([١٠٢]).

خاتمة

وهل يمكن اعادة دور المسلمين، حتى يأخذوا بأزمة العالم مرة ثانية، كما أخذوها ببركة قيادة الرسول (ص) لينقذوا البشرية من الجهل والفقر والمرض والفوضى، والحروب والثورات، والإستبداد والإستغلال، ومن ألف مشكلة ومشكلة؟

وإذا أمكن فكيف؟

والجواب: نعم يمكن، والطريق هو الرجوع إلى الكتاب والسنّة، كما قال رسول الله (ص):

[١٠٢] – وهذا مروي عن البزنطي قال: قلت للرضا (ع): كيف الصلاة على رسول الله.. وكيف السلام عليه؟ فقال (ع): (تقول:..).

(إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا) ([١٠٣]).

والضلال ليس في العقيدة فحسب، بل في العمل أيضاً، والخلاص ليس عن مشاكل الآخرة فحسب، بل عن مشاكل الدنيا أيضاً، لأن الإسلام دين ودنيا، كما قال القرآن الحكيم: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ، أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ) ([١٠٤]).

وكما قال الحديث الشريف:

(ليس منّا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه) ([١٠٥]).

فإذا أرجعنا إلى المسلمين: (الأُمّة الواحدة) بإسقاط الحدود الجغرافية.

وأرجعنا إليهم: (الأُخوّة الإسلامية) بأن يكون كل مسلم في أي بلد من بلاد الإسلام، حاله حال أهل ذلك البلد في كل شيء.

وأرجعنا إلى مجتمعاتنا وشعوبنا: (الحريات الإسلامية) بأن يكون كل شيء حر ماعدا المحرّمات . وما أقلّها ..

وأرجعنا إلى الحكم: سائر قوانين الإسلام المذكورة في الكتاب والسنّة، وقد ذكرها علماء المسلمين في كتبهم الفقهية ورسائلهم العملية: في العبادات، والمعاملات، والقضاء، والقصاص، والحدود، والديات، والأحوال الشخصية، من: النكاح، والطلاق، والمواريث وغيرها وغيرها.

وكانت القيادة ممّا يعتمد عليها، كما قال علي (ع): (ووَثّقوا بالقائد فاتبعوه) ([١٠٦]) بأن كانت كقيادة الرسول (ص) . في العمل . فإنه (ص) ارتحل من الدنيا وتحت نفوذه تسع دول في منطق عالم اليوم، بينما درعه مرهونة لأجل أصوع من شعير أخذها لقوت نفسه وأهله.

أو كقيادة علي (ع) كما قال بنفسه: (ألا وانّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن

---

[١٠٣] – بحار الانوار: ج٣٦ ص٣٣٨ ب٤١ ح٢٠١.

[١٠٤] – البقرة: ٢٠١ . ٢٠٢.

[١٠٥] – من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص١٥٦ ب٢ ح٣٥٦٨.

[١٠٦] – نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.

طعمه بقرصيه) ([١٠٧]).

وكما قال (ع) أيضاً: (والله لئن أبيتُ على حسك السعدان مسهّداً، أو أُجرّ في الأغلال مصفّداً، أحبُّ إليَّ من أن ألقي الله سبحانه وتعالى ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام، إلى أن قال (ع): والله لو أُعطِيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت) ([١٠٨]).

وكان الحكم شورى، لا أن يستولي الحاكم على الحكم بالسلاح والقوّة، أو يصل إليه بالوراثة ـ ككسرى وقيصر ـ أو يتلاقفه بعض من بعض كالكرة.

وهذا كله لا يكون إلاّ بشورى المرجعية، وتعدّد الأحزاب الحرّة المستندة إلى المؤسسات الدستورية و...

فإنّ ذلك اليوم هو يوم رجوع الإسلام إلى زمام القيادة، وبقيادته الحكيمة لا ينجو المسلمون فحسب، بل ينجو العالم كله حتى المسمّى بالحضاري والمتمدّن، الذي يرسف تحت ألف غلّ وغلّ، وألف مشكلة ومشكلة.

نعم إذا عمل المسلمون بالإسلام، وذلك ممكن فيما إذا عمَّ الوعي واتّقوا الله سبحانه في خطواتهم، ولم يتنازعوا بينهم، يقول الله تعالى: (وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) ([١٠٩]) حينئذ يرجع الإسلام إلى قمة القيادة ويتخلّص العالم من المشاكل والشرور، ومن المآسي والويلات، وما ذلك على الله بعزيز، والله الموفّق المستعان.

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمد وآله الطيّبين الطاهرين.

قم المقدسة

محمد الشيرازي

---

[١٠٧] – نهج البلاغة: في كتابه إلى عثمان بن حنيف/ الكتاب ٤٥.

[١٠٨] – مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٩٧ ب٧٧ ح١٣٦٢٣، ونهج البلاغة: الخطبة ٢٢٤.

[١٠٩] – الأنفال: ٤٦.

الفهرس

غزوة الحديبية..... ٣
في طريق الحديبية..... **٤**
مندوبو قريش من خزاعة..... **٤**
مع ابن مسعود الثقفي..... **٥**
مع كبير رماة العرب..... **٦**
مع المندوب الرابع..... **٧**
مع خامس المندوبين..... **٧**
الاعتراض على معاهدة الصلح..... **٧**
موافقة قريش..... **٨**
بنود معاهدة الصلح..... **٩**
قبل إبرام المعاهدة..... **١٠**
التوقيع على معاهدة الصلح..... **١١**
من معجزات الرسول (ص)..... **١١**
نسك المصدودين..... **١١**

العودة إلى المدينة..... ١٢
من بركات صلح الحديبية..... ١٢
النبي (ص) يتفرّغ لإبلاغ رسالته..... ١٣
غزوة خيبر ١٤
من نفاق ابن أُبيّ ١٥
على مشارف خيبر ١٦
اليهود وقرار المواجهة..... ١٦
قبول النصيحة ١٧
الرجل الذي يحبّه الله ورسوله (ص)..... ١٧
مرحب ينهزم ١٨
البشارة بالفتح..... ١٩
الإرفاق بالأسرى ٢٠
فاتح خيبر ٢٠
الاستسلام وقبول الذمّة..... ٢٠
وأخيراً.. اليهود يسلمون ٢١
للعفو لا للانتقام ٢٢
بشارتان..... ٢٣
هدايا من أرض المهجر ٢٣
كرامات ظهرت في خيبر ٢٤
من علامات النبوّة..... ٢٥

غزوة وادي القرى ٢٥
حوائط فدك ٢٥
سرية أُسامة بن زيد ٢٦
سرية ابن رواحة ٢٧
رد الشمس ٢٨
سرية بشير ٢٨
سرية إلى يُمن وجبار ٢٨
سرية إلى نجد ٢٨
عمرة القضاء ٢٩
النبي (ص) يقضي نسكه ٣٠
عند العودة إلى المدينة ٣٠
من ذكريات السنة الثامنة ٣١
سرية كعب إلى ذات أطلاح ٣١
سريّة مؤتة ٣٢
صاحب الراية البيضاء ٣٢
مع ابن رواحة ٣٣
على مشارف مؤتة ٣٣
مصرع الأُمراء ٣٤
النبي (ص) يبكي جعفراً ٣٥
في رثاء الشهداء ٣٦

مع أصحاب مؤتة..... ٣٦
سرية ذات السلاسل..... ٣٧
القرآن وذات السلاسل..... ٣٨
سرية الغابة..... ٣٩
غزوة الفتح ٣٩
قريش تنقض عهدها ٤٠
ندامة قريش..... ٤١
النبي (ص) يتجهّز للفتح..... ٤٣
مع حاطب بن أبي بلتعة ٤٤
الزحف نحو مكة..... ٤٥
من ذكريات الفتح ٤٦
في مرّ الظهران..... ٤٧
المساعي الحميدة لعباس ٤٨
الأمر الذي لابدّ منه ٤٩
احتياطات ٥٠
أبو سفيان: الداعية الجديد ٥١
أُسلوب الإسلام عند الفتح..... ٥١
على مشارف مكة ٥٢
تطهير البيت من الأصنام ٥٢
من ذكريات الكعبة ٥٣

لائحة حقوق الإنسان..... ٥٣
مع سدانة الكعبة ٥٤
أول أذان على سطح الكعبة..... ٥٥
في دار أُم هاني ٥٦
مع فضالة بن الملوح ٥٧
من مكارم رسول الله (ص) ٥٨
البيعة رجالاً ونساءاً ٥٩
معيار التفاضل في الإسلام..... ٦٠
سرية غالب الي بني مدلج ٦١
سرية عمرو إلى بني الديل..... ٦٢
سرية عبد الله بن سهيل..... ٦٢
سرية خالد الي بني جذيمة..... ٦٢
أنباء الغدر وتداركها ٦٣
غزوة حنين..... ٦٤
هوازن وشيخ بني جشم..... ٦٤
عيون هوازن والمسلمين ٦٦
الاستعداد لمواجهة هوازن ٦٦
في وادي حنين ٦٧
صاحب المواطن المشهورة ٦٨
شيبة يعلن إسلامه ٦٩

كرٌّ بعد فرّ ٦٩
هوازن تنهزم ٧٠
مغانم حنين ٧١
سرية أبي عامر إلى أوطاس ٧١
سرية أبي سفيان إلى الطائف ٧٢
غزوة الطائف ٧٣
الطائف في محاصرة المسلمين ٧٣
في أيام المحاصرة ٧٤
مهمة كسر الأصنام ٧٤
فك الحصار عن الطائف ٧٥
فتنة تقسيم الغنائم ٧٦
مع ذي الخويصرة ٧٧
حكمة تأليف القلوب ٧٨
اعتراض واسترضاء ٧٩
النبي (ص) يستغفر للأنصار ٧٩
مع أسرى هوازن ٨١
معدن الحلم والكرم ٨٢
من معجزات الرسول (ص) ٨٢
مغادرة مكة ٨٣
معيار الأفضلية في الإسلام ٨٣

عروة بن مسعود **٨٤**

إسلام ثقيف **٨٥**

مع لامية كعب بن زهير **٨٦**

جباية الزكوات **٨٧**

سرية الفزاري إلى بني تميم **٨٨**

مع شاعر الرسول (ص): **٨٩**

سرية ابن عامر إلى تبالة **٩٠**

سرية الضحاك إلى بني كلاب **٩٠**

سرية علقمة بن محرز المدلجي **٩١**

سرية علي (ع) إلى طيّ **٩١**

عدي يشرح قصته **٩٢**

سفانة تشرح قصتها **٩٢**

بين يدي رسول الله (ص) **٩٣**

عدي وقومه يُسلمون **٩٤**

غزوة تبوك **٩٦**

من كلمات الرسول (ص) **٩٧**

مع الجدّ بن قيس ٩٨

الضعفاء ٩٩

الإستخلاف وحديث المنزلة ٩٩

مع أبي خيثمة **١٠٠**

من علامات النبوّة **١٠١**

مواساة أبي ذر ١٠١
أبو ذر في الربذة ١٠٢
وقود جهنم ١٠٤
في أرض تبوك ١٠٤
مع صاحب أيلة ١٠٥
سرية أبي عبيدة إلى جذام ١٠٥
سرية سعد إلى بني سليم ١٠٥
سرية خالد إلى الاكيدر ١٠٥
الاكيدر في الأسر ١٠٦
عبدالله ذو البجادين ١٠٧
المفاوضات وفوائدها ١٠٧
المتآمرون على النبي (ص) وخليفته (ع) ١٠٩
القرآن يفضح المتآمرين ١٠٩
مع مسجد ضرار ١١٠
المتطهّرون والثناء عليهم ١١١
أول من يزوره الرسول (ص) ١١١
هذه طابة ١١٢
مع الشركاء الغائبين ١١٢
المتخلّفون عن تبوك ١١٢
قصة المتخلفين ١١٣

توبة المخلّفين الثلاثة ١١٤
المخلّفون وتوبتهم ١١٥
نزول سورة براءة ١١٧
كتاب ملوك حمير إليه (ص) ١١٨
سرية خالد إلى نجران ١١٩
اضطراب نصارى نجران ١٢٠
نصارى نجران في المدينة ١٢٠
المباهلة: الحل الأخير ١٢٢
تزلزل النصارى ١٢٢
تفسير عملي لآية المباهلة ١٢٣
وثيقة صلح نجران ١٢٣
آية المباهلة: وسام من الله تعالى ١٢٥
سرية البجلي ١٢٥
مع عمرو بن معدي كرب ١٢٥
سريتان متزامنتان ١٢٦
سريتان إلى اليمن ١٢٧
من تعليمات السماء ١٢٨
أذى علي (ع) أذى رسول الله (ص) ١٢٨
سرية أُسامة بن زيد ١٢٨
فصل ١٣٠

في الوفود والرُسُل..... ١٣٠
عام الرُّسُل والوفود ١٣٠
وفد هوازن وثقيف..... ١٣٠
وفد بني تميم ١٣١
وفد بني عامر ١٣١
وفد طي ١٣٢
وفد زبيد..... ١٣٣
وفد عبدالقيس ١٣٣
وفد بني حنيفة ١٣٤
وفد كندة..... ١٣٥
وفد بني مراد ١٣٥
وفد الأشعريين ١٣٦
وفد أهل اليمن..... ١٣٦
وفد أزد..... ١٣٦
وفد بجيلة ١٣٧
وفد بني كعب ١٣٧
وفد همدان ١٣٨
وفد مزينة ١٣٨
وفد نجران..... ١٣٩
وفد ملوك حمير..... ١٣٩

وفد جماعة الأعراب ١٣٩
وفد دوس ١٤١
وفد فروة بن عمرو الجذامي ١٤١
وفد بني سعد ١٤١
وفد طارق ١٤٢
وفد نجيب ١٤٢
وفد بني سعد ١٤٣
وفد بني فزارة ١٤٣
وفد بني أسد..... ١٤٤
وفد بهراء..... ١٤٤
وفد عذرة..... ١٤٤
وفد بلّي ١٤٥
وفد ذي مرة ١٤٥
وفد خولان ١٤٥
وفد محارب ١٤٦
وفد صداء..... ١٤٦
وفد غسان..... ١٤٦
وفد سلامان ١٤٦
وفد عبس..... ١٤٧
وفد بني سليم..... ١٤٧

وفد عامر ١٤٧
وفد الأزد ١٤٧
وفد بني المنتفق ١٤٨
وفد النخع ١٤٩
سائر الوفود ١٥٠
فصل ١٥١
في حجة الوداع ١٥١
هكذا حج رسول الله (ص) ١٥٢
العمرة وأعمالها ١٥٢
الحج ومناسكه ١٥٤
حج التمتع ١٥٦
محرمات الإحرام ١٥٧
من حوادث حجّة الوداع ١٥٨
في موقف عرفات ١٥٩
عند مسجد الخيف ١٦٠
آخر أيام التشريق ١٦٠
الوحي وآخر آية من القرآن ١٦١
مَن جمع القرآن؟ ١٦٢
الشواهد الأُخرى ١٦٣
فصل ١٦٦

في الولاية والإمامة ١٦٦
مهمة تبليغ الرسالة ١٦٦
مقتطفات من حديث الغدير..... ١٦٧
الصحابة يبايعون عليّاً (ع) ١٧٠
جبرئيل ويوم الغدير ١٧٠
القرآن يبارك خلافة علي (ع) ١٧١
الغدير برواية الشعر..... ١٧١
مع النعمان الفهري ١٧١
من ذكريات الغدير ١٧٢
فصل..... ١٧٣
في الأيام الأخيرة من حياته (ص)..... ١٧٣
الثقلان وديعتا رسول الله (ص) ١٧٣
تأكيد حديث الغدير..... ١٧٤
سريّة أُسامة إلى الروم ١٧٥
الإستغفار لأهل البقيع ١٧٥
لا نجاة الا بعمل مع رحمة الله ١٧٦
الكتاب والعترة خليفتا رسول الله (ص) ١٧٦
مع أُسامة بن زيد ١٧٧
النبي (ص) يصلّي بالمسلمين جالساً ١٧٧
مع المتخلّفين عن جيش أُسامة..... ١٧٩

الرزية كل الرزية ١٧٩
أنتم المستضعفون بعدي ١٨٠
مع ابن عباس ١٨٠
في وداع الأنصار ١٨١
وداع مع المهاجرين ١٨٢
مع الثقلين: الأكبر والأصغر ١٨٢
الوصية والوصي ١٨٣
مع ابنته فاطمة (عليها السلام) ١٨٥
وصايا خاصة ١٨٦
حقوق الناس ١٨٦
النبي (ص) ساعة الوداع ١٨٨
من كلمات الوداع ١٨٨
الأولى حتى من جبرئيل ١٨٩
جبرئيل وكتاب الوصيّة ١٩٠
وديعة الله ووديعة رسوله ١٩٠
الإقرار بقبول الوصيّة ١٩١
حنوط من الجنة ١٩١
النبي (ص) يستدعي أخاه ١٩٢
بين الحبيب وحبيبه ١٩٣
النبي (ص) حياً وميتاً ١٩٤

على مشارف الآخرة ١٩٤

أعظم المصائب ١٩٦

التعزية من الله تبارك وتعالى ١٩٧

جبرئيل يعزّي أهل البيت (عليهم السلام) ١٩٨

الخضر يعزّي آل الرسول (عليهم السلام) ١٩٨

المعصوم لا يليه إلا معصوم ١٩٩

انقطاع النبوّة أكبر فجيعة للأرض ٢٠٠

النبي (ص) في مثواه الأخير ٢٠١

خاتمة ٢٠١

الفهرس ٢٠٤